حضارة الرومان



تأليف الدكتور
محمد علي

اعداد الدكتورة
منى سعد المشكلط

مكتبة جزيرة الورد


منتدى إقرأ الثقافي
للكتب (كوردي - عربي - فارسي)
www.iqra.ahlamontada.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

علي محمد .

حضارة الرومان | د.محمد علي.

ـ القاهرة. مكتبة جزيرة الورد، ٢٠١٦م، ٢٠٠ ص؛ ٢٥سم.

١- تاريخ الرومان

أ- العنوان ٩٣٥

رقم الإيداع : ٢٠١٦/٣٦٥٨

الترقيم الدولى : ٧-٧-٦٥٦٥-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى: ٢٠١٦م



القاهرة : ميدان حليم. خلف بنك فيصل(الفرع الرئيسي) شارع 26 يوليو من ميدان الأوبرا

ت: 27877574/ 0100104115/ 0100004046/ 0129961635

Email:tokoboko_5@yahoo.com

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ سورة يوسف: ١١١

تعتبر الحضارة الرومانية أو روما القديمة من أهم وأعظم حضارات أوروبا بعد الحضارة الإغريقية. (بالإنجليزية : (Ancient Rome) ، باللاتينية : (Imperium Romanum) ، بالإغريقية : (Βασιλεία Ῥωμαίων).

في الواقع لا يعرف المؤرخون كيف ومتى قامت روما. لكنها كانت تبسط سيطرتها على جميع شبه جزيرة إيطاليا جنوبي ما يعرف الآن بفلورنسا، وكان ذلك عام ٢٧٥ ق.م. وخلال القرنين التاليين تمكن الرومانيون من بناء إمبراطورية امتدت لما يعرف الآن بأسبانيا حتى جنوبي آسيا عبر الساحل الشمالي لإفريقيا وضموا فيما بعد كل ما تبقى من أوروبا إلى إمبراطوريتهم.

مكثت الدولة الرومانية قرابة ألف سنة، نحو خمسة قرون قبل ميلاد المسيح عليه السلام وخمسة بعد الميلاد. وقد سميت بهذا المسمى نسبة لعاصمتها روما ومنطلق حضارتها. وقد اندمجت فيها الثقافة الإغريقية؛ حتى أن الحضارة الرومانية اشتهرت بتقليدها لمظاهر الحضارة الإغريقية فأقاموا المسارح والمدرجات والجسور والقناطر والمنازل وبرعوا في نحت التماثيل والصور، وازدهر الأدب الكوميدي فيها.

ونظراً لأن هذه الحضارة هي واحدة من أهم حضارات العالم القديم فقد قدم المؤلف هذا الكتاب في شكل بانوراما من خلال نظرة عامة مختصرة لأسباب نشأتها ومظاهرها. وقد راعي أن يكون العرض مبسطاً ليتناسب مع كافة مستويات القراء .

راجياً من المولى عز وجل أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يكون نافعاً لكل من يقرأه .

ويهدي هذا المُؤلف إلى أرواح شهداء ليبيا الأبرار ، وإلى روح أبيه الطاهرة، وإلى أبناء عمومته في ليبيا ومصر .

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ سورة هود: ٤٩

صدق الله العظيم

المؤلف

د. محمد علي

تمهيد

الحضارة الرومانية

* التاريخ :

هي حضارة بدأت في شبه الجزيرة الإيطالية في القرن التاسع قبل الميلاد وقد نشأت من مجتمع زراعي صغير بسيط يعيش على الموارد الطبيعية وخصوصاً الزراعة؛ إلى أن أصبحت حاضرة عظيمة بسطت سيطرتها حول معظم بلاد البحر الأبيض المتوسط بينما كانت الإمبراطورية اليونانية في قمة التطور. لكن مع بدايات اضمحلال الإمبراطورية اليونانية بدأ نجم الامبراطورية الرومانية بالبزوغ واصبحت من مجتمع زراعي بسيط إلى قوة سياسية مستقلة تحت مسمى المملكة الرومانية واصبحت قوة لايستهان بها لدرجة أنها استولت على شبه جزيرة القرم وأعلنت نهاية الحكم اليوناني واصبحت المملكة الرومانية حضارة ومملكة معترف بها .

* الرومان وأصلهم :

الرومان هم شعب هاجر من شرق أوروبا إلى الجزر الإيطالية منذ عام ١٢٠٠ ق.م أي القرن الثاني عشر قبل الميلادي وقاموا بتأسيس مدينة روما القديمة، ثم عمل هذا الشعب على تنظيم وتطوير مؤسساته السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية وبدأ بالتوسع التدريجي وأسس دولة سيطرت في بادئ الأمر على شبه الجزيرة الإيطالية. ثم اتسعت هذه الدولة وسيطرت على معظم العالم القديم وأصبحت حدودها شاسعة امتدت من الجزر البريطانية وشواطئ أوروبا

الأطلسية غرباً إلى بلاد ما بين النهرين وساحل بحر قزوين شرقاً ومن وسط أوروبا حتى شمال جبال الألب وإلى الصحراء الإفريقية الكبرى والبحر الأحمر جنوباً. وبذلك كانت مثالاً على مفهوم الدولة الجامعة ذات الطابع الاستعماري. واستمرت حتى القرن الخامس الميلادي الذي فيه تمكنت القبائل الجرمانية من السيطرة على مقاطعات الدولة الرومانية عام ٤٧٦م.

* المملكة الرومانية :

تشير المملكة الرومانية (باللاتينية: Regnvm Romanvm) إلى فترة حضارة الحضارة الرومانية القديمة التي تتميز بنموذج الحكم الملكي لحكومة المملكة الرومانية وهي مملكة مدينة روما القديمة والأقاليم التابعة لها ومقاطعاتها.

لم يتم التأكد سوى من قدر ضئيل من تاريخ المملكة الرومانية، حيث لم تبقَ تقريباً أي سجلات مكتوبة خلال هذه الفترة الزمنية، ولايوجد الكثير من المواد التاريخية الموثقة عن تلك الحقبة؛ حيث كان يعتمد في دراسة تاريخ فترتي الجمهورية الرومانية والإمبراطورية الرومانية على ما كُتب من الأحداث التاريخية المتعلقة بهما والتي اعتمدت إلى حد كبير على الأساطير المتواردة. على أية حال؛ فإن تاريخ المملكة الرومانية قد بدأ بتأسيس المدينة والذي يرجع إلى عام ٧٥٣ ق.م مع إنشاء مستوطنات حول تل البلاطين بطول نهر التيبر في وسط إيطاليا، وانتهى بالإطاحة بالملوك وإنشاء الجمهورية في حوالي ٥١٠ ق.م.

يتميز موقع تأسيس الملكية الرومانية والجمهورية النهائية والإمبراطورية بالأهمية وهي إمكانية عبور نهر التيبر. وقد شكل تل البلاطين والتلال المحيطة به مواقع يسهل الدفاع عنها في السهل الخصب الواسع المحيط بها. ومن ثم ساهمت جميع هذه الميزات في نجاح المدينة.

تذكر الرواية التقليدية للتاريخ الروماني، والتي استخدمها ليفي (Livy) وبلوتارخ (Plutarch) وديونيسيوس الهاليكارناسي (Dionysius of Halicarnassus) وآخرون، أن روما حكمها سبعة ملوك خلال فترة القرون الأولى. أما التقويم الزمني التقليدي؛ وفقًا لما صنفه ڤارو (Varro)، فكانت فترات حكم ملوكهم ٢٤٣ عاماً، وهو بمعدل ٣٥ عاماً تقريباً، والذي تم حسابه بوجه عام من خلال الدراسات الحديثة، وذلك منذ عمل بارثولد جورج نيبور (Barthold Georg Niebuhr). وقد دمر الغال الكثير من السجلات التاريخية الخاصة بروما عند نهبهم المدينة بعد معركة أليا في عام ٣٩٠ ق.م (ڤارونيان، ووفقاً لبوليبيس (Polybius) فقد وقعت المعركة في ٣٨٧/٦)، أما ما تبقى فقد ضاع في النهاية مع مرور الزمن أو التعرض للسرقة. وفي ظل عدم وجود أي سجلات معاصرة للمملكة، يجب أن تظل جميع حسابات الملوك مثار خلاف دقيق.

الفصل الأول

تأسيس الجمهورية الرومانية

الجمهورية الرومانية (بالإنجليزية: Roman Republic)، بدأت الجمهورية الرومانية القديمة من القرن السادس قبل الميلاد إلى القرن الأول قبل الميلادي وهي المرحلة من تاريخ الرومان التي تبنوا فيها نظاماً جمهورياً للحكم. وهي بداية تكوين الإمبراطورية الرومانية التي قامت بعد سقوطها. والحكم فيها كان حكم جمهوري وقامت بعد أن أطيح بأخر ملك روماني وبعد اسقاط الملكية في عام ٥٠٩ ق.م، واستمرت لأكثر من ٤٥٠ عام ، حتى سقوطها على يد يوليوس قيصر بعد الحرب الأهلية الطاحنة والذي أعلن أن الجمهورية الرومانية ستبدأ بالتحول إلى الإمبراطورية الرومانية. لكن بعد الفوضى التي عمت إثر اغتياله خارج مجلس الشيوخ وجد اثنان من الرجال الأقوياء أنفسهما يتصارعان فيما بينهما على الحكم في روما؛ السيناتور 'مارك انطونيو' من جهة، والشاب الطموح "أوكتافيو" (أوكتافيان) من جهة أخرى، وقد حدثت بينهما معركة أكتيوم التي انتهت بانتصار أوكتافيان الذي أعلن رسمياً ولادة الإمبراطورية الرومانية .

* الموقع :

تقع مدينة روما على ضفاف نهر التيبر، بالقرب من الساحل الغربي لإيطاليا. وقد تضمنت الحدود بين منطقتي'لاتيو' - (حيث اللغة اللاتينية هي اللغة الأساسية) - ومنطقة 'اتروريا' في الشمال.



* تاريخ الجمهورية :

اختار رميولوس مائة من رؤساء العشائر في قبيلته ليعينوه على تشيد روما وليكون منهم مجلس شيوخه. وقد سمى كل واحد من هؤلاء الرجال فيما بعد 'باتر' أي (الأب) وسمي أبناءهم وأحفادهم 'بتريشي' – أي (المنحدرين من الآباء). أما النظرية الحديثة التي تستمد حياتها من تجريح التقاليد المأثورة، فيحلو لها أن تفسر وجود هؤلاء الأشراف بأنهم غزاة غرباء لعلهم 'سبيون Sabines' غزوا 'لاتيوم Latium' وحكموا العامة (Plebs) اللاتين بعد هذا الغزو ووضعوهم في منزلة دون منزلتهم هم. ولنا أن نعتقد أنهم كانوا يتألفون من عشائر تملكوا خير الأراضي بفضل تفوقهم الإقتصادي أو الحربي، ثم حولوا زعامتهم الزراعية إلى سيطرة سياسية، وقد ظلت هذه العشائر المنتصرة:– (المنلي Manlii، والفليري Valerii، والإميلي Aemaelii، والكرنيلي Cornelii، والفابي Fabii، والهوراشي Horatii، والكلودي Claudii، والليولي Lulii إلخ) – خمسة قرون كاملة تمد روما بالقواد العسكريين

والقناصل، والقوانين. ولما انضمت القبائل الثلاث الأولى بعضها إلى بعض تكوَّن من رؤساء عشائرها مجلس للشيوخ يتألف من ثلاثمائة من الأعضاء. ولم يكن هؤلاء الأعضاء رجال نعيم وترف كما كان خلفاؤهم فيما بعد. فكثيراً ما كانوا يمسكون بأيديهم الفأس والمحراث. ويعيشون على أبسط الطعام، ويرتدون أثواباً من غزل بيوتهم، وكان العامة يعجبون بهم حتى وقت كفاحهم، ويصفون كل ما يتصل بهم تقريباً بأنه (من الطراز الأول أو الطبقة الأولى Classlscus) . وكان يدانيهم في الثراء وينقص عنهم كثيراً في السلطة السياسية رجال الأعمال (equites). ومن هؤلاء من بلغوا من الثراء درجة أمكنتهم من أن يشقوا طريقهم إلى مجلس الشيوخ، ويكونوا فيه القسم الثاني من الرجال الأشراف والمسجَّلين معهم. وكان يطلق عل هاتين الطبقتين اسم 'الرتبتين' ويلقبون 'بالصالحين Boni' وذلك لأن الحضارات القديمة كانت تقرن الفضيلة بالمرتبة والكفاية والسلطان؛ وكان معنى (الفضيلة Virtus) عند الرومان هو الرجولة أي الصفات التي تكون من مجموعها (الرجل vir). ولم تكن كلمة (Populus: الناس) تشمل غير هاتين الطبقتين العاليتين، وكان هذا هو المعنى الذي يفهم في بداية الأمر من هذه الحروف الأربعة S P Q R (Senatus Populus que Romanus) التي كانت تنقش في زهو وخيلاء على عشرات الآلاف من الآثار. فلما شقت الديمقراطية طريقها في روما تغير معنى كلمة Populus تدرجاً حتى شملت عامة الشعب أيضاً. وكانت الكثرة الغالبة من المواطنين الرومان تتكون من هذه الطبقة. وكان منها الصناع والتجار، ومنها الأرقاء المحررون وكثير منها فلاحون. ولعلهم كانوا في بداية أمرهم أهل تلال المدينة الذين غلبوا على أمرهم، وكان منهم من يتصل بوصفه (مولى Clientes) أو تابعاً بـ (شريف Patronus) من طبقة عليا؛ وكان هؤلاء الأتباع يساعدون الشريف في وقت السلم ويعملون تحت إمرته في

وقت الحرب، ويقترعون في الجمعية كما يأمرهم أن يقترعوا وذلك في نظير حمايته إياهم وما يمنحهم من الأرض الزراعية. وكانوا من الأرقاء أدنى الطبقات، وكانوا في عهد الملوك قليلي العدد كثيري الأكلاف. ولذلك كان سادتهم يحسنون معاملاتهم ويعدونهم أعضاء ذوي نفع كبير في أسرهم.

فلما كان القرن السادس قبل الميلاد، وبدأت روما حياة الغزو والفتح، بيع عدد من أسرى الحرب - مطرد الزيادة - إلى الأشراف ورجال الأعمال وإلى العامة أنفسهم، وانحطت منزلة الرقيق. وكانت القوانين تبيح معاملة العبد كما يعامل الإنسان متاعه؛ ذلك أنه من الوجهة النظرية وطبقاً لعادات القدماء؛ قد فقد حقه في الحياة حين وقع في الأسر، وإن استعباده لم يكن إلا رحمة به وتخفيفاً لحكم الموت الذي استحقه بهزيمته. وكان يعهد إليه في بعض الأحيان أن يدير أملاك سيده وأعماله التجارية وتصريف أمواله؛ وكثيراً ما كان يصبح معلماً أو كاتباً أو ممثلاً أو صانعاً أو عاملاً أو فناناً، ويؤدي إلى سيده بعض ما يصل من المال على ما يكفيه لشراء حريته، ومن ثم يصبح عضواً في جماعة العامة.

ولم تكن طبقات كثيرة من الأهلين راضية عن حالها قانعة بحظها، ذلك أن القناعة من الصفات النادرة بين بني الإنسان بقدر ما هي طبيعية بين الحيوان، ولم تستطع حكومة من الحكومات أن ترضي جميع رعاياها. وفي روما كان رجال الأعمال يألمون لحرمانهم من عضوية مجلس الشيوخ، والأثرياء من العامة يألمون لحرمانهم من أن تكون لهم حقوق رجال الأعمال؛ والفقراء يألمون لفقرهم وحرمانهم من الحقوق السياسية وتعرضهم للاسترقاق إذا عجزوا عن الوفاء بما عليهم من الديون.

وكانت قوانين الجمهورية في عهدها الأول تبيح للدائن أن يسجن المدين الذي يتكرر عجزه عن الوفاء بدينه في سجن انفرادي، وأن يبيعه بيع الرقيق بل أن يقتله. وقد جاء في القانون أن في وسع الدائنين لشخص ما مجتمعين أن يقطعوا جسد المدين العاجز عن الوفاء ويقسموه فيما بينهم – وهو إجراء يلوح به إلا أنه لم ينفذ قط. وطلب العامة أن تلغي هذه القوانين، وأن يخفف عنهم عبء ما تراكم عليهم من الديون، وأن توزع الأرض التي تنال بالحرب وتمتلكها الدولة على الفقراء بدل أن توهب للأغنياء أو تباع لهم بأثمان اسمية؛ وأن يكون من حق العامة أن يختاروا حكاماً وكهنة، وأن يتزوجوا من الأشراف ورجال الأعمال، وأن يكون لهم مثل من طبقتهم في أعلى الوظائف الحكومية. وحاول مجلس الشيوخ أن يقف هذه الحركة بإثارة الحروب الخارجية، ولكنه دهش إذ رأى أن الدعوة إلى حمل السلاح لم يستجب لها أحد.

وفي عام ٤٩٤ ق.م انشق عليهم عدد كبير من العامة ونزحوا إلى الجبل المقدس على نهر أنيو Anio على مسيرة نحو ثلاثة أميال من المدينة، وأعلنوا أنهم لن يعملوا أو يحاربوا من أجل روما حتى تجاب مطالبهم. ولجأ مجلس الشيوخ إلى جميع الحيل السياسية أو الدينية لإغراء العامة بالرجوع إلى روما، ولكن هؤلاء أصروا على مطالبهم؛ فلما خشي أن تقع البلاد في القريب بين ناري الغزو الخارجي والشقاق الداخلي وافق على إلغاء الديون أو تخفيضها، وعلى تعيين 'تريبونين' وثلاثة 'إيديلين Aediles' يُختارون من بين العامة للدفاع عن مصالحهم. ورجع العامة إلى روما ولكنهم أقسموا قبل رجوعهم بأحرج الأيمان أن يقتلوا كل رجل يعتدي على ممثليهم في الحكومة. وكانت هذه هي المعركة الأولى في حرب الطبقات التي لم تنته إلا بانتهاء عهد الجمهورية وبعد أن قضت عليها.

وكانت الخطوة التالية التي خطاها العامة في سبيل نيل حقوقهم أن طالبوا بأن تكون القوانين المدنية واضحة محددة مدونة؛ ذلك أن الكهنة والأشراف قد ظلوا حتى ذلك الوقت هم القائمين بتدوين القوانين المكتوبة وتفسيرها، وكانوا يحتفظون بسجلاتها سراً لا يطلع عليه غيرهم من الأهلين، ويتخذون من هذا الاحتكار وبما تتطلبه القوانين من مراسم أسلحة يقاومون بها كل دعوة إلى الإصلاح الاجتماعي. وعارض مجلس الشيوخ في هذه المطالب الجديدة معارضة طويلة ولكنه وافق في آخر الأمر عام ٤٥٤ ق.م على أن يرسل إلى بلاد اليونان لجنة مؤلفة من ثلاثة من الأشراف لدراسة شرائع 'صولون Solon' وغيره من المشرعين، وكتابة تقرير عنها. فلما عاد الأعضاء اختارت الجمعية في عام ٤٥١ عشرة رجال 'دمسفراي Decemviri' لوضع قانون جديد، وخولتهم أعلى سلطة حكومية في روما مدى سنتين. وكان رئيس هذه اللجنة رجلاً رجعياً قوي الشكيمة يدعى 'أبيوس كلوديوس Appius Claudius' ، وكانت نتيجة أعمالها أن حولت قوانين روما القديمة القائمة على العادة والعرف إلى الإثني عشرة لوحة الذائعة الصيت، وعرضت علي الجمعية فوافقت عليها بعد أن عدلتها بعض التعديل، وعرضتها في السوق العامة لمن يريد أن يقرأها- وكان قادراً على قراءتها. وكانت هذه الحادثة التي تبدو في ظاهر أمرها تافهة غير جديرة بالعناية من الحوادث الهامة البالغة الأثر في تاريخ روما بوجه خاص وفي تاريخ العالم كله بوجه عام؛ ذلك أنها كانت أول ما دون من ذلك الصرح القانوني العظيم الذي كان أهم ما قامت به روما من الأعمال وما قدمته إلى الحضارة من هبات. ولما انتهى العام الثاني من العامين اللذين تولت اللجنة فيهما السلطة العليا أبت أن تعيد الحكم إلى قنصلي الأشراف وتربيوني العامة، وظلت تمارس السلطة العليا- وكانت سلطة أقل قيوداً من سلطة القنصل والتربيون وأكثر منها تحرراً من التبعات.

* هيكل روما الجمهورية :

والآن فلنرسم لأنفسنا صورة من هذه الدولة المعقدة النظام بعد أن قضت خمسة قرون تنمو وتتطور. وقبل أن نفصّل القول في نظامها نقول أن العالم كله مُجمع على أن حكومتها كانت من أقدر ما شهده من الحكومات ومن أعظمها نجاحاً، بل إن 'بوليبوس Polilbius' كان يرى أنها تكاد أن تحقق تحقيقاً تاماً دستور أرسطو طاليس المثالي.

وقد رسمت هذه الحكومة الخطوط الرئيسية للتاريخ الروماني كما رسمت في بعض الأحيان ميادين القتال في هذا التاريخ. نرى أي الأهلين في هذه الدولة هم الذين كان يحق لهم أن يسموا أنفسهم (مواطنين) فأما من الوجهة الرسمية القانونية فقد كان المواطنون هم أبناء إحدى القبائل الثلاث الأصلية في روما أو الذين تبنتهم إحدى هذه القبائل. وكان معنى هذا القول من الوجهة العملية أن المواطنين هم جميع الذكور الذين تزيد سنهم على الخامسة عشرة، والذين لم يكونوا أرقاء أو غرباء، مضافاً إليهم جميع الغرباء الذين منحتهم روما حق المواطنة فيها. ولم يشهد العالم قبل روما أو بعدها دولة من الدول حرصت مثل حرصها على حق المواطنية أو قدرته مثل تقديرها. لقد كان معنى هذا الحق أن يكون المستمع به عضواً من أعضاء الجماعة الصغيرة التي لم تلبث إلا قليلاً حتى حكمت جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط. وكان هذا الحق يحصن صاحبه من التعذيب القانوني، والتعرض للقسر والإرغام، ويمكنه من أن يشكو أي موظف في الإمبراطورية إلى الجمعية الوطنية في روما - أو إلى الإمبراطور نفسه فيما بعد. وكانت هذه الحقوق تستلزم بعض الواجبات؛ فقد كان من حق الدولة على المواطن- إلا إذا كان فقيراً معدماً- أن تدعوه إلى الخدمة العسكرية من سن

السادسة عشرة إلى سن الستين، ولم يكن في وسعه أن يشغل منصباً سياسياً إلا إذا قضى في الجيش عشر سنين. وكانت حقوقه السياسية وثيقة الارتباط بواجباته العسكرية، وبلغ من هذا الارتباط أنه كان يؤدي حقه في التصويت في أهم الأمور بوصفه عضواً في فرقته أو في (مائته)، وكان في عهد الملوك يعطى صوته أيضاً في 'مجلس العشرة Comitia Curiata' أي أنه هو وغيره من زعماء الأسر قد اجتمعوا في مجلس الأقسام الثلاثين التي انقسمت إليها القبائل الثلاث. وقد ظل مجلس العشرة إلى آخر أيام الجمهورية هو الذي يخلع سلطة الحكم على الأحكام، وبعد سقوط الملكية بزمن قليل فقد مجلس العشرة سائر حقوقه الأخرى وآلت هذه الحقوق إلى مجلس المئة؛ فكان الجند يجتمعون جماعات تتألف كل واحدة منها في بادئ الأمر من مائة جندي. وكانت هذه المجالس المئوية هي التي تختار كبار الحكام، وتنظر في الإجراءات التي يرفع إليها من استئناف للأحكام التي يصدرها كبار الحكام، وتنظر بنفسها في جميع القضايا التي يحكم فيها بالإعدام إذا كان المتهمون فيها مواطنين رومان، وتعلن الحرب وتعقد الصلح، ومن ثم كانت هذه الجمعية هي الأساس العام للجيش الروماني والحكومة الرومانية. ولكن سلطانها مع ذلك كان محصوراً في أضيق الحدود، فلم يكن من حقها أن تجتمع إلا إذا دعاها إلى الاجتماع قنصل أو تربيون، ولم يكن من حقها أن تقترع إلا على الأمور التي يعرضها عليها كبار الحكام أو مجلس الشيوخ، ولم يكن لها أن تناقش الاقتراحات أو تعدلها، وكل ما كان من حقها أن تقبلها أو ترفضها.

وكان تنظيم أعضائها على أساس الطبقات ضماناً لجعل قراراتها محافظة بعيدة عن التطرف. فكان على رأس هذه الجمعية ثمان عشرة مائة من الأشراف ورجال الأعمال (الطبقتين الممتازتين). ويلي هؤلاء رجال 'الطبقة الأولى'؛ الذين

لهم أملاك تبلغ قيمتها ١٠٠.٠٠٠ آس . وكان عدد ممثلي هذه الطبقات في الجمعية ثمانين مائة أي ثمانية آلاف رجل، وكانت الطبقة الثانية تشمل المواطنين الذي يقدر أملاكهم بين ٧٥.٠٠٠ و١٠٠.٠٠٠ آس؛ والطبقة الثالثة تشمل من كانت لهم ثروة تقدر بين ٥٠.٠٠٠ و٧٥.٠٠٠ ؛ والرابعة من كانت ثروة أفرادها بين ٢٥.٠٠٠ و٥٠.٠٠٠. وكان لكل طبقة من هذه الطبقات عشرون مائة. وكانت الطبقة الخامسة تشمل المواطنين الذين يملكون بين ١١.٠٠٠ و٢٥.٠٠٠ آس وكان لهؤلاء ثلاثون مائة. أما المواطنون الذين تقل أملاكهم عن ١١.٠٠٠ آس فكانت تمثلهم مائة واحدة (١٠)، وكان لكل مائة عند الاقتراع صوت واحد هو صوت أغلبية أعضائها؛ وكان في وسع أغلبية قليلة في إحدى المئات أن تعطل قرار أغلبية كبرى في مائة أخرى وتجعل الفوز في جانب أقلية عددية. وإذا كانت كل مائة تقترع بترتيب مركزها المالي، وكانت نتيجة اقتراعها تعلن عقب هذا الاقتراع، فقد كان اتفاق الطائفتين الأوليين يجعل لهما ٩٨ صوتاً، وهي أغلبية أصوات الجمعية كلها. ومن أجل هذا فإن الطبقات الدنيا قلما كانت تقترع قط. وكان نظام الاقتراع هو النظام المباشر أي أن المواطن كان يعطى صوته بنفسه، ومن ثم فإن المواطنين الذين لم يكونوا يستطيعون القدوم إلي روما ليحضروا اجتماع الجمعية لم يكن لهم من يمثلهم فيها. ولم يكن ذلك كله مجرد أساليب وحيل لحرمان الفلاحين والسوقة من حقوقهم السياسية. فقد كان نظام المئات نظاماً وضع بعد إحصاء السكان ليقدر على أساسه ما يؤدونه من الضرائب ومن الخدمة العسكرية. وكان الرومان يرون العدل كل العدل أن يكون حق الاقتراع للأهلين متناسباً من ما يؤدونه من الضرائب وما يطلب إليهم أداؤه من الخدمة العسكرية. وعلى هذا الأساس لم يكن لمن يملكون أقل من مائة ألف آس إلا

صوت مئوي واحد؛ ولكنهم في نظير هذا لم يكونوا يؤدون إلا قدراً ضئيلاً لا يؤبه له من الضرائب، وكانوا في الأوقات العادية معفين من الخدمة العسكرية.

وقد ظلت الطبقات الفقيرة إلى أيام ماريوس معفاة من كل شيء إلا من إنتاج أكبر عدد تستطعه من الأبناء، وظل مجلس المائة رغم ما أدخل على نظامه من التعديل فيما بعد هيئة أرستقراطية محافظة لا تستنكف أن تجهر بمبادئها. وما من شك في أن هذه الحال قد جعلت العامة يقيمون لهم من بداية عهد الجمهورية مجالسهم الخاصة المعروفة بـ 'مجالس العامة concilia plebis'. ولعل الجمعية المعروفة بـ 'مجلس قبائل الشعب comitia populi tribvta' التي نراها تمارس حقوقاً تشريعية منذ عام ٣٥٧ ق.م. قد نشأت من هذه المجالس نفسها. وكان المقترعون في هذه الجمعية الشعبية القبلية ينظمون حسب القبيلة التي ينتمون إليها والمسكن الذي يقيمون فيه على أساس الإحصاء الذي حدث في عهد سرفيوس سادس ملوك روما. وكان لكل قبيلة صوت واحد، وكان الأغنياء فيها والفقراء سواء. وأخذت سلطة الجمعية القبلية تزداد بعد اعتراف مجلس الشيوخ بحقوقها التشريعية في عام ٢٨٧ ق.م، وما وافى في عام ٢٠٠ ق.م حتى كانت هي مصدر الشرائع الخاصة في روما. وكانت هي التي تختار 'تربيوني الشعب Tribuni Plebis'(الذين يمثلون القبائل)، وهم غير 'التربيونين العسكرين Tribuni Militares' الذين كانت تختارهم المئات. على أنه في هذه الجمعية نفسها لم يكن الأعضاء يتناقشون. فقد كان أحد كبار الموظفين يقترح قانوناً ويدافع عنه. ثم يقوم موظف كبير غيره يعارضه إذا شاء؛ وتستمع الجمعية لهذا وذاك ثم تقترع عليه بالقبول أو الرفض. وكانت هذه الجمعية بحكم تكوينها ذات نزعة تقدمية أكثر من الجمعية المئوية. ولكنها كانت أبعد ما تكون من

الطرف. وذلك أن إحدى وثلاثين قبيلة من قبائلها الخمس والثلاثين كانت قبائل ريفية، وكان معظم أعضائها من ملاك الأراضي، فكانوا لذلك رجالاً حذرين، ولم يكن لمن فيها من عامة الحواضر، ولم يكونوا يتجاوزون أربع قبائل شيء من السلطة السياسية قبل زمن ماريوس Marius أو بعد قيصر.

وهكذا ظل مجلس الشيوخ صاحب السلطان الأعلى في روما. وكان أعضاؤه الأولون وهم رؤساء العشائر يجددون بقبول القناصل والرقباء (Censors) السابقين أعضاء فيه. وكان يعهد إلى الرقباء أن يعملوا حتى يظل أعضاؤه ثلاثمائة عضو على الدوام، وذلك بأن يرشحوا لعضويته رجالاً من طبقة الأعيان أو الفرسان. وكانت العضوية فيه تدوم مدى الحياة؛ ولكن كان من حق مجلس الشيوخ ومن حق الرقيب أن يفصل أي عضو يضبط متلبساً بجناية أو بجريمة خلقية خطيرة. وكان هذا المجلس الأعلى يجتمع إذا دعاه إلى الاجتماع أحد كبار الحكام في "الكوريا Curia" أو بناء المجلس المواجه للسوق العامة. وكان من العادات اللطيفة أن يأتي الأعضاء معهم بأبنائهم ليحضروا الاجتماع وهم صامتون ليتعلموا السياسة والمماحكة عن قرب. وكان حق المجلس من الوجهة النظرية مقصوراً على مناقشة ما يعرضه عليه أحد كبار الحكام من المسائل وإصدار قرار فيها، وكانت قراراته في هذه المسائل (استشارية محضة senatus consulta) ليس لها قوة القانون؛ ولكن المجلس كان له من عظم المكانة ما جعل الحكام يعملون بتوصياته في جميع الحالات تقريباً. وقلما كانوا يعرضون على غيره من الجمعيات مسائل لم يقرها هو من قبل. على أنه كان من حق أي تريبون أن ينقض قرارات المجلس كما كان من حق الأقلية المنهزمة في المجلس أن

تستأنف القرار إلى الجمعيات الأخرى. ولكن هذه الإجراءات كانت نادرة الحدوث إلا في أيام الثورات والانقلابات.

ولم يكن كبار الحكام يبقون في مناصبهم أكثر من عام واحد في حين أن الشيوخ كانوا يحتفظون بعضوية المجلس مدى الحياة. ولم يكن ثمة مفر من أن يكون صاحب هذا السلطان الخالد المسيطر على صاحب السلطان القصير الأجل. ولهذا كانت الصلات الخارجية، وعقد المحالفات والمعاهدات، وإعلان الحرب. وحكم المستعمرات والولايات، وإدارة الأراضي العامة وتوزيعها بين الأهلين، والأشراف على أموال الخزانة العامة وإنفاقها- كانت هذه الشئون كلها يختص بها مجلس الشيوخ وحده، وقد أكسبه انفراده فيها سلطة لا تكاد تعرف لها حدود. فكان هذا المجلس صاحب السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية مجتمعة، وكان هو الحكم الفصل في الجرائم الكبرى كجريمة الخيانة الوطنية، والتآمر، والاغتيال، وكان يختار من بين أعضائه قضاة للنظر في معظم القضايا المدنية الهامة، وكان في وسعه إذا حدثت أزمة من الأزمات أن يصدر أعظم قراراته وأقواها وهو (sensatus - consultum ultimatum) وهو "أن من واجب القنصلين أن يعملا على ألا تصاب الدولة بأذى" ؛ وهو قرار يفرض الأحكام العرفية ويمنح القنصلين سلطة مطلقة على جميع الأفراد وعلى كل الأملاك. وكثيراً ما كان مجلس الشيوخ في عهد الجمهورية يسيء استعمال سلطانه، فكان يحمي الموظفين المرتشين. ويعلن الحروب بلا تدبر وتفكير، ويستغل البلاد المفتوحة استغلالاً شرها. ويقمع بالقسوة رغبة الشعب في أن يشترك بنصيب أوفر مما كان له في رخاء روما. ولكن تاريخ العالم لم يشهد في غير روما وفي غير عهد الجمهورية- إذا استثنينا من هذا التعميم عهد الأباطرة من 'تراجان Trajan' إلى

'أورليوس Aurilius'- ما شهده في هذا العهد من نشاط وحكمة ومهارة في تصريف الشئون السياسية. كما لم يشهد في غير ذلك العهد ما شهده فيه من سيطرة فكرة خدمة الدولة على جميع أعمال الحكومة وأعمال الشعب. ولسنا ننكر أن الشيوخ لم يكونوا ملائكة معصومين من الزلل، وأنهم كانوا يرتكبون أخطاء خطيرة، وأنهم كانوا في بعض الأحيان متقلبين لا يثبتون على سياسة واحدة، يعميهم حب الكسب عن رؤية مصالح الدولة. ولكن الذي لا شك فيه أن معظم أعضاء هذا المجلس كانوا من كبار الحكام، والمديرين والقواد العسكريين، وكان منهم الولاة الذين حكموا ولايات لا تقل سعة عن الممالك، ومنهم أبناء أسر ظلت مئات الأعوام تنجب لروما ساسةً وقواداً. ولهذا كان من المستحيل ألا يخلو مجلس فيه رجال من هذا الطراز من قسط غير قليل من السمو والعظمة. وكان مجلس الشيوخ في أسوأ حالاته في أيام الانتصار وفي أحسنها أيام الهزيمة. وكان في وسعه أن يسير على سياسة واحدة مدى آجال وقرون كثيرة، كما كان في مقدوره أن يبدأ حرباً في عام ٢٦٤ ق.م لا تضع أوزارها إلا في عام ١٤٦ ق.م. وحسبنا دليلاً على عظمته أنه لما جاء الفيلسوف 'سينياس Cineas' إلى روما موفداً من قبل 'بيرس Pyrrhus' عام ٢٨٠ ق.م. وسمع مناقشات المجلس ورأى رجاله ثم عاد إلى بلاده، قال للإسكندر الجديد: "أن الذي رآه لم يكن مجرد اجتماع من ساسة مأجورين، ولم يكن مجلساً من عقول عادية جمعتها المصادفات المحضة، بل كان في مهابته وحسن سياسته مجمعاً للملوك بحق".

◄ الحكام

وكان كبار الحكام تختارهم الجمعية المئوية، أما صغارهم فكانت تختارهم الجمعية القبلية. وكان يُعيّن في كل منصب زميلان متساويان في السلطة، ولا يبقيان

فيه أكثر من عام واحد ما عدا منصب الرقيب. ولم يكن يجوز لشخص ما أن يتولى المنصب نفسه أكثر من مرة واحدة كل عشر سنين. وكان لا بد أن يمضي عام بين خروجه من منصب وتوليه منصباً آخر، وكان من حق الدولة أن تحاكمه في فترة تعطله إذا أساء استعمال سلطة وظيفته. وكان الروماني الذي يريد أن يشق لنفسه طريقاً في الحياة السياسية، إذا كان قد قضى في الجيش عشر سنين، يرشح نفسه لأن يختار محاسباً (كوسترا quaestor) ينظر تحت إشراف مجلس الشيوخ والقنصلين في نفقات الدولة، ويعاونه (المقدمين praetors) في منع الجرائم ومحاكمة المجرمين. فإذا نال رضاء الناخبين أو ذوي النفوذ من مؤيديه فقد يختار فيما بعد واحداً من الأربعة "الإيدليين" الذين كانوا يشرفون على المباني العامة وقنوات مياه الشرب، وشوارع المدن، والأسواق، والمسارح، والمواخير، والأبهاء العامة، ومحاكم الشرطة، والألعاب العامة. وإذا اطرد بعدئذ نجاحه فقد يكون واحداً من الأربعة المقدمين الذين كانوا يتولون في الحرب قيادة الجيوش ويشغلون في السلم مناصب القضاة وشرّاح القانون . فإذا وصل المواطن إلى هذه الدرجة في (سلم الوظائف cursus honorum) واشتهر بالأمانة وأصالة الرأي كان في وسعه أن يكون أحد (الرقيبين censors) اللذين تختارهم الجمعية المئوية كل خمس سنين، ويتولى أحدهما الإحصاء الدّوري للسكان، وهو الإحصاء الذي كان يُعمل كل خمس سنين، ويسجل أملاكهم ليقدر بذلك مكانتهم السياسية والعسكرية، وما يجب أن يؤدوه من الضرائب. وكان من واجبات الرقيب أن يتعرف أخلاق كل طالب منصب، ويفحص عن سجل أعماله، ويعمل على صيانة أعراض النساء، ويشرف على تعليم الأطفال ومعاملة الأرقاء وجباية الضرائب أو التزامها، وإقامة المباني العامة، وتأجير أملاك الحكومة والتعاقد عليها، والتأكيد من العناية بزراعة الأرض. وكان في مقدور الرقيبين أن يُنقصا منزلة أي مواطن، أو يُخرجا أي

عضو من مجلس الشيوخ لسوء أخلاقه أو لارتكابه جريمة. ولم يكن في وسع أي الرقيبين أن يلغي حق الرقيب الآخر في هذه الناحية. وكان في وسعهما أن يمنعا الإسراف بفرض ضرائب على الكماليات. وكانا يُعدّان ميزانية نفقات الدولة على أساس مشروعات تمتد إلى خمس سنوات، وكانا عند انتهاء الفترة التي يتوليان فيها منصبهما – ومدتها ثمانية عشر شهراً – يجمعان في احتفال مهيب يدعى احتفال (التطهير القومي Lustrum) يتخذانه وسيلة للاحتفاظ بالعلاقات الودية بينهم وبين الآلهة. وكان 'أبيوس كلوديوس كيكس Appius Claudius Caecus' (الأعمى) ابن حفيد أحد الرجال العشرة أول من جعل لمنصب الرقيب منزلة لا تقل عن منزلة القنصل، وهو الذي شيّد إبان توليه هذا المنصب المجرى المائي والطريقين المعروفين بمجرى أبيوس وطريقه، ورقّي الأغنياء من العامة وجعلهم أعضاء في مجلس الشيوخ، وأصلح القوانين الزراعية ومالية الدولة، وعمل على أضعاف ما كان يتمتع به الكهنة والأعيان من احتكار حق القوانين وتصريف الشئون القضائية، وترك له أثراً خالداً في النحو والشعر الرومانيين والبلاغة الروماني، ووجه الرومان إلى فتح جميع إيطاليا بخطابه الذي ألقاه وهو على فراش الموت. ولقد كان المفروض من الوجهة النظرية أن يكون أحد القنصلين من العامة. أما من الوجهة العملية فإنه لم يختر من العامة إلا عدد قليل جداً من القناصل، وذلك لأنهم كانوا يؤثرون على أنفسهم رجالاً أوتوا حظاً موفوراً من التعليم والمران ليعالجوا كل الشئون التنفيذية في جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط في حالتي الحرب والسلم. وكان الموظف الكبير الذي يشرف على اختيار القنصل – إذا ما حان موعد الاختيار– يرقب النجوم ليعرف مَن مِن المرشحين الكثيرين يَجِبُ أن يعرض اسمه ليُختار لهذا المنصب؛ فإذا عرف هذا رأس اجتماع الجمعية المئوية في اليوم التالي، ولم يعرض عليها إلا أسماء الذين تبين من نظرته في النجوم أنهم

صالحون. وبهذه الطريقة كان الأعيان يحولون بين الحديثي النعمة والزعماء المهرجين وبين تسنم هذا المنصب الرفيع. وكانت الجمعية في معظم الحالات تلتزم هذا الخداع الصالح حتى لا تقع في الزلل، أو لأنها لا تجرؤ على مخالفة الأوامر الصادرة إليها. وكان المرشح يحضر الاجتماع بنفسه مرتدياً ثوب الترشيح، وهو ثوب أبيض بسيط، علامة على بساطة حياته وخلقه؛ ولعله كان يحتار ليسهل على المرشح أن يظهر للأعضاء ندب الجروح التي أصيب بها في ميادين القتال. فإذا نجح تولى منصبه في اليوم الخامس عشر من شهر مارس التالي ليوم الانتخاب. وكان القنصل يخلع القداسة على منصبه بتوليه رياسة الطقوس الدينية الخطيرة. وكان في وقت السلم يدعو مجلس الشيوخ والجمعية المئوية إلى الانعقاد ويرأس جلساتهما، ويقترح القوانين وينفذها، ويوزع العدالة بين الناس. وكان في أوقات الحرب يجيش الجيوش ويجمع ما يلزمها من الأموال، ويشترك مع زميله القنصل الثاني في قيادة الفيالق العسكرية؛ فإذا مات القنصلان كلاهما أو وقعا في الأسر أثناء السنة التي يتوليان فيها عملهما أعلن مجلس الشيوخ قيام فترة خلو المنصبين Interregnum، وعين من يتولى تصريف الأمور Interrex (ملك فترة) مدة خمسة أيام تتخذ العدة في أثنائها لانتخاب جديد. ويدل هذا اللفظ الأخير على أن القنصلين قد ورثا في مدة عملهما القصيرة سلطات الملوك. وكانت سلطة القنصل تحددها سلطة زميله القنصل الثاني المساوية لسلطته، وما يفرضه عليه مجلس الشيوخ، وبما كان للتربيون من حق الاعتراض على قراراته. وقد اختير في عام ٣٦٧ ق.م أربعة عشر تربيوناً عسكرياً لقيادة القبائل في الحرب وعشرة تربيونين من العامة يمثلونهم في أوقات السلم. وكان هؤلاء جميعاً يعدون أشخاصاً محصنين إذا مسهم أحد بسوء إلا في عهد الدكتاتورية القانونية عد ذلك خروجاً على الدين وجريمة يعاقب مرتكبها بالإعدام. وكان عملهم أن يحموا الشعب من عدوان

الحكومة، وأن يقفوا بكلمة واحدة منهم هي كلمة 'ڤيتو Veto' ومعناها (أُحَرِّم) كل دولاب الحكومة إذا بدا لأحدهم أن هذا التحريم مرغوب فيه. وكان من حق التريبون أن يحضر اجتماع مجلس الشيوخ بوصفه مشاهداً صامتاً، وأن ينقل للشعب ما يدور فيه من النقاش، وأن يجرد بما له من حق الاعتراض قرارات المجلس من كل ما لها من قوة قانونية. وكان باب بيته المحصن يظل مفتوحاً ليلاً ونهاراً يلجأ إليه كل مواطن يطلب إليه المعونة أو الحماية. وهذا الحق- حق الحماية أو القداسة- شبيه بحق الحصانة (habeas corpus) الذي يمنحه القانون الإنجليزي لسكان إنجلترا في هذه الأيام. وكان في وسعه وهو جالس على دكته أن يصدر أحكاماً قضائية لا معقب لها، ولا تستأنف إلا لجمعية القبائل. وكان من واجبه أن يضمن لكل متهم محاكمة عادلة، وأن يحصل على عفو للمحكوم عليه إذا كان ذلك في استطاعته.

تُرى كيف استطاع الأشراف أن يحتفظوا بسلطانهم وتفوقهم على العامة رغم هذه القيود التي فرضت عليهم؟ لقد كان أول أسباب هذا الاحتفاظ أن القيود المفروضة عليهم كانت مقصورة على مدينة روما نفسها وعلى أوقات السلم وحدها، أما في زمن الحرب فقد كان التريبونون خاضعين للقناصل. والسبب الثاني أن الأشراف كانوا يحملون الجمعية القبلية على اختيار التريبونين من بين أغنياء العامة؛ وكان ما للثروة في روما من منزلة؛ وما يصحب الفقر من ضعة؛ يغريان الفقراء باختيار الأغنياء لحمايتهم والدفاع عنهم. وثالث الأسباب أن زيادة عدد التريبونين من أربعة إلى عشرة قد جعل في مقدور الواحد منهم، إن أمكن إغراؤه بالمال أو استمع لصوت العقل؛ أن يُلغي بما له من حق الاعتراض قرار التريبونين الباقين. وقد سلس قيادتهم على مر الزمن حتى أصبح في الإمكان أن تعهد إليهم دعوة

مجلس الشيوخ إلى الاجتماع وأن يسمح لهم بالاشتراك في مناقشاته، وأن يصبحوا أعضاء فيه مدى الحياة بعد أن تنتهي مدة بقائهم في مناصبهم. وإذا لم تفلح هذه الوسائل كلها في إضعاف سلطان التربيون كانت هناك وسيلة أخرى لوقاية النظام الاجتماعي أعظم منها أثراً. ذلك أن الرومان كانوا يعتقدون أن جميع ما يتمتعون به من الحريات والامتيازات الاجتماعية، وكل ما وضعوه لحماية أنفسهم من قيود وتوازن بين السلطات. كانوا يعتقدون أن هذا كله قد يعوق في إبان الاضطراب والخطر القومي ما يتطلبه إنقاذ الدولة وحمايتها من عمل سريع موحد. وكان من حق مجلس الشيوخ في هذه الحال أن يعلن قيام حالة الطوارئ، كما كان من حق كل من القنصلين أن يرشح حاكماً مطلقاً يتولى جميع السلطات. وقد أختير أولئك الحكام المطلقون في جميع الحالات إلا حالة واحدة من طبقة الأشراف؛ ولكن من واجبنا أن نقول إنصافاً لهذه الطبقة إنها قلما كانت تسيء استخدام هذا المنصب. وكان للحاكم المطلق سلطة تكاد أن تكون غير محدودة على جميع الأشخاص والأملاك، ولكنه لم يكن من حقه أن يستخدم الأموال العامة إلا بموافقة مجلس الشيوخ. وكانت مدة ولايته الحكم مقصورة على ستة أشهر أو سنة. وقد تقيد الحكام المطلقون جميعهم، ما عدا اثنين منهم، بهذه القيود متبعين في ذلك السنة الحسنة التي سنها لهم 'سنسناتس Cincinnatus' كما تقول الرواية المأثورة؛ فقد دعي هذا الرجل من وراء المحراث لينقذ الدولة عام ٤٥٦ ق.م، فلما أدى مهمته عاد من فوره إلى مزرعته. ولما أن خرج 'صولا Sulla' و'قيصر' على هذه السنة عاد الحكم الجمهوري إلى الملكية التي نشأ منها.

القانون الروماني :

وكان كبار الحكام يهيمنون على توزيع العدالة في نطاق هذا الدستور الفذ تطبيقاً للألواح الاثنى عشر التي سجلتها فيها لجنة العشرة. ولقد كان تسجيل القانون الروماني في هذه الألواح حادثاً هاماً في التاريخ الروماني؛ وكان القانون الروماني قبل هذا التسجيل خليطاً من العادات القبلية والمراسيم الملكية والأوامر الكهنوتية. وبقيت أساليب القدماء - Mos Maiorum - إلى آخر أيام روما الوثنية القدوة الخلقية الصالحة، والمعين الذي تستمد منه القوانين؛ ومع أن الخيال والرغبة في الإصلاح والتهذيب، قد أعليا من شأن سكان المدن القساة في عهد الجمهورية الأول، وجعلا منهم أعلى يطلبون إلى المواطنين أن يعملا للوصول إليه، فإن القصص التي تروي عن أخلاق أولئك السكان قد أعانت المربيين على غرس فضيلتي الصبر وقوة الاحتمال في أخلاق الشباب في روما. أما عدا هذا فإن القانون الروماني القديم كان مستمداً من القواعد والعادات الكهنوتية، فكان بذلك فرعاً من الدين يغمره جو من الطقوس الرهيبة والحدود المقدسة. وكان هذا القانون أوامر تصدر وعدالة تطبق؛ ولم يكن يحدد العلاقة بين الناس بعضهم بعضاً فحسب بل كان يحدد فوق ذلك العلاقة بين سلام الآلهة، وكان الغرض من القانون ومن العقاب من الوجهة النظرية هو الاحتفاظ بهذه العلاقة أو إعادتها هي والسلام إذا اضطربا وتعكر صفوهما.

وكان الكهنة هم الذين يعلنون ما هو حق وما هو باطل (fas et nefas)، ويقررون في أي الأيام تفتح المحاكم وتعقد المجالس. وكانت كل المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق والعزوبية والزواج بالأقارب والوصايا ونقل الملكية وما للأطفال من حقوق؛ كانت كل هذه المسائل لابد من عرضها على الكهنة كما لا

بد من عرض الكثير منها على المحامين في هذه الأيام. وكان الكهنة وحدهم هم الذين يعرفون القوانين والسنن التي لا يكاد يستطاع عمل شيء مشروع إلا باتباعها. وكانوا في روما هم المستشارين القانونيين، وكانوا هم أول من يبدي الرأي القانوني (ressponsa) في مهام الأمور. وكانت القوانين تسجل في كتبهم، وكانوا يحتفظون بهذه الكتب بعيدة عن متناول العامة؛ وبلغ من حرصهم عليها أن اتهموا في بعض الأحيان بتغيير نصوص القوانين لكي تتفق مع أغراض الأشراف أو رجال الدين.

◄ الألواح الاثنى عشر :

ولقد أحدثت الألواح الاثنا عشر انقلاباً قضائياً مزدوجاً؛ ذلك أنها أذاعت القانون الروماني ونشرته، وأنها صبغته بالصبغة الدنيوية غير الدينية. وتمثل هذه الألواح – (كما تمثل غيرها من كتب القانون التي دونت في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد كقوانين : 'خاروندا‌س Charondas'، و'زليكس Zaleucus' و'ليقوركوس Lycurgus' و'صولون Solon') – مرحلة انتقال من العادات غير الثابتة غير المكتوبة إلى مرحلة القانون المحدد المدون، وكان هذا العمل نتيجة انتشار القراءة والكتابة بين الناس وتمكن الروح الديمقراطية فيهم. يضاف إلى هذا أن (قانون المواطنين ius civile)، كما هو مدون في الألواح الاثني عشر، قد تحرر من الصبغة الدينية أو (القانون الديني ius divinum) كما يقول الرومان أنفسهم، وكأن روما بعملها هذا استقر رأيها على إلا تكون دولة كهنوتية. وضعف سلطان الكهنة فوق هذا الضعف وحرموا من احتكارهم تفسير القوانين وتنفيذها حين نشر أمين سر 'أبيوس كلوديوس Appius Claudius' (الأعمى) في عام ٣٠٤ تقويماً يشتمل على أيام اجتماع المحاكم يعرف بـ (أيام

الأفوال dies fasti)، ومرسوماً بما يجب اتباعه من الإجراءات القضائية، ولم تكن يعرف هذه وتلك من غير الكهنة إلا عدد جد قليل.

وخطا الرومان خطوة أخرى في صبغ القانون بالصبغة الدنيوية حين بدأ 'كرنكانيوس Coruncanius' في عام ٢٨٠ ق.م يعلم الشعب القانون الروماني وهو أول عمل من نوعه معروف في التاريخ. ومن ذلك الوقت حل رجل القانون محل الكاهن وأصبحت له هو السيطرة على عقل روما وحياتها. وما لبثت هذه الألواح أن أصبحت أساس برامج التعليم في روما، وظل تلاميذ المدارس إلى أيام 'شيشرون' يحفظون ما تحتويه عن ظهر قلب؛ وما من شك في أنها كانت من العوامل التي بثت في نفوس الرومان مبادئ الصرامة وحب النظام، والاستمساك بالقانون وعدم التفريط في الحقوق. ولقد ظلت الألواح الاثنا عشر بما أدخل على نصوصها من تعديل، وبما أضيف إليها من قوانين جديدة عن طريق التشريع والمراسيم البريترية والقنصلية والإمبراطورية، ظلت هذه الألواح مدى تسعة قرون أساس القانون الروماني.

◂ التقاضي الروماني :

وكان قانون المرافعات في كتاب القوانين الروماني وافياً شديد التعقيد. وكان في وسع أي موظف كبير- إلا في القليل النادر- ان يكون قاضياً، لكن المحاكم العادية لم تكن تتألف إلا من 'البريتورين praetors' وكان إصلاحهم للقوانين وشرحها من أكبر العوامل التي أكسبت القانون الروماني حيوية ونماء وحالت بينه وبين أن يصبح جثة هامدة من الإجراءات. ذلك أن كبير حكام المدينة (praetor urbanus) كان يعد في كل عام ثبتاً أو (لوحة بيضاء) يحوي أسماء أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان الذين يصح اختيارهم ليكونوا محلفين؛ وكان رئيس

الجلسة في كل قضية يختار المحلفين فيها من بين أصحاب هذه الأسماء، على أن يكون للمدعي والمدعي عليه الحق في أن يرفضا قبول بعضهم وإن كان هذا الحق لم يستخدم إلا في عدد محدود من المرات. وكان يسمح للمحامين القضائيين أن يقدموا مشورتهم للمتقاضين ويدافعوا عنهم في ساحة القضاء، كما كان من حق أعضاء مجلس الشيوخ أن يقدموا المشورة القضائية في بيوتهم أو في مجالس عامة. وكان قانون "سنسيوس Cincius" الصادر في عام ٢٠٤ ق.م يحرم على من يقدم المشورة القضائية أن يتقاضى عنها أجراً. ولكن المهارة القانونية كانت تجد كثيراً من السبل للتخلص من هذا القيد القائم على النزعة المثالية؛ وكثيراً ما كان الأرقاء يعذبون لحملهم على الاعتراف.

وكانت مجموعة القوانين التي تحتويها الألواح الاثنا عشر من أشد القوانين التي شهدها التاريخ، ذلك أنها كانت تحتفظ بالسيطرة الأبوية الكاملة القديمة التي كانت للأب في المجتمعات الزراعية العسكرية، فكان يسمح للأب بمقتضاها أن يجلد ابنه أو يربطه بالأغلال، أو يسجنه أو يبيعه أو يقتله- وكل ما قيد به سلطته أن حرر الابن من سيطرة أبيه إذا بيع هذا الابن ثلاث مرات. واحتفظ القانون بما بين الطبقات من فروق بتحريم الزواج بين الأشراف والعامة؛ وكان للدائنين على المدينين حقوق مطلقة من كل قيد؛ كما كان للملاك الحرية الكاملة في أن يتصرفوا في أملاكهم عن طريق الوصية، وكانت حقوق الملكية تبلغ من القداسة حداً يجعل السارق الذي يضبط متلبساً بجريمة السرقة عبداً للمسروق منه. وكانت العقوبات تتفاوت من الغرامة البسيطة إلى النفي أو الاسترقاق أو الإعدام، ومنها ما كان يجري بطريق القصاص (lex talionis).

وكثيراً ما كانت الغرامات تحدد تحديداً دقيقاً حسب طبقة المعتدي عليه فكانت عقوبة كسر عظام الحر ٣٠٠ آس، وكسر عظام العبد ١٥٠ آساً. وكان القذف والرشوة والحنث في الإيمان، وسرقة المحصولات الزراعية، وإتلاف غلات الجار ليلاً، وخديعة المحامي للمتقاضين، وممارسة السحر، ودس السم في الطعام، والاغتيال، والاجتماع في المدينة ليلاً لتدبير الفتن والمؤامرات؛ كانت هذه كلها يعاقب عليها بالإعدام. وكان الابن الذي يقتل أباه يوضع في كيس ومعه في بعض الأحيان ديك، أو كلب، أو قرد، أو أفعى؛ ويلقى في النهر. على أنه كان من حق المواطن في العاصمة نفسها أن يستأنف الحكم الصادر عليه بالإعدام من أية جهة قضائية عدا حكم الدكتاتور نفسه إلى الجمعية المئوية. وإذا رأى المتهم أن الأمور في الجمعية تسير في غير مصلحته كان له أن يخفف الحكم الصادر عليه إلى النفي وذلك بالخروج من روما. ولهذا فإن عقوبة الإعدام رغم صرامة الألواح الاثني عشر قلما كانت تنفذ في عهد الجمهورية الرومانية.

♦ جيش الجمهورية :

هو النظام العسكري القائم في العصر الروماني القديم. وقد كان الجيش الروماني هو الأساس الذي يعتمد عليه الدستور الروماني في آخر الأمر الذي كان أكثر الأنظمة العسكرية نجاحاً في تاريخ العالم كله.

كان أكبر العوامل في قوة هذا الجيش وانتصاراته هو حسن نظامه، ذلك أن الشاب الروماني كان يعد للحرب منذ طفولته، فكان أهم ما يدرسه العلوم التي تؤهله لأن يكون جندياً صالحاً، وكان يقضي عشر سنوات من عمره في ميادين القتال أو في المعسكرات. وكان الجبن في هذا الجيش هو الجريمة التي لا تغتفر وكان يعاقب عليها بجلد من يرتكبها حتى الموت. ولم يكن من حق قائد الجيش

أن يحكم بالإعدام على أي جندي أو ضابط للفرار من القتال فحسب، بل كان من حقه أيضاً أن يحكم عليه بهذه العقوبة نفسها إذا خالف ما يصدر إليه من الأوامر ولو أدت مخالفته إياها إلى أحسن العواقب. وكان الذي يفر من الجندية أو يرتكب جريمة السرقة يعاقب بقطع يده اليمنى.



الجمهورية الرومانية سنة ٢٠٠ ق.م.

* فتح إيطاليا :

لم يكن الأعداء في يوم من الأيام يحيطون بروما أكثر مما كانوا يحيطون بها حين خرجت من عهد الملكية دولة صغيرة تشمل مدينة واحدة ضعيفة لا تزيد رقعتها على ٣٥٠ ميلاً مربعاً – أي مساحة لا تزيد على تسعة عشر ميلاً في تسعة عشر. ولما أن تقدم 'لارس بورسنا Lars Porsena' ليهاجمها استعادت كثير من العشائر التي كان ملوك روما قد أخضعوها لسلطانهم ما فقدته من حرية وكونت حلفاً لاتينياً للوقوف في وجه روما. وكانت إيطاليا في ذلك الوقت تتألف من خليط من المدن أو القبائل المستقلة لكل منها حكومتها ولهجتها الخاصة بها. فكان في

شمالها اللجوريون، والغاليون، والأمبريون، والتسكانيون، والسبنيون؛ وكان في جنوبها اللاتين، والفلشيون، والسمنيون، واللوكانيون، والبريتانيون؛ وكان على شاطئها الجنوبي والغربي مستعمرون من اليونان في كومية، ونابلي، وبومبي، وبستوم، ولكري، ورجيوم، وكروتونا، ومثابنتم، وتارنتم . وكانت روما في وسط هذه العشائر والمدن جميعها، ذات موقع حربي يمكنها من التوسع وبسطة الملك، ولكنها كانت معرضة للغزو من جميع جهاتها في آن واحد. وكان سبب نجاتها أن أعدائها لم يتحدوا عليها. وقد حدث في عام ٥٠٥ ق.م بينا كانت روما مشتبكة في حرب من السبنيين أن وفدت عليها إحدى العشائر السبنية (عشيرة الكلوريين) فمنحها روما حق مواطنيها نظير شروط مرضية. وفي عام ٤٤٩ ق.م هزمت روما السبنيين، ولم يحل عام ٢٩٠ ق.م حتى ضمت كل أراضيهم إليها، وما وافى عام ٢٥٠ ق.م حتى كان لهم كل ما لأهل روما من الحقوق. وفي عام ٤٩٦ ق.م أغرى آل تاركوين بعض لاتيوم وهي تسكولوم، وأرديا، ولنوفيوم، وأريسيا، وتيبور وغيرها بالانضمام في حرب تشنها على روما. ورأى الرومان أنفسهم أمام هذا الحلف البادي القوة فأقاموا عليهم أول دكتاتور منهم وهو 'أولس بستوميوس Aulus Postumius'، وانتصروا على هذا الحلف اللاتيني عند بحيرة رجيلس Regillus نصراً مؤزراً كان سبباً في نجاتهم. ويؤكد الرومان أنهم قد تلقوا العون في هذه الواقعة من الإلهين 'كستر Castor' و'بلكس Pollux' إذ غادرا جبال أولمبس ليحاربا في صفوفهم. وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت عقدت روما مع الحلف اللاتيني معاهدة تعهد فيها الطرفان أن: "يدوم السلم بين الرومان ومدن اللاتين ما دامت السموات والأرض... وأن يشتركا على قدم المساواة في جميع غنائم الحرب". وكانت روما في بادئ الأمر عضواً في هذا الحلف ثم أمست زعيمته ثم سيدته المسيطرة عليه. وفي عام ٤٩٣ ق.م حاربت 'الفلشيين

'Volscians'؛ وفي هذه الحرب ظفر "كيوس مارسيوس 'Caius Marcius' بلقب 'كريلانس 'Coriolanus' بعد أن استولى على 'كريلاي 'Corioli' عاصمة الفلشيين. ويضيف المؤرخون إلى هذا- ولعل للخيال والقصص شأن كبير فيما يضيفون – أن كريلانس أصبح من ذلك الوقت رجعياً شديد الرجعية، فنُفي من روما بناء على طلب العامة وإصرارهم ٤٩١ق.م، فلجأ إلى الفلشيين، وأعاد تنظيم جيوشهم، وسار على رأسهم لحصار روما. ثم تقول الرواية إن الرومان المحاصرين بعد أن عضهم الجوع بعثوا رسولاً في إثر رسول ليثنوه عن عزمه، ولكنه لم ينثن، فلما جاءته أمه وزوجته تتوسلان إليه وردهما خائبتين أنذرتاه بأنهما ستصدان الطريق أمامه بجسديهما، فلم يسعه أمام ذلك إلا أن يرتد بجيشه عن روما. وكان جزاؤه أن قتله الفلشيون، وفي رواية أخرى أنه عاش بينهم معيشةً ضنكاً، حتى بلغ من العمر أرذله. وفي عام ٤٠٥ ق.م قام النزاع على أشده بين روما وفياي Veii للسيطرة على نهر التير. وحاصرت روما مدينة فياي ودام الحصار تسع سنين، وشجع هذا مدن إتروريا فانضمت إلى فياي ضد روما، وهوجم الرومان من كل ناحية وتعرضوا لخطر الفناء، فأقاموا عليهم دكتاتوراً يدعى "كاملس 'Camillus' ، فجند جيشاً جديداً استولى به على فياي ووزع أرضها على مواطني روما. وفي عام ٣٥١ ق.م ضم جنوب إتروريا إلى روما بعد عدة حروب أخرى متفرقة وسميت من ذلك الوقت باسم 'تسكيا 'Tuscia' وهو اسم لا يكاد يفترق عن اسم المقاطعة في الوقت الحاضر. وفي هذه الأثناء واجهت روما في عام ٣٩٠ ق.م خطراً جديداً أشد من الأخطار السابقة، وقام الصراع بينها وبين بلاد الغالة، وهو الصراع الطويل الذي لم ينته إلا في عهد يوليوس قيصر. وذلك أنه بينما كانت الحروب الأربع عشرة قائمة بين روما وإتروريا تسللت قبائل كلتية من بلاد الغالة ومن ألمانيا منحدرة من جبال الألب واستقرت في إيطاليا وانتشرت جنوباً حتى نهر اليو .Po ويطلق المؤرخون

القدامى على هؤلاء الغزاة اسم (كلتاي أو سلتاي، أو جلتاي أو غالي) [illegible]
بينها. ولسنا نعرف شيئاً عن أصل هذه القبائل؛ وكل ما نستطيع أن نتنبأ به أن
ذلك الفرع من السلالة الهندوربية التي سكنت ألمانيا الغربية وغالة وإسبانيا
الوسطى، وبلجيكا، وويلز، واسكتلندا، وإيرلندا، وأدخلت فيها اللغات التي وجدها
الرومان في تلك البلاد. ويصفهم بولبيوس Polybius بأنهم: "طوال القامة،
حسنو الوجوه، يحبون القتال، ويحاربون وهم عراة الأجسام إلا من تمائم وسلاسل
ذهبية". ولما أن ذاق الكلت سكان بلاد غالة الجنوبية طعم النبيذ الإيطالي سرهم
مذاقه كل السرور فاعتزموا أن يزوروا الأرض التي تخرج تلك الفاكهة اللذيذة. ولعل
أصدق من هذا أنهم أقبلوا على تلك البلاد طلباً للمرعى وللأرض الجديدة، فلما
دخلوها أقاموا فيها وقتاً ما مسالمين على غير عادتهم المألوفة، يحرثون الأرض
ويرعون الماشية، ويتثقفون بما كان في المدن من ثقافة تسكانية. ثم غزوا إترووريا في
عام ٤٠٠ ق.م ونهبوها، وقاومهم التسكان مقاومة ضعيفة، لأنهم كانوا قد أرسلوا
جنودهم إلى فياي ليصدوا عنها الرومان. وفي عام ٣٩١ ق.م وصل ثلاثون ألفاً من
الغاليين إلى كلوزيوم Clusium ؛ وبعد عام واحد التقوا بالرومان على نهر أليا
Allia وهزموهم هزيمة منكرة بددت شملهم، ودخلوا روما فاتحين دون أن يلقوا
في ذلك مقاومة، ونهبوا المدينة وحرقوا كثيراً من أحيائها، وظلوا سبعة أشهر
يحاصرون فلول الجيش الروماني المعسكر على الكبتول Capitol وهو قلة تل
الكبتولين Capitoline حتى استسلم لهم الرومان آخر الأمر، وأدوا للغاليين
ألف رطل من الذهب نظير انسحابهم. وغادر الغاليون روما ولكنهم عادوا إليها في
أعوام (٣٦٧، ٣٥٨، ٣٥٠) ق.م. وصدهم الرومان في كل مرة فقنعوا أخيراً
بشمال إيطاليا الذي أصبح من ذلك الوقت يعرف بغالة الألبية الجنوبية. وألقى من
بقي من الرومان مدينتهم مخربة تخريباً حمل الكثيرين منهم على أن يتمنوا لو

استطاعوا أن يغادروها ويتخذوا فياي عاصمة لهم. ولكن كمليوس أثناهم عن عزمهم، وقدمت لهم الحكومة ما يحتاجونه من المعونة المالية لبناء بيوتهم من جديد. وكانت السرعة التي تم بها هذا البناء وهم يواجهون الأعداء من حولهم؛ سبباً من الأسباب التي جعلت روما مدينة قائمة على غير نظام مرسوم ذات شوارع ضيقة ملتوية. وكانت الشعوب الخاضعة لسلطانها إذا رأتها موشكة على الدمار والخراب؛ ثارت عليها ثورة في إثر ثورة واستلزم إخضاع هذه الشعوب وشفاؤها من نزعة الحرية خمسين عاماً من الحروب المتقطعة. ولقد هاجمها اللاتين، والإكوريون، والهرنيشيون، والفلشيون مجتمعين أو متفرقين. ولو انتصر الفلشيون لفصلوا عن جنوب إيطاليا وعن البحر، ولربما استطاعوا بذلك أن يقضوا على تاريخها؛ ولكن روما انتصرت عليهم وانتصرت على مدن الحلف اللاتيني في عام ٣٤٠ ق.م، وبعد عامين من انتصارها عليها حلت الحلف وضمت مدن لاتيوم جميعها إلا القليل منها إليها.

وفي هذه الأثناء كان ما نالته روما من النصر على الفلشيين سبباً في وقوفها وجهاً لوجه أمام القبائل السمينة القوية. وكانت هذه القبائل تمتلك قطاعاً مستعرضاً في إيطاليا يمتد من بابلي حتى البحر الأدرياوي، ويشمل مدناً غنية مثل: (نولا Nola، وبنفنتم Beneventum، وكومية Cumae، وكبوا Capua). وكانت قد استولت على معظم المستعمرات التسكانية واليونانية الممتدة على الساحل الغربي، وكان لها من الحضارة الهلينية ما يكفي لخلق فن كمباني Campanian، متميز عن غيره من الفنون، ولعلها كانت أكثر حضارة من الرومان أنفسهم. واشتبكت روما مع هذه القبائل في ثلاث حروب طويلة طاحنة رغبة منها في الانفراد بالسيادة على إيطاليا. ومُني الرومان في مشاغب كودين

٣٢١ ق.م Coudine Forks بهزيمة من أكبر هزائمهم، ومر جيشهم المنهزم (تحت النير)- أي تحت قوس من حراب الأعداء- رمزاً لخضوعهم. ووقع القنصلان في ميدان القتال شروطاً لصلح مذل رفض مجلس الشيوخ أن يصدق عليه، ونجح السمنيون في أن يضموا إليهم التسكانيين والغاليين، وألفت روما نفسها وقتاً ما تواجه إيطاليا كلها تقريباً شاكية السلاح. ولكن الفيالق الرومانية انتصرت انتصاراً حاسماً في سنتينوم Sentinum ٢٩٥ ق.م ضمت روما على أثره كمبانيا Campania، وأمبريا Umbria إلى أملاكها. وبعد عامين من ذلك الوقت طردت الغاليين إلى ما وراء نهر ألبو وأخضعت إتروريا مرة أخرى لسلطانها. وبذلك أصبحت روما سيدة إيطاليا الممتدة من مقاطعات الغاليين في الشمال إلى المقاطعات اليونانية في الجنوب. لكن عدم اطمئنانها إلى سلامتها من جهة ورغبتها في مواصلة الفتح من جهة أخرى؛ قد حملاها على أن تحيز مدن (اليونان الكبرى Magna Graecia) بين الحرب وبين محالفتها حلفاً تقر فيه لروما بالزعامة. وفضلت مدن ثورياي Thurii ولكري Locri وكروتونا Crotona أن تحالف روما على أن تتعرض للاندماج في القبائل "المتبربرة" (أي الإيطالية)، التي كانت تتكاثر من حولها وبين أهلها؛ ولعلها هي أيضاً كانت تمزقها كما تمزق لاتيوم حرب الطبقات، واستقبلت الحاميات الرومانية لتصد عن الملاك مطامع العامة الذين كان سلطانهم آخذاً في الازدياد. لكن تارنتم Tarentum وقفت وقفة المعاند. واستعانت بـ "بيرس Pyrrhus" ملك إبيروس Epirus . وثارت في نفس هذا المحارب الباسل ذكريات أخيل Achilles والإسكندر فعبر البحر الأدرياوي بقوة إبيروسية، وهزم الرومان في هرقيلة Heraclea ٢٨٠ ق.م ؛ ولكن ما ناله من النصر كان غالي الثمن غلواً حمل القائد المظفر على أن يرثي لحاله. وانضمت إليه وقتئذ جميع المدن اليونانية في إيطاليا، وحالفه اللوكانيون، والبوتيون، والسمنيون.

وبعث سنياس Cineas إلى روما يعرض عليها الصلح، وأطلق سراح الألفي أسير روماني الذين كانوا في قبضته بعد أن وعدوه بأن يعودوا إذا فضلت روما الحرب على السلم. وأوشك مجلس الشيوخ أن يقبل شروطه ولكن أبيوس كلوديوس Appius Cladius، الشيخ الأعمى المسن الذي كان قد اعتزل الحياة العمة من زمن طويل، طلب إلى بعض الناس أن يحملوه إلى دار المجلس، فلما دخل على الأعضاء طلب إليهم تعقد روما قط صلحاً مع جيش أجنبي في أرض إيطاليا. ورد مجلس الشيوخ إلى بيرس من أطلقهم من الأسرى وبدأت الحرب من جديد. وانتصر الملك الشاب على الرومان مرة أخرى، ثم عافت نفسه جبن أحلافه وضعفهم وترددهم، فأبحر مع من بقي معه من جيشه إلى صقلية ورفع عن سرقوسة حصار القرطاجنيين، وطردهم من أملاكهم في الجزيرة حتى لم يبق لهم فيها إلا القليل. ولكنه اغضب بحكمه القوي اليونان سكان صقلية، وكانوا يظنون أن في وسعهم أن يستمتعوا بالحرية دون أن يؤدوا لها ثمناً من النظام والشجاعة، فقبضوا عنه معونتهم، فعاد بيرس إلى إيطاليا وهو يقول عن صقلية: "ما أعظمها من غنيمة تتنازعها قرطاجنة وروما!" والتقى جيشه بالجيش الروماني في بنفنتم ومُنِيَ بالهزيمة لأول مرة ٢٧٥ق.م. واتضح في هذه الواقعة أن الأولوية الخفيفة السلاح السريعة الحركة أصلح من الصفوف المتراصة البطيئة، وبدأت بذلك صفحة جديدة في تاريخ الحروب. وأهاب بيرس بأحلافه الإيطاليين أن يمدوه بجيوش جديدة، فلم يلبوا نداءه لارتيابهم في إخلاصه ومثابرته. فعاد إلى إبيروس ومات في بلاد اليونان ميتة المغامرين. وفي السنة التي مات فيها ٢٧٢ ق.م غدرت ميلو Milo بتارنتم وانضمت إلى روما. وما لبثت المدن اليونانية كلها أن خضعت لروما واستسلم لها السمنيون وهم كارهون محزونون، وأمست إيطاليا بعد حروب دامت قرنين كاملين سيدة إيطاليا لا ينازعها فيها منازع. وسرعان ما ثبتت روما أقدامها في البلاد

المفتوحة بما كانت ترسله إليها من الجاليات، بعضها من أهلها وبعضها من بلاد الحلف اللاتيني. وقد أفادتها هذه الجاليات فوائد كثيرة: فقد خففت عنها خطر التعطل، وقللت من تزاحم الأهلين على موارد الرزق، وما ينشأ عن هذا التزاحم من نزاع بين الطبقات في روما. وكذلك كانت كل جالية فيها نواة موالية لروما بين الأهلين الغضاب، كما كانت مراكز أمامية ومصارف للتجارة الرومانية، تنتج الطعام للبطون الجياع في العاصمة، ذلك أن المحراث قد أتم ما بدأه السيف من الفتوح. وبهذه الوسائل كلها وضعت روما الأسس التي أدت إلى صبغ مئات من المدن التي لا تزال قائمة إلى اليوم بالصبغة الرومانية، فانتشرت اللغة اللاتينية والثقافة اللاتينية في جميع أنحاء شبه الجزيرة التي كان معظمها لا يزال في طور الهمجية يتكلم أهله لغات شتى. وسارت إيطاليا بخطى وئيدة في طريق الوحدة الدولية، وكانت الخطوة الأولى في سبيل الوحدة السياسية وحشية في طريقتها عظيمة في أثرها وغايتها. لكن كان في قورسقة وسردانيا وصقلية وإفريقيا قوة أشد من روما بطشاً وأقدم منها عهداً، تسد على التجارة الرومانية مسالك البحر الأبيض المتوسط الغربي، وتترك إيطاليا سجينة في بحارها. تلك هي قرطاجنة.

* الحياة الإجتماعية :

◄ الأسـرة :

كان ميلاد الأطفال نفسه مغامرة خطيرة في روما؛ فقد كانت العادات الألوفة تبيح للأب إذا ولد طفل مشوه أو كان أنثى أن يعرضه للموت. أما إذا لم يكن كذلك فقد كان يرحب بمولده؛ لأن الرومان حتى في ذلك العهد البعيد– وإن مارسوا عادة ضبط النسل إلى حد ما–كانوا شديدي الرغبة في أن يكون لهم أبناء. ذلك أن الحياة الريفية جعلت الأبناء مصدراً من مصادر الثروة، ولذلك كان الرأي

العام ينذر بالعقم، كما كان الدين يشجع على الإكثار من النسل بما يدخله في عقول الرومان من أن الواحد منهم إذا مات ولم يكن له ولد يعنى بقبره، قاست روحه ألوان الشقاء والعذاب إلى أبد الدهر. وكانوا إذا مضى على مولد الطفل ثمانية أيام احتفلوا حول موقد الدار احتفالاً رسمياً مهيباً بضمه إلى الأسرة والعشيرة. وكانت العشيرة (gens) تتألف من طائفة من الأسر الحرة تنتمي إلى أصل واحد، وتسمى باسمه، وتشترك بعضها مع بعض في العبادة، وتتبادل العون في السلم والحرب. وكان الولد الماكر يعرف باسمه الخاص الأول (praenomen) مثل بيليوس Publius ، أو ماركس Marcus ، أو كيوس Caius ؛ وباسم عشيرته (nomen)مثل كرنليوس Cornelius أو تليوس Tullius ، أو يوليوس Julius؛ وباسم أسرته مثل سبيو Scipio ، وشيشرون Cicero ، وقيصر Caesar، أما النساء فكن في أغلب الأحيان يتميزن بأسماء عشائرهن وحدهن مثل كرنليا Cornelia ، وتليا Tullia ، وكلوديا Claudia ، ويوليا Julia . وإذ لم يكن للذكور في الأيام القديمة الأولى من الأسماء الأول ما يزيد على خمسة عشر اسماً، وكانت هذه الأسماء تتكرر في الأسرة الواحدة جيلاً بعد جيل تكراراً يجعل التمييز بين مسمياتها من أصعب الأمور. فقد اعتاد الرومان أن يختصروا هذه الأسماء الأولى فيستعيضوا عنها بالحروف الأولى منها ويضيفوا إلى أصحابها اسماً رابعاً – وخامساً في بعض الأحيان– ليسهل تمييزهم بعضهم من بعض. ومن أمثلة ذلك أنهم كانوا يميزون سبيو قاهر هنيبال من سميه الذي دمر قرطاجنة بتسمية الأول ب. كر نليوس سبيو الإفريقي الأكبر P. Cornelius Scipio Africanus Major.، والثاني ب. كرنليوس سبيو إيمليانس الإفريقي الأصغر P. Cornelius Scipio Aemilianus Aficanus Minor .

وكان الطفل يجد نفسه وقد اندمج كل الاندماج في أخص النظم الرومانية الأساسية وأقواها أثراً وهو نظام الأسرة الأبوية. وتكاد سلطة الأب في هذه الأسرة أن تكون سلطة مطلقة من كل القيود، كأنما الأسرة قد نظمت لتكون وحدة عسكرية من جيش في حرب دائمة. وكان الأب وحده دون سائر أفراد الأسرة هو الذي له حقوق قانونية في عهد الجمهورية الأول. فهو وحده الذي كان من حقه أن يشتري الملك ويحتفظ به أو يبيعه، وأن يتعاقد باسمه؛ وحتى بائنة زوجته كانت في ذلك العهد ملكاً له. وإذا ما اتهمت زوجته بجريمة أحيلت إليه ليحاكمها ويعاقبها بنفسه؛ وكان في مقدوره أن يحكم عليها بالإعدام إذا خانته أو سرقت مفاتيح خزائن خمره. وكان له على أبنائه حق الحياة والموت أو بيعهم في الأسواق بيع الرقيق. وكان كل ما يكسبه الابن يصبح في نظر القانون ملكاً خالصاً لأبيه، ولم يكن من حقه أن يتزوج من غير موافقة والده. وكانت البنت إذا تزوجت بقيت تحت سلطان أبيها، إلا إذا سمح لها أن تتزوج زواجاً (Cum manu) أي أسلمها بنفسه إلى يد زوجها أو وضعها تحت سلطانه. وكان له على عبيده سلطة لا حد لها؛ فكان هو وزوجته وأبناؤه ملك يده (mancipia)؛ ومهما يبلغ هؤلاء العبيد من السن أو المنزلة فإنهم يبقون تحت سلطانه حتى يحررهم هو أو يطلقهم من يده (emancipate them). على أن العادات والرأي العام ومجلس الشيوخ وقانون البريتورين (المقدمين) كانت تقيد حقوق رب الأسرة إلى حد ما. أما فيما عدا هذه القيود فقد كان يحتفظ بهذه الحقوق إلى أن يموت، وكانت له ولو ذهب عقله أو أراد هو أن يتخلى عنها. وكان من آثارها أن قويت وحدة الأسرة فكانت هي الأساس الذي قامت عليه أخلاق الرومان وحكومتهم، وأن أدّب الرومان تأديباً بعث في أخلاقهم صلابة وقوة خير ما توصف به أنها قوة رواقية.

وكانت قوانينهم في حرفيتها أشد منها صرامة في تطبيقها، وقلما كانوا يطبقون أقسى هذه القوانين؛ وقلما أساءوا استخدام ما كان منها أقل قسوة؛ فلم يكونوا يقفون في سبيل حنان الآباء القوي الطبيعي على أبنائهم أو تعظيم الأبناء لآبائهم، حتى لقد كانت شواهد القبور في روما تبلغ من الرقة ما بلغته في بلاد اليونان وما بلغته عندنا نحن في هذه الأيام. وإذ كانت حاجة الرجل إلى المرأة – وهي أشد من حاجتها إليه– تكسبها من الحقوق ما لا تستطيع القوانين أن تقف في وجهه، فليس لنا أن نحكم على مكانة المرأة في روما من القيود التي يفرضها عليها القانون. فقد كان يحرم عليها أن تظهر في دار المحكمة ولو كانت شاهدة. وإذا مات زوجها لم يكن لها أن تطالب بأي حق لها في ماله؛ وكان له إذا شاء أن يحرمها من أن ترث شيئاً من هذا المال. وكانت في كل أدوار حياتها تحت رقابة رجل– أبيها أو أخيها، أو زوجها، أو ابنها أو وصي عليها– لا تستطيع أن تتزوج أو تتصرف في مالها بغير رضاه. لكنها كان من حقها أن ترث وإن حدد هذا الميراث بما لا يزيد على مائة ألف سسترس (Sesterce).

أما التملك فلم يكن مقيداً بحد أقصى. وكثيراً ما أصبحت النساء في تاريخ الجمهورية المتأخر من ذوات الثروات الطائلة، لأن أزواجهن كانوا يهربون لهن أملاكهم ليتخلصوا بذلك مما عليهم من التزامات إذا أفلسوا في تجارة أو حكم عليهم بتعويض أو ليتملصوا من ضرائب الشركات، وفي ذلك من الأخطار التي لا نهاية لها. وكان لها في شئون الدين شأن غير قليل؛ فكان لها أن تكون كاهنة؛ وكان من الواجبات المفروضة على كل كاهن تقريباً أن تكون له زوجة، فإذا ماتت حرم من منصبه. أما في المنزل فكانت هي "سيدته المعظمة mea domina" ؛ ولم تكن كالزوجة في الحياة اليونانية تحجز في جناح الحريم بل كانت تتناول الطعام مع

زوجها وإن كانت تجلس منتصبة ويجلس هو متكئاً. وكانت لا تقوم إلا بأقل قدر من الخدمة المنزلية، ذلك بأنه كان لكل مواطن تقريباً عبد يقوم على خدمته. وكان لها أن تغزل لتدل بذلك على دماثة أخلاقها، ولكن أهم واجباتها المنزلية هو مراقبة خدمها. على أنها مع ذلك كانت تحرص على أن تربي بنفسها أطفالها. وكان هؤلاء الأبناء يجزونها على صبرها وقيامها بواجبات الأمومة بما يقدمونه لها من دلائل الحب العميق والإجلال العظيم، وقلما كان زوجها يجعل سيادته الشرعية عليها تطغي على حبه لها.

وكان الأب والأم، ودارهما وأرضهما وأملاكهما، وأطفالهما الصغار، وأبناؤهما المتزوجون، وأحفادهما أبناء هؤلاء الأبناء، وزوجاتهم وعبيدهم ومواليهم– كان هؤلاء كلهم يؤلفون "الأسرة الرومانية Familia" ؛ ولم تكن هذه الكلمة عندهم تعني أسرة بقدر ما تعني بيتاً من فيه وما فيه. فلم يكن هذا المعنى مقصوراً على جماعة من ذوي القربى، بل كان يعني مجموعة من الأشخاص المملوكين والأشياء المملوكة يخضعون كلهم وتخضع كلها لأكبر الذكور سناً. وفي نطاق هذا المجتمع الصغير الذي يضم في داخله وظائف الأسرة، والكنيسة، والمدرسة، والنظم الصناعية والحكومية، شبّ الطفل الروماني وترعرع على حب الطاعة والتقوى، فكان منه مواطن قوي صلب العود في دولة لا تغلب.

الأخلاق :

ترى أي مبادئ خلقية نشأت من هذه الحياة التي كانت تحياها الأسرة الرومانية بين هذه الأرباب المختلفة؟ لقد كانت الآداب الرومانية من أيام عهد 'إنيوس Ennius' إلى عهد 'جوفنال Juvenal' تجعل تلك الأجيال القديمة مثلاً أعلى وتندم على الأيام الخالية أيام البساطة والفضيلة القديمتين. وستوحي إلينا

صفحات هذا الكتاب أيضاً بما كان هناك من فوارق بين روما فيوس الرواقية وروما نيرون الأبيقورية. ولكن علينا ألا نغالي في هذه الفوارق بتحيزنا في اختيار الشواهد التي ندلل بها على وجودها؛ ذلك بأنه كان في عهد فيوس أبيقوريون كما كان في عهد نيرون رواقيون. ولقد ظلت الأخلاق الجنسية عند الرجل العادي واحدة لم يطرأ عليها تغيير من بداية التاريخ الروماني إلى نهايته: ظلت خشنة طليقة ولكنها لا تتعارض مع الحياة الناجحة في ظل الأسرة.

وكان يطلب إلى الفتيات في جميع الطبقات الحرة أن يحافظن على بكارتهن، وما أكثر القصص القوية التي كانت تروى لرفع شأنها؛ ذلك أن الروماني كان قوي الإحساس بحق الملكية، شديد التمسك به؛ ولهذا كان يتطلب زوجة قوية الأخلاق غير متقلبة الأهواء تضمن له أنه لن يرث متاعه بعد موته أبناء من غير صلبه. ولكن الرجال في روما لم يكونوا يلامون كثيراً على عدم العفة قبل الزواج إذا اظهروا الاحترام الواجب لرياء بني الإنسان ونفاقهم، شأنهم في هذا شأن الرجال في بلاد اليونان. وإنَّا لنجد في أقوال كتابهم وخطبائهم من عهد "كاتو الأكبر" إلى "شيشرون" عبارات صريحة يبررونها هذا النوع من الدنس؛ وليس الذي يزيد بتقدم المدنية هو فساد الطبع وإنما الذي يزيد هو الفرص التي تتاح لإظهار هذا الفساد والتعبير عنه. ولم تكن العاهرات كثيرات في روما في أيامها الأولى، وكان يحرم عليهن لبس منزر الأمهات وهو شعار الزوجة المحترمة. وكن محصورات في الأركان المظلمة من روما ومن المجتمع الروماني. ولم تكن قد نشأت فيها وقتئذ طائفة المحظيات المتعلمات الشبيهات بطائفة المطربات في أثينا، كما لم يكن قد نشأ فيها بعد أولئك المومسات الرقيقات اللاتي تغنى بهن "أوفد Ovid" في شعره. وكان الرجال يتزوجون في سن مبكرة قبل السنة العشرين من عمرهم في العادة، ولم

يكن الباعث على الزواج هو الحب الروائي، بل كان هو الرغبة الصادقة السليمة في أزواج يعاونهم في عملهم، وأبناء ذوي فائدة لهم، وأن يستمتعوا بحياة جنسية سليمة. وكان يقال في حفلة الزفاف إن الغرض من الزواج هو إنجاب الأطفال.

وكان للأطفال في المزرعة كما كان للنساء فائدة اقتصادية كبرى ولم يكونوا كما هم اليوم لعباً حية. وكان الأباء هم الذين يزوجون أبناءهم وبناتهم، وكانت عقود الزواج تعقد أحياناً على الأبناء في طفولتهن، وكان رضا أبوي الزوج والزوجة ضرورياً لإتمام عقد الزواج. وكانت تصحب الخطبة مراسم وتقاليد معينة، تعد رابطة قانونية بين الزوجين. وكان أقرباء الزوجين يجتمعون في وليمة ليشهدوا عقد الزواج، وكانت قشه stipula تكسر بين أهل العروسين علاوة على اتفاقهما. وكانت شروط الزواج وبخاصة ما يتصل منها بالمهر تسجل كتابة، وكان الزوج يضع خاتماً من الحديد في الإصبع الرابعة من أصابع اليد اليسرى للزوجة لاعتقادهم أن عصباً يسير من تلك الإصبع إلى القلب. وكانت أصغر سن يباح فيها الزواج هي الثانية عشرة للفتاة والرابعة عشرة للفتى، وكان القانون الروماني القديم يجعل الزواج إجبارياً، ولكن اعتقادنا أن هذا القانون قد أغفل ولم يكن يطبق قبل عام ٤١٣ ق.م حين فرض الرقيب "كملس Camillus" ضريبة على العزاب. وكان الزواج نوعين زواجاً (كم مانو Cum Manu) وزواجاً (سن مانو Sin manu) أي زواجاً يتبعه وضع العروس وما تملك تحت سلطان زوجها أو والده وزواجاً لا يتبعه هذا الوضع. وكان زواج سن مانو (من غير تسليم) في غير حاجة إلى حفلة دينية، ولا يتطلب أكثر من رضاء العروس والعريس. أما زواج وضع اليد فكان يتم أما بالمعاشرة مدة عام (usus) أو بالشراء (Coemptio) . وكان هناك نوع ثالث يعرف بالزواج بطريق الكنفرياشيو (Confarreatio) والمعنى الحرفي لهذا اللفظ

هو (أكل كعكة معاً). وكان هذا النوع الأخير يتطلب حفلاً دينياً، ولا يتم إلا بين الأشراف. وقد اختفى الزواج بالشراء الفعلي في عهد مبكر [illegible]
الزوجة في واقع الأمر كثيراً ما تشتري الزوج ببائنتها وكانت [illegible]
تحت تصرف الزوج. ولكن قيمتها ترد إلى الزوجة إذا طلقت أو مات زوجها. [illegible]
يصحب العرس كثير من الحفلات والأغاني الشعبية؛ وكانت أسرتا العروسين تطعمان في بيت العروس، ثم يسير أفرادهما في موكب مرح بهيج إلى بيت والد العريس على أنغام المزامير والأناشيد والمزاح الماجن. فإذا وصلوا إلى بابه المتوج بالأزهار تقدم العريس إلى العروس وسألها: "من أنت؟" فأجابته بعبارة بسيطة تشعر بوفائها ومساواتها وانضمامها له وهي قولها "حيث تكون أنت كيوس Caius أكون أنا كايا Caia" ، ثم يرفعها فوق عتبة بيته، ويقدم لها مفاتيحه، ويضع عنقها وعنقه تحت نير إشارة إلى الرابطة المشتركة بينه وبينها؛ ومن ثم سمي الزواج (كنيوجيوم Coniugium) أي الاشتراك في النير. ثم تشترك العروس في الصلاة لآلهة البيت دلالة على أنها قد انضمت إلى الأسرة الجديدة. وكان الطلاق عسيراً ونادراً في الزيجات التي تعقد بالكنفرياشيو؛ وفي زواج الكم مانو كان الزوج وحده هو الذي يستطيع فصم عرى الزوجية. أما في زواج السن مانو فكان لكل من الزوجين حق الطلاق إذا أراد دون أن يتطلب هذا موافقة الدولة.

وقد سجل أول طلاق في تاريخ الرومان في عام ٢٦٨ ق.م؛ وتقول إحدى الروايات المشكوك في صحتها إنه لم يحدث قبل هذا طلاق قط مذ أسست مدينة روما. وكانت عادات العشائر الرومانية تتطلب من الزوج أن يطلق الزوجة الخائنة أو العقيم. وفي هذا يقول كاتو الكبير: "إذا وجدت زوجتك تزني، فإن القانون يبيح لك أن تقتلها من غير محاكمة؛ وإذا ما فاجأتك مصادفة وأنت ترتكب هذه

الجريمة نفسها فليس لها أن تمسك حتى بأطراف أصابعها، لأن القانون يحرم عليها هذا". ويلوح أنه كانت هناك زيجات سعيدة كثيرة على الرغم من هذا التفريق. فشواهد القبور تنطق بالكثير من عبارات الحب والإخلاص التي كتبت عليها بعد وفاة الأزواج. وهاهي ذي عبارة مؤثرة تعظم إحدى السيدات التي أخلصت في خدمة زوجها: "لقد كنت يا ستاتليا Statilia بارعة الجمال إلى أبعد حد وفية لأزواجك!. ولو أن أول من جاء إليك قد استطاع أن يقاوم الأقدار لأقام إليك هذا الحجر؛ أما أنا الذي نعمت بقلبك الطاهر هذه السنين الست عشرة فقد فقدتك، ألا ما أشد أسفي عليك".

والراجح أن فتيات روما في عهدها الأول لم يبلغن من الجمال ما بلغته أخواتهن في عهودها المتأخرة واللاتي يصفهن (كاتلس Catullus) وصف الرجل الخبير بأنهن: "Ianeum Iatusculum Manusque molicellas" أي أن (لهن جانبين نحيلين أملسين كالصوف، ويدين صغيرتين ناعمتين). أو لعل الفتيات في العهدين لم يكن بينهن هذا الفرق ولكن الكدح والهم في الأيام الأولى أيام العمل في الحقول كانا يطغيان بعد زمن يسير على جمال المراهقة. وقد اشتهرت نساء الرومان بتناسب معارفهن، فكانت لهن أنوف صغيرة رفيعة، وكن في العادة ذوات شعر أسود وعيون داكنة. وكان للشقراوات عندهن منزلة رفيعة، وكذلك كان للصبغات الألمانية التي تكسب الفتيات هذا اللون قيمة كبيرة عند الرومانيات. أما الرجل الروماني فكان يتصف بالقوة والمهابة أكثر مما يتصف بالوسامة، فقد قسا وجهه من أثر تربيته الصارمة والحياة العسكرية الطويلة، ثم نعم واسترخى بعد انهماكه في الملاذ في الأيام الأخيرة. وما من شك في أن كليوباترا قد أحبت أنطونيوس لسبب آخر غير خديه المنتفختين من احتساء الخمر، وأحبت

قيصر بسحر آخر غير سحر أنفه ورأسه الشبيهين برأس النسر وأنفه لقد كان الأنف الروماني كالخلق الروماني حاداً منحرفاً. وظل الرومان يلتحون ويطيلون شعر رؤوسهم حتى عام ٣٠٠ ق.م حين بدأ الحلاقون يمارسون مهنتهم في روما.

أما ملابسهم فكانت في جوهرها كملابس اليونان، فكان الأولاد والبنات والحكام وكبار الكهنة يلبسون (التوجا براتكستا Toga Praetexta) أي الجبة ذات الأهداب الأرجوانية. فإذا أتم الشاب السادسة عشرة من عمره استبدل بها (التوجا فريلس toga virilis) – جبة الرجولة البيضاء – دلالة على أنه قد أصبح من حقه أن يقترع في الجمعيات الوطنية ومن واجبه أن يخدم في الجيش. وكانت النساء في داخل البيوت يلبسن ثوباً (استولا stola) يربطونه بمنطقة تحت الثديين، ويصل إلى القدمين؛ فإذا خرجن من البيوت لبسن فوقه (Palla أو عباءة). وكان الرجال وهم في البيوت يلبسون قميصاً بسيطاً (tunica) ، فإذا خرجوا منها أضافوا إليه جبة على الدوام وعباءة في بعض الأحيان. وكانت (الجبة tegere) أي: يغطي رداء من الصوف تتكون من قطعة واحدة يبلغ عرضها ضعفي عرض لابسها، وطولها ثلاثة أضعاف طوله. وكانت تلف حول الجسم ويلقى ما زاد منها على الكتف اليسرى، ثم تلف من تحت إبط اليد اليمنى، وتعود مرة أخرى فتلقى فوق الكتف اليسرى. وتستخدم ثناياها التي فوق الصدر كما تستخدم تحت الجيوب، وكانت تترك ذراع لابسها اليسرى حرة في حركتها.

وكان الرجل الروماني يصطنع المهابة الصارمة (gravitas) ويراها خلة ثقيلة لا يستغني عنها الأشراف الذين يحكمون شعباً، ثم شبه جزيرة، ثم إمبراطورية. وكان ما يتصف به من رحمة وعاطفة رقيقة مقصوراً على الحياة المنزلية؛ أما في الحياة العامة فقد كان على رجل الطبقة العليا أن يكون راسخاً جافاً كتمثاله، وأن

يخفي وراء قناع من الهدوء الصارم ما في طبعه من تهيج وفكاهة لا نراهما واضحين ساخرين في مسرحيات بلوتوس الفكهة فحسب بل نراهما كذلك في خطب شيشرون. لقد كان يطلب إلى الرومان حتى في الوقت الذي نتحدث عنه أن يعيش عيشة إسبارطية؛ فكان الرقيب يستهجن الترف في الملبس والمأكل؛ بل أن الزارع إذا أهمل زرعه كان معرضاً لأن يفاجئه الرقيب ليحاسبه على هذا الإهمال. وليس أدل على تقشف الرومان من أن السفراء القرطاجنيين حين عادوا من روما بعد الحرب البونية الأولى أخذوا يسلون أثرياء التجار في بلدهم بقولهم إنهم شاهدوا مجموعة بعينها من الصحاف الفضية في كل بيت دعوا إليه، أي أن مجموعة واحدة تنقل سراً من بيت إلى بيت كانت تكفي طبقة الأشراف جميعها. وكان أعضاء مجلس الشيوخ في ذلك الوقت يجلسون على مقاعد خشبية صلبة في (بهو Curia) لا يدفأ قط في فصل الشتاء. بيد أن الثروة والترف قد بدءا وسارا سيراً حثيثاً بين الحربين البونيتين الأولى والثانية؛ وشاهد ذلك أن هنيبال جمع من أصابع الرومان الذين قتلوا في معركة كاني عدداً كبيراً من الخواتم الذهبية ، وأن قوانين عدة قد وضعت لتحرم الجواهر المنقوشة، والملابس المبهرجة، والوجبات الغالية الثمن، ولكن هذه القوانين رغم تكررها ظلت عديمة الجدوى.

لقد ظلت وجبات الروماني العادي حتى القرن الثالث قبل الميلاد وجبات بسيطة، فكان فطوره (ientaculum) يتكون من الخبز وعسل النحل أو الزيتون أو الجبن؛ وكان غذاؤه (prandium) وعشاؤه (Cena) يتكونان من البقول والخضر والفاكهة. أما السمك واللحم فكان يختص بهما الأغنياء. وقلما كانت مائدة ما تخلو من النبيذ المخفف، أما شرب النبيذ المركز فكان يعد إفراطاً. وكانت الأعياد والولائم من المتع الضرورية في هذا العهد الرواقي، وكان العاجزون عن

التمتع بها يضايقهم هذا العجز ويظهرون ما يحل بهم بسببه من إجهاد عصبي في تماثيلهم التي خلفوها لمن جاءوا بعدهم. ولم يكن للصدقات مجال في هذه الحياة المقتصدة المتقشفة. وقد بقيت الضيافة من العادات التي يتبادلها الرومان لتيسر عليهم أسفارهم طالما كانت النزل فقيرة ومتباعدة، ولكن بوليبوس يقول: "إن أحداً في روما لا يقدم شيئاً ما لأي إنسان إذا كان ذلك الامتناع في مقدوره"- وما من شك أن في هذا كثيراً من المغالاة.

وكان الصغار يشفقون على الكبار، ولكن الظرف والكياسة لم يصلا إلى روما إلا في آخر أيام الجمهورية. وقد غيرت الحروب والفتوح أخلاق الرومان فجعلتهم في الغالب غلاظاً قساة إلى حد بعيد، لا يأنفون من أن يقتلوا دون أن يؤنبهم ضميرهم على القتل، وأن يقتلوا دون أن يشكوا منه. وكان أسرى الحرب يباعون في الأسواق آلافاً مؤلفة، عدا الملوك وقواد الجند فكانوا يقتلون عقب النصر أو يتركون ليموتوا موتاً بطيئاً من أثر الجوع. أما في دوائر الأعمال فكانت أخلاق الرومان خيراً من هذه الأخلاق. نعم إن الرومان كانوا يحبون المال، ولكن بوليبوس حوالي ١٦٧ ق.م يصفهم بأنهم رجال مجدون شرفاء؛ ويقول المؤرخ اليوناني أن أحداً لا يستطيع أن يمنع اليوناني من الاختلاس مهما كان عدد الكتبة الذين يعيشون لمراقبته، أما الرومان فكانوا يتصرفون في مبالغ طائلة من الأموال العامة ولم يثبت عليهم الاختلاس إلا في حالات جد نادرة. على أننا رغم هذا القول نجد أن قانوناً قد صدر في عام ٤٣٢ ق.م لمنع الغش في الانتخابات. ويقول المؤرخون الرومان إن النزاهة السياسية قد بلغت أوجها في الثلاثة قرون الأولى من عهد الجمهورية، ولكنهم يثيرون الريبة بما يكيلونه من المدح لـ (فاليريوس كورفوس Valerius Corvus) بقولهم إنه شغل واحداً وعشرين منصباً من

مناصب الحكام، ثم عاد إلي حقوله فقيراً كما كان حين خرج منها؛ ول (كيوريوس دنتاتوس Curius Dentatus) الذي لم يحتفظ لنفسه بشيء من الغنائم التي استولى عليها من الأعداء؛ ول (فابيوس بكتور Fabius Pictor) ورفاقه الذين قدموا للدولة ما أعطى لهم في مصر من الهدايا الثمينة حين ذهبوا إليها في بعثة رسمية. وكان الأصدقاء يقرضون بعضهم بعضاً من غير فائدة. وكثيراً ما كانت الحكومة الرومانية تلجأ إلى الغدر في معاملتها للدول الأجنبية، ولعل الإمبراطورية كانت أشرف من الجمهورية في علاقاتها الخارجية. ولكن مجلس الشيوخ أبى أن يتغاضى عن تسميم بيرس Pyrrhus ، وحذره من المؤامرة التي كانت تدبر له. ولما أن أرسل هنيبال بعد معركة كاني عشرة أسرى إلي روما ليفاوضوها في افتداء ثمانية آلاف أسير آخرين ووعده هؤلاء العشرة بالعودة إليه، وفوا كلهم عدا واحداً منهم بما وعدوه به. فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن ألقى القبض على هذا العاشر وصفده بالأغلال وأعاده إلى هنيبال. ويقول بوليبوس: "إن سرور هنيبال لنصره لم يبلغ من الشدة ما بلغه حزنه حين رأى ما يتصف به الرومان من ثبات وشهامة". وقصارى القول أن الروماني العادي في ذلك العهد كان محباً للنظام، محافظاً، وفياً، لا يفرط في الشراب، وقوراً، بخيلاً، قاسياً، عملياً. وكان يعجب بالنظام ويسر منه ولا يستمع إلى ما يقال من الهراء عن الحرية؛ وكان مطيعاً يرى أن الطاعة خير سبيل إلى اعتياد الأمر والنهي. وكان يسلم بلا جدال بأن من حق الحكومة أن تتثبت من أخلاقه كما تتثبت من إيراده، وأن قدره عندها لا يوازن إلا بما يقدمه للدولة من خدمات. وكان لا يؤمن بالفردية ولا يثق بالعبقرية. ولم يكن يتحلى بشيء من الجاذبية، وخفة الروح وطلاقة اللسان التي يتصف بها يونانيو (أتيكا Attica). وكان إعجابه بالأخلاق الفاضلة والإرادة القوية يماثل إعجاب اليونان بالحرية والذكاء. وكان النظام مصدر تفوقه على غيره. وكان يعوزه الخيال

إلى حد عجز معه عن أن ينشئ له أساطير خاصة به. وكان يحمل بعض الجهد على أن يحب الجمال، ولكنه قلما استطاع أن يخلق هذا الجمال خلقاً. وقلما كان يجد لديه فائدة للعلوم البحتة، وكان يرتاب في الفلسفة، ويرى أنها وسيلة شيطانية للقضاء على الأخلاق والأساليب القديمة. ولم يكن في مقدوره بأية وسيلة كانت أن يفهم أفلاطون أو أركميدس أو المسيح، وكل ما كان يستطيعه أن يحكم العالم.

* الحياة الدينية :

◄ الآلهة :

لقد كانت الأسرة الرومانية رابطة بين الأشخاص والأشياء ، كما كانت رابطة بين الأشخاص والأشياء من جهة والآلهة من جهة أخرى. وكانت هي المركز الذي يلتف حوله الدين، والخلق، والنظام الاقتصادي، وكيان الدولة بأجمعها، كما كانت هي المنبع الذي تُستمد منه هذه المقومات كلها. وكان كل جزء من أملاكها مهما صغر وكل مظهر من مظاهر وجودها يرتبط ارتباطاً وثيقاً جدّياً بالعالم الروحي؛ فكان الطفل يعلم بالقدوة الصامتة الفصيحة أن نار الموقد التي لا تخمد ليست إلا رمز الإلهة 'فستا Vesta' ومادتها، وأنها هي الشعلة المقدسة التي ترمز إلى حياة الأسرة والى دوامها؛ ومن أجل هذا كان من أوجب الواجبات ألا تنطفئ هذه النار، وأن يُعنى بها العناية المقدسة، وأن تُغذى بنصيب من كل وجبة. وكان الطفل يرى فوق الموقد الصمات تتوجها الأزهار وتمثل آلهة الأسرة أو أرواحها المقدسة: 'الإله لارا Lra' الذي يحرس حقولها ومبانيها وسعادتها ومصيرها؛ و'البينات Penates' أو الآلهة الداخلية التي تحمي ما تجمع للأسرة في مخازنها وأصونتها وبيادرها؛ وكان 'الإله يانوس Janus' يحوم حول عتبة الدار وإن كانت الأعين لا

تراه، وكان ذا وجهين، وليس معنى هذا أنه كان مخادعاً بل معناه أنه كان يرقب الداخلين والخارجين من كل باب.

وكان الطفل يعلم أن أباه هو الحافظ للأسرة وأنه رمز القوة الخلاقة الداخلية (genius) التي لا تفنى بفناء الجسم بل يجب أن تغذى على الدوام عند قبر الأب. وكانت الأم هي الأخرى تحمل رباً من الأرباب، وكان عليه أن يعاملها أيضاً معاملة الآلهة. وكان فيها 'يونو Juno' وهو روح قدرتها على الحمل يقابل قدرة الأب على الخلق. وكان للطفل أيضاً 'يونوه Juno' وهو ملاكه الحافظ وروحه أو النواة الإلهية في غلافه الفاني. وكان يقال له قولاً يبعث في قلبه الرهبة، إنه يحيط به من كل مكان (أطياف رحيمة Di Manes) هي أطياف الذكور من أسلافه التي كانت أقنعة وجوههم الرهيبة معلقة على جدران المنزل تحذره من أن يتنكب طريق هؤلاء الأسلاف، وتذكره بأن الأسرة لا تتألف فقط من أولئك الذين كانوا في الأيام الخالية أو سيكونون في الأيام المقبلة أعضاء فيها بأجسامهم، والذين يكونون لهذا السبب جزءاً من مجموعها الروحي ووحدتها الأبدية.

وكانت أرواح أخرى تأتي لمعونته كلما كبر : 'فكوبا Cuba' تحرسه وهو نائم، و'أبيونا Abeona' تهدي خطاه، و'فبيولينا Fabulina' تعلمه الكلام. وإذا ما غادر المنزل وجد نفسه مرة أخرى في حضرة الآلهة أينما حل.

وكانت الأرض نفسها آلهة فهي تارة 'تلس Tellus' وتارة 'ترا ماتر Terra Mater' أي الأرض الأم، وكانت أحياناً هي 'مارس Mars' أي الأرض التي يطؤها بقدميه وخصبها المقدس، وأحياناً تكون هي (الإلهة الصالحة Bona Dea) التي تمد النساء والحقول بالأرحام الخصبة. وكان في المزرعة إله معين لكل عمل وكل بقعة فيها: 'بومونا Pomona' للبساتين، و'فونس Faunus '

للماشية، و'بالس Pales' للمراعي ، و'استركيولس Sterculus' لأكوام السماد، و'ساترن Saturn' للزرع ، و'سيريز Ceres' للحاصلات، و'فرناكس Fornax' لتحميص الذرة في التنور، و'فلكان Vulcan' لإيقاد النار.

الكهنة :

إستخدمت إيطاليا نظاماً من الكهنوت محكم الوضع لتضمن به معونة هؤلاء الأرباب. وكان الأب في منزله كاهناً. ولكن الصلوات العامة كان يرأسها جماعات (Collegia) من الكهنة، تملأ كل منها ما يخلو في صفوفها من الأماكن ويرأسها كلها حبر أعظم (Pontifex Maximus) تختاره الجمعية المئوية. ولم تكن عضوية هذه الكليات المقدسة تحتاج إلى تدريب خاص؛ بل كان في وسع كل مواطن أن ينضم إليها أو يخرج منها؛ ولم تكن تؤلف مرتبة أو طبقة منفصلة عن سائر المراتب أو الطبقات، ولم يكن لها أي سلطان سياسي عدا أن الدولة كانت تستخدمها أداة من أدواتها. وكانت تستولي على إيراد بعض أراضي الدولة لتستعين به على العيش، وكان لها عبيد يقومون على خدمتها؛ وقد أصبحت بتوالي الأجيال عظيمة الثراء بما كان يحسبها عليها أتقياء الناس من الأموال. وكانت الكلية الدينية الكبرى في القرن الثالث قبل المسيح تضم تسعة من الأعضاء، يحتفظون بالحوليات التاريخية، ويسجلون القوانين، ويقرأون الغيب، ويقربون القرابين، ويطهرون روما مرة في كل خمس سنوات. وكان يساعد هؤلاء الأحباء في القيام بالمراسم الرسمية خمسة عشر كاهناً آخر يسمون 'فلميني flamine' أي موقدي نيران الأضاحي.

وكان ثمة طوائف من الأحباء أقل من هؤلاء شأناً يؤدون واجبات خاصة: فـ'الساليون Salii' أو القافزون كانوا يستقبلون العام الجديد بنوع من الرقص

المقدس للمريخ، و"الفتيالي fetiales" يصدقون على عقد الصلح، وإعلان الحرب، و"اللوبرسي Luperci" أو إخوان الذئاب يقومون بطقوس "لوبركاليا Lupercalia" العجيبة. وكانت طائفة (العذارى الفستية Vestal Virgins) تعني بموقد الدولة وترشه في كل يوم بالماء المقدس تأخذه من عين الحورية المقدسة "إجيريا Egeria"؛ وكان هؤلاء الراهبات ذوات الثياب البيض والخُمُر البيض يُخترن من بين الفتيات اللاتي تتراوح سنهن بين السادسة والعاشرة. وكن يقسمن بأن يظللن عذارى في خدمة الإلهة فستا ثلاثين سنة؛ وينلن في نظير هذا ضروباً من الامتيازات والتكريم وإذا اقترفت إحداهن جريمة العلاقات الجنسية ضربت بالعصى ودفنت وهي على قيد الحياة. وقد سجل المؤرخون الرومان اثنتي عشرة جريمة من هذا النوع، فإذا قضين الثلاثين عاماً كان لهن أن يتركن خدمة الإلهة ويتزوجن، ولكن قل منهن من كانت تتاح لها هذه الفرصة أو تغتنمها إذا أتيحت لها.

◄ الأعياد :

إذا كانت العبادات الرسمية مكتئبة صارمة فإن ما كان فيها من أعياد قد عوضها عن هذه الصرامة وصَوَّر الناس والآلهة في صورة أبهى وأجمل منظراً. فقد كانت السنة تزدان بأكثر من مائة يوم مقدس (feriae) من بينها اليوم الأول من كل شهر، وقد شمل أحياناً اليومين التاسع والخامس عشر. وخصصت بعض هذه الأعياد لتقديس الموتى وأرواح العالم السفلي؛ وكان يقصد بالأعياد وما يقام فيها من احتفالات استرضاء الموتى وإقصاء غضبهم؛ فكانت الأسر الرومانية تحتفل في الأيام ما بين ١١، ١٣ من شهر مايو احتفالاً رهيباً بعيد (الأرواح الميتة Lemures)؛ فكان الأب في هذا العيد يبصق من فمه فولاً أسود وهو ينادي:

"بهذا الفول أنجي نفسي وأبنائي.. أذهبي يا أطياف أسلافي!" ولم تكن أعياد (البارنتاليا Parentalia) و(الفراليا Feralia) التي تقام في شهر فبراير إلا محاولات أخرى من هذا النوع لاسترضاء الأموات المخيفين؛ لكن معظم الأعياد كانت مناسبات للمرح وملء البطون؛ وكثيراً ما كان العامة يتخذونها فرصاً لإباحة الجنسية؛ وشاهد ذلك ما يقوله أحد الأشخاص في مسرحية هزلية لبلوبس: "في وسعك أن تأكل ما تشاء، وتذهب حيث تشاء، وتحب من تشاء، على شريطة أن تمتنع عن الاتصال بالأزواج والأرامل والعذارى، والغلمان الأحرار" ويلوح أنه كان يحس بأن ثمة بعد هذا مجالاً واسعاً للاختيار.

وكانوا يحتفلون في اليوم الخامس عشر من شهر فبراير بعيد عجيب هو عيد (لوبركاليا) المخصص للإله 'فونس Faunus' الحامي من الذئاب (lupercus)، وكان يضحي في هذا العيد بالمعز والضأن، وكان (اللوبرسي luperci-) وهم كهنته لا يلبسون على أجسادهم إلا مناطق من جلد المعز- يهرولون حول (البلاتين Palatine) يدعون الإله فونا أن يبعد عنهم الأرواح الشريرة، ويضربون وهم يهرولون من يلقون من النساء بسياط من جلود الحيوانات المضحي بها ليطهرونهن ويزيدوا في قدرتهن على إنجاب الأبناء، ثم يلقون بعد هذا دمى من القش في نهر التيبر لاسترضاء إله النهر أو ختله، ولعل هذا الإله في الأيام التي كانت أكثر من ذلك الوقت همجية كان يتطلب أن تلقى فيه ضحايا بشرية. وفي اليوم الخامس عشر من شهر مارس كان الفقراء يخرجون من أكواخهم، ويفعلون ما كان يفعله اليهود في عيد المظلات، فيقيمون لهم خياماً في حقل المريخ، ويحتفلون بالسنة الجديدة؛ ويدعون الإلهة 'أنابرنا AnnaPerenna' (حلقة السنين) أن تهبهم سنين بعدد ما يحتسون من أكواب الخمر. وكان في شهر

إبريل وحده ستة أعياد آخرها كلها عيد (فلوراليا .Floralia) وكان هذا العيد وهو عيد (فلورا Flora) إلهة الأزهار والينابيع يدوم ستة أيام كلها مرح وسكر وعربدة.

وفي اليوم الأول من شهر مايو كان يحتفل بعيد (الإلهة الصالحة Bona Dea)، وفي التاسع والحادي عشر والثالث عشر من هذا الشهر يحتفل بـ (اللبراليا Liberalia) عيد (ليبر Liber) و(ليبرا Libera) إله العنب وإلهته؛ وكان جماعات من الرجال والنساء في ذلك اليوم يمجدون جهرة عضو التذكير في الرجال وهو رمز الإخصاب. وفي آخر شهر مايو كان الإخوان (الأرفال Arval) يقودون الناس في مواكب عيد (الأمبرفاليا Ambarvalia) وهو عيد رهيب وإن لم يكن يخلو من المرح. ثم تهمل الأرباب فلا تقام لها أعياد في أشهر الخريف بعد أن تكون المحصولات قد أدخلت في المخازن، حتى يقبل شهر ديسمبر فيزدحم بالأعياد مرة أخرى. فكان عيد (السترناليا Saturnalia) يدوم من اليوم السابع عشر إلى اليوم الثالث والعشرين من ذلك الشهر، وكانوا يحتفلون فيه ببذر بذور العام المقبل ويحيون ذكرى حكم (زُحَل Saturn) الذي لم يكن الناس ينقسمون فيه طبقات، والذي يتبادلون فيه الهدايا، ويتحررون من كثير من القيود، ويلغى فيه أو يعكس إلى حين ما بين الأحرار والعبيد من فروق، فكان في مقدور العبيد أن يجلسوا بجوار سادتهم، ويصدروا إليهم الأوامر، ويتهكموا عليهم، وكان السادة يقفون على الموائد لخدمة العبيد، ولا يأكلون حتى تمتلئ بطونهم بالطعام.

وكانت هذه الأعياد زراعية النشأة ولكنها مع ذلك ظلت منتشرة بين أهل المدن، وبقيت رغم ما طرأ على العقائد من تقلبات حتى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد. وقد بلغت من الكثرة والاضطراب حداً جعل من أول واجبات التقويم الروماني إحصاءها وترتيبها لإرشاد الشعب. وكان من عادة الإيطاليين في عهدهم

الأول أن يدعو الكاهن الأكبر المواطنين في أول يوم من كل شهر ويذكر لهم ما فيه من الأعياد التي يجب عليهم أن يحتفلوا بها في الثلاثين يوماً؛ وقد اشتق من هذه الدعوة (Calatis) اسم (Calendae) الذي سمي به اليوم الأول من كل شهر. وكان معنى التقويم عند الرومان- وهو معنى لا يزال يحتفظ به إلى حد ما عند الكاثوليك المسيحيين وعند اليهود المتدينين- ثبتاً كهنوتياً لأيام الأعياد وأعمال العمل، يتخلله قليل من المعلومات المقدسة القانونية والتاريخية والفلكية.

وتقول الروايات المأثورة إن 'نوما Numa' ثاني ملوك روما هو واضع التقويم الذي ظل يضبط التواريخ والحياة الرومانية إلى أيام يوليوس قيصر. وكانت السنة حسب هذا التقويم تنقسم إلى اثنى عشر شهراً قمرياً، تضاف إليها عدة أيام وأجزاء من أيام بنظام معقد يجعل متوسط مجموعها ٣٦٦ يوماً. ثم خوّل للأحبار في عام ١٩١م أن يعالجوا الأخطاء المتزايدة بإعادة النظر في هذه الإضافات، ولكنهم استخدموا السلطة التي منحت لهم لإطالة حكم من يرضون عنه من الحكام، وتقصير حكم من لا يرضون عنه منهم، ومن أجل هذا فإنه لم يكد ينتهي عهد الجمهورية حتى كان التقويم، وقد تجمع فيه من الأخطاء ما يبلغ ثلاثة أشهر، مثالاً للفوضى ووسيلة إلى التلاعب والخداع. أما ساعات النهار فكانت في الأيام الأولى لا تقدر بغير ارتفاع الشمس في السماء، وظل هذا هو النظام المتبع حتى جئ في عام ٢٦٣ ق.م بمزولة شمسية من قطانا Catana في صقلية ووضعت في السوق العامة. ولكن هذه المزولة لم تكن تبين الوقت على حقيقته لأن قطانا كانت على بعد أربع درجات جنوبي روما؛ وقد ظل الكهنة مائة عام عاجزين عن أن يضبطوا عن أن يضبطوا هذه المزولة حتى تبين الوقت الحقيقي في عاصمة البلاد.

وفي عام ١٥٨ أقام 'سبيو ناسيكا Scipio Nasica' ساعة شمسية عامة. وكان الشهر يقسم إلى ثلاث فترات يفصلها بعضها عن بعض اليوم الأول. واليوم الخامس أو السابع واليوم الثالث عشر أو الخامس عشر. ويسمى اليوم الأول (الكالند kalend) والخامس أو السابع (النون none) والثالث عشر أو الخامس عشر (الأيد ide) .

وكانت الأيام تسمى بطريقة سمجة عجيبة أساسها البعد عن هذه الأيام المحددة لأقسام الشهر. مثال ذلك أن اليوم الثاني عشر من شهر مارس كان يسمى (اليوم الثالث قبل أيد مارس). وكان الأسبوع عندهم يتكون من تسعة أيام أو نحوها وينتهي بيوم (الندني nundinae) أو اليوم التاسع، وهو اليوم الذي يذهب فيه القرويون إلى أسواق المدن. وكانت السنة تبدأ بابتداء فصل الربيع؛ ويسمى الشهر الأول (مارتيوس Martius) باسم إله البذر، ثم يليه (أبريلس Aprilis) أي شهر النبت، ثم (مايوس Maius) أي شهر (مايا Maia) أو لعله شهر الوفرة، و(يونيوس Junius شهر (يونونوJuno) أو لعله شهر النجاح، ثم (كونكتلس Quinctilis) فـ(سكستلس Sextilis) ، فسبتمبر فأكتوبر فنوفمبر فديسمبر. وقد سميت بترتيبها العددي في السنة؛ ثم يليها (يناير January) (ليانوس Janus) وفبراير (لفبروا Februa) أو الأشياء السحرية التي يطهر بها الإنسان. وكانت السنة نفسها تسمى (أنس Annus) أي الحلقة كأنهم يريدون أن يقولوا إنه لا توجد للزمن في واقع الأمر بداية ولا نهاية.

◄ الدين وأثره في الأخلاق :

ترى هل أعان هذا الدين على تقويم الأخلاق؟ لقد كان من بعض النواحي مبعث الفساد الخلقي. فاهتمامه بالطقوس والمراسم يوحي بأن الآلهة لا تجزي

الشخص لصلاحه بل لما يقدمه لها من الهدايا وما يتلوه من الصيغ، وكانت الأدعية والصلوات يطلب بها على الدوام النفع المادي أو النصر الحربي. وكان ما يقام من الحفلات يمثل حياة الإنسان وتربة الأرض في صورة المسرحية، ولكن هذه الاحتفالات كثرت وزاد عددها كأن هذه الأعياد، لا صلة الجزء بالكل وإخلاصه له، هي أساس الدين وجوهره. وكانت الآلهة - عدا قلة صغيرة منها- أرواحاً رهيبة مجردة من النبل والأخلاق الفاضلة. لكن الدين القديم مع هذا كله كان يدعو إلى فضائل الأخلاق، وإلى النظام والقوة في الفرد والأسرة والدولة. وكان هذا الدين يصوغ أخلاق الطفل، قبل أن يتسرب إليه الشك، ويعوده التأدب وأداء الواجب ولطف المعاشرة. كذلك كان يجعل للأسرة حقوقاً وضمانات ومعونة مقدسة؛ فكان يغرس في قلوب الآباء والأبناء أقصى درجات الاحترام المتبادل والتقوى، ويجعل للمولد والوفاة كرامة ومعنى قدسياً خاصاً، ويدعو إلى الوفاء بيمين الزواج ويشجع على التناسل إذ يجعل الأبوة شرطاً أساسياً لطمأنينة روح الميت وتمتعها بالهدوء والسلام. يضاف إلى هذا أن الدين، بما كان يفرضه من المراسم والحفلات قبل كل حملة ومعركة حربية، يرفع قوة الجندي المعنوية، ويحمله على الاعتقاد بأن القوى الروحية تحارب إلى جانبه، وأنه كان يثبت القانون ويزيده قوة بما يعزو إليه من أصل سماوي وصورة دينية، وبقوله إن الجرائم تخل بنظام السماوات وبسلمها وبوضع سلطان جوف وراء كل قسم. وكان الدين يخلع على كل ناحية من نواحي الحياة العامة جلالاً دينياً، ويحتم أن يسبق كل عمل من أعمال الحكومة طقوس وصلوات، ويربط الدولة والآلهة برباط متين، وحد بين التقوى والوطنية، وسما بحب الوطن فجعله عاطفة أقوى مما كان في أي مجتمع آخر يعرفه التاريخ. وبهذا كله كان الدين يشترك مع الأسرة في شرف تكوين ذلك الخلق الحديدي الذي كان هو السر في سيادة روما على العالم، وفي تحمل تبعة هذا التكوين.

* الآداب :

لم تكن الأسرة والدين والقانون الأخلاقي وحدها هي التي تكون أخلاق الروماني، بل إن المدرسة والآداب كان لها هي الأخرى شأن في تكوين خلقه وإن يكن أقل من شأن العوامل الثلاثة الأولى. ويقول افلوطرخس إن أول مدرسة رومانية أنشئت في عام ٢٥٠ ق.م ، ولكن ليفي في وصف (فرجنيا Viirgtnia) محبوبة أحد الحكام العشرة، ولعل لخياله الخصب شأن في هذا الوصف: "أنها كانت تذهب إلى مدرسة في السوق العامة" في تاريخ مبكر جداً وهو عام ٤٥٠ ق.م. وإن مطالبة الشعب بتدوين القوانين، ونشر الألواح الأثني عشر، ليوحي بأن كثرة المواطنين في روما كانت في تلك الأيام تعرف القراءة والكتابة. وكان المدرس في العادة من العبيد أم من العبيد المحورين تستخدمه عدة أسر لتعليم أبنائها، أو ينشئ هو لنفسه مدرسة خاصة يقبل فيها من يتقدم إليه. ويعلم فيها القراءة والكتابة والنحو والحساب والتاريخ والطاعة. وكانت التربية الخلقية مادة أساسية فيها تعلم على الدوام، وكان يعنى بالنظام والتأديب أعظم عناية. وكان في حفظ الألواح الاثنى عشر عن ظهر قلب تدريب للذاكرة وتقويم للأخلاق جميعاً.ومن أقوال (هين Heinc)في وصف الصعوبة التي يلقاها من يريد تعلم اللغة اللاتينية إنه "لو اضطر الرومان لتعلم اللغة اللاتينية لما وجدوا لديهم من الوقت ما يسمح لهم بفتح العالم". ولكن الرومان أيضاً قد اضطروا إلى دراسة تصريف الأفعال اللاتينية الشاذة، ولم يلبثوا أن اضطروا إلى دراسة اللغة اليونانية. وكان الطالب اليوناني يدرس سير أبطال الرومان وما قامت به بلاده من جلائل الأعمال بدراسة آثار كتابها وشعرائها، وكان يتلقى دروساً في الوطنية بدراسة حوادث لم تحدث قط. ولم يكن الرومان يعنون بالألعاب الرياضية لأنهم كانوا يفضلون أن يقووا أجسامهم ويتعودوا

تحمل المشاق بالقيام بالأعمال المجهدة النافعة في الحقول والمعسكرات، لا بالمباريات في المجتلدات والملاعب الرياضية. وكانت اللغة- كما كان الشعب- اقتصادية عملية محددة المعاني، مختصرة، جملها الأصلية والتبعية منظمة تنظيماً يوصل إلى هدف محدد. وثمة آلاف من الروابط بينها وبين اللغتين السنسكريتية واليونانية واللغات الكلتية التي كان ينطق بها الغاليون الأقدمون وسكان ويلز وأيرلندا؛ وهذه اللغات كلها من أسرة اللغات الهندوربية. وكانت اللغة اللاتينية أضيق من اللغة اليونانية خيالاً، وأقل منها مرونة واستعداداً لتكوين الكلمات المركبة؛ وكان لكريشيوس وشيشرون يشكوان من قلة مفرداتها، ومن عجزها عن بيان الفروق الدقيقة في المعنى الواحد. لكنها مع ذلك كانت ذات نغمة طنانة فخمة وقوة أضحت بفضلهما من أصلح اللغات للخطابة؛ كما أن أسلوبها الجزل الموجز، وعبارتها المنطقية، قد جعلاها صالحة لتدوين القانون الروماني. وقد انتقلت الحروف الهجائية اللاتينية إلى روما من جزيرة خلقيس العوبية Euobean Chalcis عن طريق كومية وإتروريا . ومن أجل هذا نرى الحروف اللاتينية كلها يونانية الشكل في أقدم نقش لاتيني معروف يعزى إلى القرن السادس قبل الميلاد، وكان حرف C في اللاتينية القديمة ينطق كافاً مثل حرف K في الإنجليزية كما كان حرفا U,V ينطقان مثل W,U ؛ أما الحروف الدالة على الحركات فكانت شبيهة بمثلها في اللغة الإيطالية الحديثة. وكان معاصرو قيصر ينطقون اسمه قيصر Yooleous Keyssar كما كان اسم شيشرون Cicero ينطق به كيكرو Keekero.

وكان الرومان يكتبون بالحبر براعة معدنية مشقوقة (calamus, stilus) على أوراق الأشجار في بادئ الأمر(folia) ، ومن ثم كانت الكلمتان الإنجليزيتان

لحاء Leaf, folio (ومعناهما صفحتان)؛ ثم كتبوا فيما بعد على باطن لحاء الشجر(liber)؛ وكثيراً ما كانوا يكتبون على ألواح بيضاء من الخشب المطلي بالشمع (Album)، وكتبوا بعد ذلك على الجلد المدبوغ وعلى الورق. وإذ كانت لغة الكتابة اللاتينية أشد مقاومة للتغيير من لغة الكلام، فإن لغة الأدب أخذت تختلف شيئاً فشيئاً عن اللغة التي كان يتكلمها الشعب، كما يحدث الآن في أمريكا وفي فرنسا. ولذلك نشأت اللغات الرومانسية الرخيمة: الإيطالية والأسبانية والبرتغالية، والفرنسية، ولغو رومانيا؛ نشأت هذه اللغات من اللغة اللاتينية الخشنة غير المهذبة التي جاء بها إلى هذه الأقاليم الجنود والتجار، والأفاقون المغامرون، ولم تنشأ من اللغة التي جاء بها الشعراء والنحويون. ولهذا اشتقت الكلمات التي معناها حصان في اللغات الرومانسية Cheval – Cavallo – Caballocal من اللفظ اللاتيني العامي Caballus لا من اللفظ الفصيح equis ، وكان لفظ ille في اللغة اللاتينية العامية ومكوناً من مقطع واحد كلفظ il في اللغتين الفرنسية والإيطالية، وكان حرف S وحرف M يُحذفان أو لا ينطق بهما إذا كانا في آخر الكلمات كما هي الحال في هاتين اللغتين. وعلى هذا فقد جاءت خير اللغات من نسخ أسونها Corruptio pesimi optima . ترى ما هو الأدب الذي كان يقرأه الشاب الروماني في هذه الثلاثة قرون الأولى من عهد الجمهورية؟ لقد كان في وسعه أن يقرأ تراتيم وأغاني دينية كأغنية إخوان أرفال The Arval Brethren، وكان لديه أيضاً قصائد شعبية تقص ماضي روما التاريخي أو الأسطوري. كان في ذلك العهد سجلات رسمية – معظمها ما كتبه الكهنة – للانتخابات، والمناصب الكبرى، والحوادث الشهيرة، وعلامات التشاؤم والتفاؤل، وأيام الأعياد . وقد اعتمد 'ك. فابيوس بكتور Q. Fabiue Pictor' على هذه السجلات في كتابة تأريخ لروما خليق بالاعتبار، وإن كان ما كتبه باللغة اليونانية؛

ذلك بأن اللغة اللاتينية لم تكن تعد في ذلك الوقت صالحة لأن يكتب بها النثر الأدبي، ولم يكن يكتب بها المؤرخون حتى زمن كاتو. لقد كان هناك خليط من النثر يسمى (ساتوري Sature) ، وهو خليط من الكلام المطرب الأجوف والغزل الهزلي – صاغ منه لوسلس Lucillus فيما بعد صورة جديدة كتب بها هوراس Horace وجوفنال Juvenal . وكان لديهم مجون هزلي فاحش أو تقليد صامت يقوم له في العادة ممثلون من إتروريا. وقد أطلق لفظ استريوني Istiriones على بعض هؤلاء الممثلين القادمين من مدينة استريا Istria ومن هذا الاسم اشتق لفظ Histrio (ممثل) اللاتيني ومشتقاته في اللغة الحديثة.

كذلك كانت تمثل في أيام الأسواق والأعياد مسرحيات هزلية فجة شبه مرتجلة، أخذت عنها كثير من المسرحيات الهزلية الإيطالية القديمة والحديثة آلافاً من شخصياتها: كالأب الغني الأبله، والشاب المتلاف صريع الحب، والعذراء المفترى عليها، والخادم الدساس الماهر، والنهم الدائب السعي إلى وجبة، والمهرج المرح الصخاب. وفي ذلك العهد البعيد كان المهرج يتباهى برقع ثيابه الزاهية الألوان، وبسراويله الطويلة المنتفخة، وبصديريته الواسعة الأكمام، وبرأسه الحليق، وهي الصورة التي لا نزال نذكرها من أيام شبابنا. ولقد وجدت على مظلمات خرائب بومبي صورة لا تفرق في شيء عن صورة (القرقوز) المعروفة.

وكان أول دخول الأدب في روما على يد عبد يوناني في عام ٢٧٢ ق.م. ففي ذلك الوقت سقطت تارنتم في يد الرومان، وذبح الكثير من أهلها اليونان. ولكن ليفيوس اندرينيكوس Levius Andrenicus أسعده الحظ بأن نجا من القتل وصار في عداد العبيد، ثم جيء به إلى روما فأخذ يعلم أبناء سيده وغيرهم من الأطفال اللغتين اللاتينية واليونانية، وترجم لهم الأوديسة بالشعر اللاتيني

الساتورني Saturnian وهو عبارة عن أبيات ذات أوزان مفككة غير منتظمة تقاس أوتادها بالنبرات لا بالطول. ثم تحرر من الأسر جزاءاً له على جهوده وعهد إليه إيديل بكتابة مأساة وملهاة تمثلان في ألعاب (Ludi) سنة ٢٤٠ ق.م. فكتب المسرحيتين على النمط اليوناني، وأرشد ممثليهما، ومثل هو الأجزاء الهامة فيهما، وغنى ما فيهما من الأناشيد على نغمة مزمار حتى بح صوته. ثم جاء بشخص آخر يغني الأبيات وهو يمثل – وهي طريقة اتبعت في مسرحيات كثيرة بعدهما مثلت في روما، وكان لها أثر كبير في نشأة المسرحية الصامتة المضحكة. وسرّت الحكومة أيما سرور من دخول المسرحية الأدبية في روما فكرمت أندرمكس، بأن أباحت للشعراء أن يؤلفوا اتحاداً لهم، وأن يعقدوا اجتماعاتهم في هيكل منيرفا على الأفنتين. ومن ذلك الحين جرت العادة بتمثيل مسرحيات ذات مناظر في الأعياد العامة. وبعد خمس سنين من هذه البداية التاريخية جاء جندي قديم من عامة الشعب ومن أهل كمبانيا يدعى كنيس نيفيوس Cnaeus Naevius فأثار غضب الأهلين المحافظين على تقاليدهم القديمة بتمثيل ملهاة سخر فيها من المفاسد السياسية التي كانت متفشية في العاصمة في أيامه، سخرية لا تقل في صراحتها عن سخرية أرسطوفان .Aristophanes وشكت الأسر الكبيرة من هذه السخرية، فزجّ نيفيوس في السجن ثم اعتذر عن عمله هذا وأطلق سراحه، ولكنه عاد فألّف مسرحية أخرى لا تقل في سخريتها اللاذعة عن مسرحيته الأولى، أخرج على أثرها من روما. وكتب في منفاه وهو شيخ طاعن في السن ملحمة شعرية في الحرب اليونانية الثانية التي خاض هو نفسه غمارها، تفيض وطنية وحماسة. وتبدأ هذه الملحمة بذكرى تأسيس روما على أيدي اللاجئين الطرواديين، وقد استمد منها فرجيل موضوع ملحمته وكثيراً من مناظرها. وخليق بنا أن نقول إن الحكم الذي صدر بنفيه كان مأساة مزدوجة؛ ذلك أن الملهاة الرومانية قد فتّ في

عضدها عنت الرقابة التي كانت تعد السب جريمة يعاقب عليها بالإعدام، وإن السياسة الرومانية قد فقدت فيه ناقداً عاماً جريئاً كان في وسعه أن يطهرها من مفاسدها. وكتب نيفيوس أيضاً مسرحية شعرية تعتمد على تأريخ روما. ووقفت هذه التجربة هي الأخرى عنده. وظلت المآسي الرومانية بعد أيامه محصورة كلها في دائرة الأساطير اليونانية التي نضب معينها ولم تجد منها مخرجاً إلى غيرها من الموضوعات. ولم يبقَ مما كتبه نيفيوس إلا قطع قليلة متفرقة تشهد ببراعته، ومنها قطعة تصف فتاة لعوباً يقول فيها: "إنها تنتقل من شخص إلى شخص تنتقل من يلعب كرة في حلقة. وهي كل شيء لكل رجل، تلقاهم بألفاظها، وغمزات عينها، ودلالها، وعناقها. هذا تضغط عليه بيدها، وذاك بقدمها، وثالث تريه خاتمها، ورابع ترسل له قبلة حارة مغرية من شفتيها، وهنا أغنية، وهناك لغة الإشارات".

وخليق بنا أن نقول إن النساء لم يكنّ في ذلك الوقت أقل جمالاً وسحراً مما هنّ الآن، وإن الرومان لم يكونوا كلهم متزمتين كما كان (كاتو)، وإن الفضيلة كانت تتنحى عن مكانها في ظلال أبواب الهياكل نفسها. ولم يكن للعلوم شأن في تربية المواطن الروماني أو ثقافته إذا استثنينا قواعد الحساب الأساسية، وما يكفي من الهندسة لتخطيط مزرعة أو معبد. وكان الأولاد يعدون على أصابعهم (digita)، ولم تكن الأرقام التي يستخدمونها في العد والحساب إلا صورة للإصبع ممتدة (I) ، ولليد (V) ، أو اليدين متصلتين عن الرسغ (X) ، وكانوا يكتفون في تكوين الأعداد الأخرى بتكرار هذه الرموز (II, III) وبإضافة أرقام قبل V ، X أو بعدهما للدلالة على ما هو أقل منهما في الحالة الأولى أو أكثر منهما في الحالة الثانية. ومن هذا الحساب (اليدوي)، وضع النظام العشري القائم على أجزاء العشرة ومضاعفاتها، أي الأصابع العشر.

وأجاد الرومان في استخدام الهندسة في أعمال البناء وغيرها من الأعمال الهندسية، ولكنهم لم يضيفوا نظرية واحدة جديدة إلى النظريات التي ابتكرها العقل اليوناني، ولسنا نسمع شيئاً عن الفلك الروماني في هذا العهد إلا ما يتصل منه بالتقويم المليء بالأخطاء، وبالتنجيم شقيق الفلك وحده.

* الطب :

أما الطب فقد ظل معظمه حتى القرن الثالث مقصوراً على استخدام الأعشاب والسحر والصلوات في البيوت، وكان الاعتقاد السائد أن الآلهة وحدها هي القادرة على شفاء المرضى، وكانوا يبتهلون في كل داء إلى إله خاص، كما نلجأ نحن إلى الطبيب الإخصائي، لكي يضمنوا لأنفسهم الشفاء من هذا المرض، فبعوض المناقع الرومانية كان يلجأ في اتقاء أذاه إلى الإلهتين فبريس Febris ومفتيتس Mephtitis ، كما ظل الرومان إلى القرن العشرين بعد الميلاد يلتمسون الشفاء من الحمى من (سيدة الحميات La Madonna della Febbre).

وكانت الأضرحة الشافية والمياة المقدسة شائعة شيوعها في هذه الأيام. وكان هيكل اسيولابيوس Aesculapius مركزاً كبيراً للعلاج الديني يعتمد فيه على التغذية المناسبة، والدعوات الصالحات، والمراسم الدينية المهدئة للأعصاب، ومعونة الأطباء المجبرين العمليين، ولطف مهرة الممرضين- يعتمد فيه على هذه العوامل كلها لإعادة الثقة إلى نفس المريض ولشفائه من مرضه شفاء يظنون أنه إنما جاء عن طريق المعجزات. على أنه كان في روما إلى جانب هذه الوسائل أطباء حقيقيون ودجالون من العبيد قبل المسيح بخمسمائة عام؛ وكان بعضهم يمارسون طب الأسنان لأن الألواح الاثني عشر كانت تحرّم دفن الذهب مع الموتى إلا إذا كان مستخدماً في تغطية الأسنان.

ونسمع في عام ٢١٩ ق.م عن أول طبيب من الأحرار في روما، وهو أرشجاتوس البلوبونيزي Archagathus Le Peloponnes. وقد أعجب الأشراف بجراحاته إعجاباً حمل مجلس الشيوخ على ان يطلب له مسكناً رسمياً ويمنحه حرية المدينة. وكان شغفه الشديد الذي يبلغ حد الهوس بالتقطيع والتحريق سبباً في تلقيبه فيما بعد بالجزار Carnifex . وأخذ الأطباء اليونان من ذلك الوقت يهرعون إلى روما حتى أصبحت صناعة الطب في تلك البلاد وقفاً على اليونان.

* الزراعة :

قلما كان الرومان في تلك العصور يحتاج إلى الطب، لأن حياته النشيطة في الزراعة والجندية تكسبه صحة وقوة. وكان يجدُّ في فلح الأرض كما يجد اليوناني في خوض عباب البحر؛ وكانت الزراعة أساس حياته، يقيم المدن لتكون مجتمعاً للزراع يتبادلون فيها محصولات أرضهم، وينظم جيوشه ودولته على أساس استعداده للدفاع عن أملاكه وتوسيع رقعتها، ويفكر في آلهته على أنها أرواح الأرض الحية والسماء المغذية. ونجد الملكية الفردية قائمة في روما من أقدم العصور المعروفة؛ على أن بعض الراضي كانت تعد من الأملاك العامة ager publicus التي تستولي عليها الدولة عن طريق الفتح وتحتفظ لنفسها بملكيتها. وكانت أسرة الزراع في عهد الجمهورية الباكر تمتلك فدانين أو ثلاثة أفدنة، يشتغل فيها جميع أفرادها وعبدها إن كان لها عبد، وتعيش عيشة متقشفة على ما تنتجه من الغلات. وكانوا يفترشون القش، ويصحون من نومهم مبكرين، ويخرجون إلى عملهم ونصف جسمهم العلوي عار من الملابس، ليحرثوا الأرض ويمهدوها خلف ثيران تسمدها بفضلاتها، وتتخذ لحومها قرابين دينية وطعاماً في الأعياد والولائم.

وكانت فضلات الآنية تتخذ هي الأخرى سماداً، ولكن المخصبات الكيمائية كانت نادرة في إيطاليا قبل عهد الإمبراطورية. وقد استورد في ذلك العهد كتباً في الزراعة العملية من بلاد اليونان ومن قرطاجنة . وكانت الأرض تزرع حباً ثم خضراً. ثم تترك من حين إلى حين لتكون مراعي حتى لا يستنفد خصبها. وكانت الفاكهة والخضر موفورة، وكانت بعد البقول أهم غذاء للأهلين، وكان الثوم من أحب المشهيات. وقد بلغ من شأن الزراعة عندهم أن بعض أسر الأشراف قد اشتقت أسماؤها من الخضر التي تعنى بزراعتها. ومن أمثلة ذلك أسر Lentuli, Fabii,Caepiones، وهي مشتقة من ألفاظ معناها العدس، والبصل، والفول أو الحمص. ثم طغت زراعة التين والزيتون والكروم شيئاً فشيئاً على زراعة الحبوب والخضر. واستبدل زيت الزيتون بالزبد في الطعام، وبالصابون في الاستحمام، واستخدم للإضاءة في المشاعل والمصابيح، كما كان العنصر الأساسي في أدهان الشعر والجلد التي كانت رياح البحر الأبيض المتوسط الجافة وشمسه المحرقة في فصل الصيف تحتم عليهم استعمالها. وكان الضأن أهم قطعانهم لأن الإيطاليين كانوا يفضلون نسيج الصوف على غيره من المنسوجات. وكانت الخنازير والدجاج تربى في ساحة المزرعة، وكان لكل أسرة تقريباً حديقة للأزهار. ثم غيرت الحروب هذه الصورة القروية وما فيها من كدح، ذلك أن كثيرين من الزراع الذين استبدلوا السيف بالمحراث قد غلبوا على أمرهم في ميدان القتال أو اجتذبتهم حياة المدن فلم يعودوا قط إلى حقولهم؛ وكثيرون غيرهم وجدوا ان أرضهم أتلفها الإهمال، أو الجيوش، فلم يجدوا لديهم من الشجاعة ما يحملهم على أن يبدأوا العمل فيها من جديد؛ ومنهم من قصمت ظهورهم الديون الباهظة؛ فاضطر هؤلاء كلهم إلى أن يبيعوا أرضهم بأثمان زهيدة إلى الأشراف أو الممولين الزراع؛ وضم هؤلاء المزارع الصغيرة بعضها إلى بعض وكونوا منها ضياعاً واسعة كبيرة Latifundia ،

واستبدلوا بزراعة الحبوب في هذه الضياع مراعي للضأن والماشية، وبساتين وكروماً، وحشدوا فيها عبيداً من أسرى الحروب يعملون فيها على أعين مشرفين، كانوا هم أيضاً عبيداً في أغلب الأحيان. وكان الملاك يأتون إلى هذه الضياع بين الفنية والفنية ليلقوا نظرة على أملاكهم؛ ولم يكونوا هم أنفسهم يقومون فيها بعمل من الأعمال، بل كانوا يعيشون عيشة الملاك الغائبين عن أملاكهم في منازل ذات حدائق في الريف، أو في قصور في روما. وقد بدأ هذا الاتجاه الجديد قبل القرن الرابع، حتى إذا حل القرن الثالث قبل الميلاد نشأت في الريف طائفة من المستأجرين الذين أثقلتهم الديون، وفي العاصمة طائفة من الصعاليك الذين لا ملك لهم، وانتشرت بينهم التذمر والغضب من وضعهم. وما لبث هذان التذمر والغضب أن قضيا على الجمهورية التي أقامها كدح الفلاحين.

* الصناعة :

لم تكن أرض إيطاليا غنية بمعادنها- وكان لفقرها في هذه المعادن أكبر الأثر في تاريخ إيطاليا الاقتصادي والسياسي؛ فلم يكن في البلاد ذهب قط، وكانت الفضة جد نادرة، وكان فيها قدر لا بأس به من الحديد، كما كان بها بعض النحاس، والرصاص، والقصدير، والخارصين، بكميات قليلة لا تكفي لقيام الصناعات. وكانت جميع المناجم في الإمبراطورية كلها ملكاً للدولة، ولكنها كانت تؤجرها للأفراد يستغلونها استغلالاً مجزياً على أيدي آلاف من العبيد. ولم تتقدم صناعة التعدين أو الفنون الصناعية في البلاد إلا قليلاً؛ ولكن البرنز في ذلك العهد كان لا يزال أكثر استعمالاً من الحديد؛ ولم تكن الآلات الرافعة والدلاء ذات السلاسل التي أقامها أرخميدس Archimedes وغيره من العلماء في صقلية ومصر تستخدم إلا في خير المناجم الإيطالية وأحدثها. وكان الخشب أهم أنواع

الوقود تقطع له الأشجار كما تقطع أيضاً لاستخدامها في بناء البيوت وصنع السفن والأثاث؛ ومن أجل هذا أخذت الغابات تتناقص مساحتها وتنعدم شيئاً فشيئاً من سفوح الجبال، حتى وصل التقطيع إلى الحد الأعلى الذي لا تنمو فوقه الأشجار. وكانت أروج الصناعات وأكثرها ازدهاراً صناعة الأسلحة والعدد في كمبانيا. ولم يوضح قط نظام للمصانع إذا استثنينا مصانع الأسلحة والفخار، ولم يكن الفخرانيون يصنعون الصحاف وحدها بل كانوا يصنعون معها الآجر، والقرميد، والأنابيب، والقنوات التي تجر الماء إلى البيوت. وكانوا في أريتيوم وغيرها يقلدون النماذج اليونانية ويتعلمون صناعة الآنية الفنية. ولم يحل القرن السادس قبل الميلاد حتى كانت صناعة النسيج قد تخطت المرحلة المنزلية في نقش النيل والصوف وإعدادها وصبغهما، وذلك على الرغم من أن صناعة الغزل كان يقوم بها النبات والأزواج والعبيد. أما النساجون الأحرار وغير الأحرار فقد جمعوا في مصانع صغيرة لا تنتج للأسواق المحلية وحدها بل تنتج كذلك ما يلزم منها لتجارة القصدير.

* الطرق الرومانية :

أما الإنتاج الصناعي للاستهلاك غير المحلي فقد كانت تعطله صعاب النقل. ذلك أن الطرق كانت رديئة والقناطر غير مأمونة، والعربات التي تجرها الثيران بطيئة، والنزل في الطرق نادرة، وكان اللصوص كثيرون، ومن ثم اتجهت حركة النقل إلى القنوات والأنهار؛ أما المدن الساحلية فكانت تستورد حاجتها من البضائع بطريق البحر لا من المدن الواقعة خلفها بطريق البر. وما أن حلت سنة ٢٠٢ ق.م حتى كان الرومان قد أنشأوا ثلاثة من الطرق (القنصلية العظيمة)، وقد سميت قنصلية لأنها كانت تسمى عادة باسم القناصل أو الرقباء الذين كانوا

يبدأونها. وما لبث هذه الطرق العامة أن فاقت في صلابتها واتساعها الطرق الفارسية والقرطاجنية التي اتخذها الرومان نماذج لهم في بادئ الأمر. وكان أقدم هذه الطرق طريق (ڤيا لاتينا via Latina) الذي خرج به الرومان حوالي ٣٧٠ ق.م إلى تلال ألبان. وبدأ ابيوس كلوديوس Appius Claudius الضرير في عام ٣١٢ ق.م طريق (ڤيا أبيا via Appia) أو الطريق الأfيآاوي الذي يصل روما بكبوا Capua واستخدم في إنشائه آلافاً من المجرمين، ثم مدد هذا الطريق فيما بعد إلى بنفنتم، وڤنوزيا Venusia ، وبرنديزيوم Brundisium ، وتارنتم . وكان هذا الطريق البالغ طوله ٣٣٣ ميلاً إنجليزياً يربط ساحلي شبه الجزيرة الشرقي والغربي، وييسر التجارة مع بلاد اليونان والشرق، كما كان هو وغيره من الطرق عاملاً كبيراً في توحيد إيطاليا. وفي عام ٢٤١ ق.م شرع أورليوس كوتا Aurilius Cotta في إنشاء الطريق الأوريلي الممتد من روما إلى أنتيبيس Antibes مخترقاً مدينتي بيزا Pisa ، وجنوى Genoa. وافتتح كيوس فلامينوس Caius Flaminus في عام ٢٢٠ق.م الطريق الفلاميني المؤدي إلي أرمينوم Ariminnm، ثم أنشئ حوالي ذلك الوقت نفسه الطريق الفليري Valerian بين تيبور Tipur وكرفينيوم Corfinium . وهكذا أخذت شبكة الطرق الفخمة تتسع شيئاً فشيئاً فصعد الطريق الإميلي Aemilian نحو الشمال من أرمينيوم مخترقاً بونونيا Bononia وموتينا Mutina إلى بلاستيا Placentia عام ١٨٧ق.م. وربط الطريق البستومي Postumian جنوى بفرونا Veronoa ١٤٨ق.م ومسار طريق بوبليا Via Popilia من أرمينيوم مخترقاً رافنا Ravenns إلى بدوا Padua ١٣٢ق.م ثم أنشئت الطرق في القرن التالي من إيطاليا إلى خارجها- إلى يورك York، وفينا Vienna، وثسلونيكا Thessalonica، ودمشق، كما امتدت على طول ساحل إفريقيا الشمالي.

وأفادت هذه الطرق في الدفاع عن الإمبراطورية وتوحيدها، وبعث الحياة فيها، وذلك بمساعدتها الجيوش على سرعة الحركة ونشر الأنباء والعادات والأفكار في ربوعها، كما أضحت مسالك عظيمة للتجارة. وكان لها شأن أيما شأن في تعمير إيطاليا وأوربا وزيادة ثرائهما. لكن التجارة لم ترج في إيطاليا على الرغم من هذه الطرق الكبرى رواجها في شرقي البحر الأبيض المتوسط. ذلك أن رجال الطبقات العليا كانوا ينظرون بعين الاحتقار إلى الشراء بأثمان بخسة والبيع بأثمان مرتفعة. ولذلك تركوا التجارة الداخلية لليونان والمحررين من أبناء الشرق؛ هذا في المدن. أما الريف فقد كان أهله يكتفون بالأعياد التي تقام من حين إلى حين؛ وبأسواق اليوم التاسع في المدن. كذلك لم تبلغ التجارة الخارجية شأناً عظيماً لأن النقل البحري كان معرضاً للأخطار؛ فقد كانت السفن صغيرة الحجم لا تزيد سرعتها على ستة أميال في الساعة سواء أكانت تسير بالشراع أم بالمجاديف، ولم تكن تبعد عن الشاطئ ولا يجرؤ معظمها على الخروج من الموانئ من شهر نوفمبر إلى شهر مارس. كذلك كانت قرطاجنة تسيطر على غربي البحر الأبيض المتوسط والممالك الإغريقية تسيطر على شرقيه، وكان لصوص البحار ينقضُّون من مكامنهم من حين إلى حين على التجار الذين هم أكثر منهم شرفاً إلى حد ما. وفوق هذا كله كان نهر التيبر دائب العمل على طمر مصبه وسد مدخل ميناء عند أستيا Ostia؛ وقد حدث أن غرقت مائتا سفينة في هذا الميناء على أثر عاصفة هوجاء. يضاف إلى هذا وذاك أن التيار كان قوياً بحيث يجعل سير السفن صاعدة فيه إلى روما عملاً لا يوازي ما يتطلبه من مشقة وما يتكلفه من مال. ومن أجل هذا بدأت السفن حوالي عام ٢٠٠ ق.م ترسو عند بتيولي على بعد مائة وخمسين ميلاً جنوبي روما، ومنها تنتقل حمولتها براً إلى العاصمة.

◄ العملة :

وكان لابد لتيسير هذه الحركة التجارية الداخلية والخارجية من وضع نظام للنقود. والمقاييس، والمكاييل، والموازين، مضمون من الدولة . لقد ظلت الماشية حتى القرن الرابع قبل الميلاد تتخذ وسيلة للتبادل، وذلك لما لها من قيمة عند جميع الناس، ولأنها كان يسهل نقلها من مكان إلى مكان. فلما اتسع نطاق التجارة استخدمت قطع من النحاس. خشنة الصنع غير مهذبة تسمى الإيس Aes حوالي ٣٣٠ ق.م. وقد اشتقت الكلمة الإنجليزية الدالة على القيمة estimate من كلمتي Aes timare أي تقويم النحاس. وكانت الوحدة المستعملة في تقويم الأشياء هي الآس As (الواحد) وكان وزنها رطلاً من النحاس، ولما أن سكّت الدولة عملة نحاسية حوالي عام ٣٣٥ ق.م كانت تطبع عليها في الغالب صورة ثور، أو شاة. أو خنزير، ومن ثم سميت بيكونيا pecunia من بيكس pecus (أي ماشية). ويُقال: "إنه لما شبت الحروب البونية الأولى ولم تجد الجمهورية من الأموال ما يفي بحاجاتها، خفضت وزن الآس إلى أوقيتين من النحاس، وأفلحت في تصفية الدين العمومي". وما أن وافى عام ٢٠ ق.م حتى كان وزن الآس قد نقص إلى أوقية واحدة، ثم خفض في عام ٨٧ ق.م إلى نصف أوقية لتستعين الدولة بذلك على تمويل الحرب الاجتماعية. وفي عام ٢٦٩ق.م سكّت قطعتان من النقود الذهبية أولاهما الديناريوس Denarius وكان يساوي عشرة آسات، أي قيمة الدرخمة الأثينية في صورتها الهيلينية المخفضة، والأخرى السترتيوس ومقدارها آسان ونصف آس أو ربع ديناريوس. وفي عام ٢١٧ق.م ظهرت أول عملة ذهبية رومانية (الأوري aurei) وكانت قيمته عشرين أو أربعين أو ستين سترتيوس.

◄ المالية :

وكان إصدار هذه العملة المضمونة عاملاً مهماً في تدعيم الأعمال المالية في البلاد، فقد كان الرومان الأولون يستخدمون الهياكل في أعمال المصارف، كما تتخذ نحن المال إلهاً لنا والمصارف هياكل نعبده فيها من دون الله. وقد ظلت الدولة تتخذ الأضرحة القوية البناء مستودعات للأموال العامة، ولعلها كانت ترى أن الدين قد يلقي الرعب في قلوب اللصوص فلا يقدمون على السرقة. وكان إقراض المال من أقدم الأعمال في روما، وشاهد ذلك أن الألواح الأثني عشر تحرم الربا إذا زاد على ٨.٣٪ في السنة. ثم خفض سعر الفائدة القانوني في عام ٣٤٧ق.م إلى خمسة في المائة، ثم حرم الربا على الإطلاق في عام ٣٤٢ ق.م. ولكن المرابين كان في وسعهم أن يروغوا من هذا التحريم الأرسطاطيلي، وكان أقل سعر للفائدة يتقاضونه فعلاً لا يقل عن ١٢٪. فضلاً عن هذا فقد كان الربا الفاحش (الذي يزيد على ١٢٪) واسع الانتشار، وكان يحدث من حين إلى حين أن يتخلص المدينون من ديونهم بالإفلاس أو التشريع. وحدث في عام ٣٥٢ ق.م. أن استخدمت الحكومة وسيلة جد حديثة للتخفيف عن المدينين: ذلك أنها تكفلت هي بالرهون التي كان الوفاء بها مرجحاً أكثر من غيرها، وأقنعت الراهنين بأن يقبلوا عن الرهون الأخرى فوائد أقل من التي تعاقدوا عليها. وأصبح أحد الشوارع المجاورة للسوق العامة Forum هي رجال المصارف، وازدحمت فيه حوانيت المقرضين (argentarii) والصيارفة مبدلي النقود (trapezitae) . وكان في وسع الأهلين أن يقترضوا المال بضمان الأرض والمحاصيل الزراعية والأوراق المالية، والعقود الحكومية، كما كان في وسعهم أن يقترضوا لتمويل المشروعات التجارية والرحلات البحرية، وكان يحل محل التأمين الصناعي السائد في أيامنا

الحاضرة نظام الإقراض التعاوني؛ وكان يحدث أن يشترك عدد من أصحاب المصارف في تقديم الأموال اللازمة لمشروع ما بدل أن ينفرد واحد منها بتمويله. وكانت هناك شركات مساهمة أشهر ما كانت تقوم به من الأعمال تنفيذ العقود الحكومية التي يبرمها الرقيب بعد أن تقدم إليه عنها عطاءات. وكان أصحاب هذه العطاءات يحصلون على المال اللازم لقيامهم بهذه الأعمال ببيع ما لديهم من الأسهم والسندات للجمهور في صورة أجزاء صغيرة أي أسهم particular أو (partes). وقد اضطلعت هذه الشركات المؤلفة من رجال يقومون بالمشروعات العامة أو مشروعات الدولة بعمل خطير في تموين الجيش والأسطول في الحرب البونيقية الثانية بما يحتاجانه من المؤن والعتاد ونقلها إليهما، ولم يفتها في هذا العمل أن تحاول ما يحاوله غيرها من الشركات، وهو أن تخدع الحكومة، وكان رجال الأعمال equites هم الذين يديرون هذه المشروعات الكبرى، أما ما كان أصغر منها فكان يديره الأرقاء المحررون. وكانت المشروعات غير الحكومية يديرها مديرو الأعمال negotiatunes، وكان هؤلاء يدبرون لأنفسهم ما يلزمها من المال.

وكانت الصناعة في أيدي صناع مستقلين يشتغل كل منهم في حانوته الخاص، وكان معظم هؤلاء الصناع ممن الأحرار ولكن كان إلى جانبهم عدد من المحررين ومن الأرقاء أخذ يتزايد على مر الأيام. وكانت الأعمال التي يقوم بها هؤلاء الصناع مختلفة كل الاختلاف، وكان أكثر ما ينتجون للسوق لا للعميل الخاص. وقد أدى التنافس بين العمال الأحرار والأرقاء إلى خفض اجور الأولين، فانحط مستوى العمال إلى درجة من البؤس لا تقل عن بؤس أفقر عمال المدن الذين يعيشون في أقذر الأحياء في هذه الأيام. ولم يكن إضراب هؤلاء العمال عن

العمل ذا فائدة لهم ولذلك كان نادر الحدوث ؛ غير أن الفتن بين الأرقاء كانت كثيرة؛ ولم تكن (حروب الأرقاء الأولى) ١٣٩ق.م أولى هذه الفتن. ذلك أن التذمر إذا اشتد وضاق الناس ذرعاً بمعيشتهم؛ كان من السهل تلمس سبب للحروب تهيئ أعمالاً للمتعطلين، وتُيسر انتشار النقود المنخفضة القيمة، وتُوجه غضب الشعب نحو عدو خارجي يطعم الرومان من أرضه إذا انتصروا، أو تستقبلهم هذه الأرض موتى أو أسرى إذا هزموا.

وكان للأحرار من العمال اتحادات أو جماعات طائفية (Collegia) ، ولكنها قلما كانت تعنى بمسائل الأجور أو ساعات العمل أو ظروفه. وتعزو الروايات المتواترة إلى نوما Numa فضل إنشاء هذه الاتحادات أو الاعتراف بمشروعيتها. وسواء صح هذا أو لم يصح فإننا نعرف أنه كان القرن السابع قبل الميلاد منظمات للزمارين، والصائغين، والنحاسين، وطارقي الحديد، والحذائين، والفخرانيين ، والصبّاغين والنجارين.

وكانت جماعات (الفنانين الديونيزيون Dionysian Artists)– الممثلين والموسيقيين– من أكثر الجماعات انتشاراً في العالم القديم. وقد كان في روما قبل بداية القرن الثاني قبل ميلاد المسيح جماعات طائفية للطباخين، ودابغي الجلود، والبنائين، وصناع البرونز، والحدادين، وصانعي الحبال، والنسّاجين؛ ولكن الراجح أن هذه الطوائف كانت قديمة قدم الطوائف السالفة الذكر. وكان أهم أهداف هذه الاتحادات وأمثالها مجرد السرور الذي تبعثه الصلات الاجتماعية في قلوب أعضائها. وكان الكثير منها جمعيات تعاونية تكفل نفقات دفن الموتى. ولم تكن الدولة تنظم شئون هذه الاتحادات والجماعات الطائفية وحسب، بل كانت تنظم كذلك كثيراً من النواحي في حياة روما الاقتصادية؛ فكانت تشرف على

استغلال المناجم وعلى غيرها من الامتيازات والعقود التي كانت تبرمها الحكومة، وكانت تهدئ الاضطرابات التي يثيرها العامة باستيراد الطعام وتوزيعه بأثمان اسمية على الفقراء أو على كل من يطلبه. وكانت تفرض الغرامات على الاحتكارات؛ وقد أممت صناعة تعدين الملح لتقضي بذلك على احتكار هذه الصناعة، بعد أن ارتفع ثمن الملح بسبب هذا الاحتكار ارتفاعاً جعله في غير متناول طبقة العمال.

وكانت روما تتبع سياسة حرية التجارة، ولذلك فإنها لما تغلبت على قرطاجنة فتحت غرب البحر المتوسط لتجارة الأمم جميعها؛ وقررت حماية يوتيكا Utica ثم ديلوس مشترطة عليهما في نظير هذه الحماية أن يظلا ميناءين حرين تدخل فيهما البضائع وتخرج منهما دون أن تؤدي لهما رسوماً. على أنها كانت في بعض الأحيان تحرم تصدير السلاح، والحديد، والخمر، والزيت، والحبوب. وكانت تفرض على معظم الغلات التي تدخل روما عوائد جمركية تقدر عادة باثنين ونصف في المائة من قيمتها، ثم امتدت هذه الضريبة القليلة فيما بعد إلى غيرها من المدن، وظلت حتى عام ١٤٧ ق.م تفرض ضريبة على الأملاك (tributum) في جميع أنحاء إيطاليا. ويمكن القول بوجه عام إن إيرادات الدولة لم تكن كثيرة وإن أهم ما كانت تستخدم فيه هو نفقات الحرب، شأنها في هذا شأن غيرها من الدول المتحضرة.

* ملامح المدنية :

أصبحت روما في عام ٢٠٢ ق.م. من كبريات المدن الواقعة على البحر الأبيض المتوسط. بفضل ما كان يدخل خزائنها من الضرائب والغرامات التي تفرضها على أعدائها، وبفضل من كان يفد إليها من الخلائق ليسكنوا فيها. وقد سجل فيها الإحصاء الذي أجرى في عام ٢٣٤ ق.م ٢٧٠.٧١٣ من المواطنين-

أي من الذكور الراشدين الأحرار. ثم نقص هذا العدد نقصاً فجائياً خلال الحرب الكبرى، ولكنه ارتفع في عام ١٨٩ ق.م إلى ٢٥٨.٣١٨ والى ٣٢٢.٠٠٠ في عام ١٤٧ ق.م ، وفي وسعنا أن نقدر سكان دولة المدينة في عام ١٨٩ ق.م بما يقرب من ١.١٠٠.٠٠٠، ولربما كان ٢٧٥.٠٠٠ من هؤلاء يسكنون داخل أسوار روما. وكان في إيطاليا جنوب الروبيكون Rubicon نحو ٥.٠٠٠.٠٠٠ من السكان. وكانت الهجرة وامتصاص الشعوب المغلوبة، وتدفق السكان، وتحرير الأرقاء ومنحهم الحقوق السياسية- كانت هذه العوامل كلها قد أخذت تحدث في روما تلك التغيرات العبقرية التي جعلتها في عهد نيرون نيويورك الزمن القديم، نصف سكانها من البلاد الأصليين والنصف الآخر خليط من كافة الأجناس. وكان في المدينة شارعان رئيسيان متقاطعان يقسمانها إلى أحياء منفصلة، لكل منها موظفوه الإداريون وأربابه الواقون.

وقد شيدت إلى آلهة ملتقى الطرق Lares Compitales معابد عند ملتقى الطرق الهامة وأقيمت لها تماثيل عند ملتقى الطرق الأقل من هذه أهمية- وهي عادة لطيفة لا تزال متبعة في إيطاليا. وكانت معظم الطرق بحالها الطبيعية، وكان بعضها مرصوفاً بحجارة ملساء مستخرجة من أقواع الأنهار ككثير من مدن البحر الأبيض المتوسط في هذه الأيام. وقد دامت هذه الحال حتى شرع الرقيب حوالي عام ١٧٤ ق.م يغطي أرض الشوارع الكبرى بكتل من الحمم البركانية. وقد بنى أبيوس كلوديوس الأعمى في عام ٣١٢ ق.م أولى القنوات المعروشة لجر المياه العذبة إلى المدينة التي ظلت حتى ذلك الوقت تعتمد على العيون والآبار ومياه التيبر العكرة. وأقام الأشراف صهاريج تستمد الماء من هذه القنوات، ومدت منها الأنابيب في بيوتهم، وركبت عليها الصنابير، فاستطاع الأشراف أن يستحموا

يمائها أكثر من مرة في الأسبوع؛ ثم افتتحت روما حماماتها الأولى التابعة للبلدية بعد هزيمة هنيبال بزمن قليل. وشيد المهندسون الرومان أو التسكان في وقت غير معروف المجرى الأكبر Cloaca Maxima لنقل مياهها القذرة، وقد بلغت العقود الحجرية الضخمة لهذا المجرى درجة من الاتساع تسمح بمرور عربة محملة بالدريس من تحتها. ثم أنشئت مجاري صغرى لصرف مياه المناقع التي كانت تحيط بروما وتغير عليها في بعض الأوقات. وكانت مياه الأمطار والمياه القذرة تجري من فتحات في الشوارع إلى هذه المصارف، ثم تنتقل منها إلى نهر التيبر. وقد ظلت مياهه الملوثة مشكلة المشاكل في الحياة الرومانية.

◄ المعابد :

وربما كانت المعابد هي مظاهر الزينة الوحيدة التي كانت في المدينة. ذلك أن البيوت ظلت مستمسكة بالطراز التسكاني البسيط الذي وصفناه من قبل، لا يفترق عنه إلا في شيء واحد وهو أن جدرانها الخارجية كانت تبنى في الغالب من الآجر أو تطلى بمسحوق الجبس الناعم؛ وكثيراً ما كانت هذه الجدران تشوه بما يخدش عليها من الشعر أو النثر في ذكر حادث من الحوادث التافهة التي لا يلبث الناس أن ينسوها بعد وقوعها. ولم يكونوا يقصدون بكتابتها إلا أن يدلوا على ازدياد نسبة من يعرفون منهم القراءة والكتابة. وكانت الهياكل تبنى في الغالب من الخشب، وكانت واجهاتها وزينتها من الطين المحروق، وكان طرازها هو الطراز التسكاني. وقد أقيمت على تل الكبتولين هياكل لـ(جوبتر، ويونو، ومنيرفا)، وأقيم هيكل آخر لـ(ديانا) على الأفنتين Aventine، وأقيمت هياكل غيرها قبل عام ٢٠١ ق.م لـ(يونو، والمريخ، ويانوس Janus ، والزهرة، وللنصر، والحظ السعيد، والأمل وما إليها). وفي عام ٣٠٣ ق.م أضاف كيوس فابيوس إلى اسم عشيرته

لقب بكتور Pictor أي المصور، وذلك لأنه عمل مظلمات في هيكل الصحة القائم على الكبتولين.

وأقام المثالون اليونان في روما تماثيل للآلهة الرومانية والأبطال الرومانيين من الآجر، والرخام، والبرنز؛ وقد أقاموا في عام ٢٩٣ ق.م على الكيتول تمثالاً لجوبتر بلغ من ضخامته أن كان يراه الواقف عند تلال ألبان Alban التي تبعد عنه عشرين ميلاً. وفي عام ٢٩٦ ق.م أقام الأيديلون (الموظفون الرومان المشرفون على المباني العامة والألعاب وغيرها) تمثالاً من البرنز لذائبة أضاف إليه الفنانون فيما بعد صورتين لـ(رميولوس وريموس). ولسنا نعرف أهذه هي المجموعة التي جاء وصفها على لسان شيشرون أم أنها مجموعة أخرى، وإن لم تكن فهل هذه أو تلك هي بعينها (ذئبة الكيتول) التي لا تزال باقية إلى هذا اليوم. ومهما يكن من شيء فإن هذا التمثال الأخير آية فنية أوفت على الغاية في الإتقان، فهي تمثال من الجماد ينبض بالحياة في كل عضلة من عضلاته وكل عصب من أعصابه.

الموسيقى :

وبينما كان الأشراف يخلدون انتصارهم ويمتدحون أسلافهم كان العامة يتأسون بسماع الموسيقي، وبالرقص، والمسرحيات المضحكة، والألعاب. وكانت طرقات إيطاليا وبيوتها تردد أصداء الأغاني الفردية والجماعية، فكان الرجال يغنون في المآدب والأولاد والبنات يرددون الترانيم في المواكب الدينية، وكانت حفلات الزواج لا تخلو قط من الأناشيد كما كانت الأغاني تصحب جنازات الأموات. وكان المزمار أكثر آلات الطرب شيوعاً ولكن القيثارة أيضاً كان لها من يهواها حتى أضحت الآلة المحبوبة التي ينشد على نغماتها الشعر الغنائي.

الأعياد الرومانية :

وكان الرومان في أيام الأعياد الكبرى يجتمعون في المدرجات وساحات اللعب يكتوون بنار الشمس، بينا كان المستأجرون والأسرى والمجرمون والأرقاء يعدون أو يقفزون أو يقتلون ويموتون. وكان الاقتتال والموت أحب إلى الجماهير من العدو والقفز. وكان في المدينة مدرجان كبيران هما الساحة الكبرى (ويقال إن الذي أنشأها هو تاركوين الأول) وساحة فلامينوس ٢٢١ ق.م- وكان يدخلهما من غير أجر كل من يصل إليهما من الرجال والنساء في الوقت الذي يمكنهم من أن يجدوا فيهما مكاناً. وكانت الدولة في بادئ الأمر هي التي تتكفل بالإنفاق على الملعبين، ثم تكفل بهما بعدئذ الإيديلون، أما في العهد المتأخر من حياة الجمهورية فكان ينفق عليهما المرشحون لمنصب القناصل؛ وأخذت هذه النفقات تزداد جيلاً بعد جيل حتى أضحت في واقع الأمر سداً منيعاً يحول بين الفقراء وبين التقدم لمناصب القناصل.

ولعل من واجبنا أن نضم إلى هذه الألعاب (حفلات النصر) التي كانت تقام للقواد العائدين من ميادين القتال. ولم تكن هذه الحفلات تقام إلا لمن انتصروا منهم في حرب قتل فيها من الأعداء خمسة آلاف أو يزيدون. أما القائد المنحوس الذي انتصر ولكنه لم يقتل من أعدائه هذا العدد كله فلم يكن يلقى هذا النوع من الترحيب، ولم يكن يضحي له بثور بل بـ (شاة OVIS) .

وكان الناس ينتظمون في الموكب خارج المدينة، وكان يطلب إلى القائد هو وجنوده عند حدودها أن يلقوا أسلحتهم، ثم يدخلها الموكب من تحت قوس نصر، اتخذ فيما بعد طرازاً لعشرات المئات من الآثار. وكان النافخون في الأبواق يتقدمون الموكب، ثم تأتي من بعدهم أبراج أو أرماث تمثل المدن التي استولى

عليها، وصور تدل على ما قام به المنتصرون من أعمال البطولة. ثم تكركر من بعدها عربات مثقلة بالذهب والفضة، ومنتجات الفن وغيرها من الأسلاب.

وقد اشتهر موكب النصر الذي أقيم لمرسلس بما كان فيه من التماثيل المسروقة من سرقوسة ٢١٢ ؛ وعرض سبيو الإفريقي في عام ٢٠٧ ق.م أربعة عشر ألف رطل من الفضة، وفي عام ٢٠٢ ق.م مائة وثلاثة وعشرين رطلاً استولى عليها في أسبانيا وقرطاجنة، وتبعها سبعون ثوراً أبيض تسير إلى مصرعها سير الفلاسفة، ومن ورائها زعماء العدو المأسورون ثم الجلادون، والضاربون على القيثار، والزمارون، وحاملو آنية البخور. ومن بعد هؤلاء كلهم يمر القائد نفسه في عربة زاهية مزينة ويلبس جبة أرجوانية، وعلى رأسه تاج من الذهب، وفي يده صولجان من العاج وغصن من شجر الغار، وهما رمز النصر، وشعار جوف jove . وكان يركب معه في العربة أحياناً أبناؤه، ويركب في عربة تسير بجوارها أقاربه؛ ثم يأتي من خلفهم أمناء سره من المدنيين والعسكريين. ويأتي في آخر الموكب الجنود يحمل بعضهم ما نالوه من الأعطية، وعلى رأس كل منهم تاج، يمتدحون قوادهم، وبعضهم يسخرون منهم. ذلك أن التقاليد المرعية التي لا يمكن خرقها كانت تترك للجنود في هذه الفترات القصيرة كامل الحرية في أن ينطقوا بما يريدون أن ينطقوا به دون أن يعاقبوا عليه، وذلك لكي يذكروا المنتصرين المزهوين بنصرهم أنهم كسائر الناس معرضون للأخطاء. وكان القائد يصعد الكبتول إلى هياكل جوبتر، ويونو، ومنيرفا، ويضع قدمه عند أقدام الآلهة، ويضحي بحيوان ما؛ وكان يأمر عادة بأن يذبح الزعماء من الأسرى مبالغة في شكر الآلهة. وكان هذا الموكب منظماً تنظيماً يثير في النفس المطامع العسكرية، ويجزي القواد والجند أحسن الجزاء على جهودهم الحربية؛ ذلك أن زهو الإنسان لا يخضعان إلا للجوع والحب.

بعد الموت :

لقد كانت الحرب أروع النواحي الروائية في حياة الرجل الروماني، ولكنها لم يكن لها ذلك الشأن الخطير الذي تحدثنا عنه صحف المؤرخين الرومان. ولعل حياة الرومان كانت تدور كلها حول أسرته وبيته أكثر مما تدور حولهما حياة الرجل من في هذه الأيام. وكانت أخبار العالم لا تصل إليه إلا متأخرة، ومن أجل هذا لم يكن ما يتجمع في العالم من اضطراب يستثير عواطفه في كل يوم، ولم تكن الحوادث العظمى التي تمر به في حياته هي السياسة والحرب، بل كان أهم ما يعنى به مولد الأطفال وحفلات الزواج وأخبار الموت المحزنة. ولم يكن كبير السن تلازمه تلك الوحشة والهجران اللذان ينغصان على الكبار حياتهم في العصور التي تشيع فيها الفردية. ذلك أن الصغار كانوا يرون أن من الفروض الواجبة عليهم أن يعنوا بالكبار، وقد ظل هؤلاء إلى آخر عهود الجمهورية أجدر الناس بالرعاية وأعظمهم سلطاناً، وكانت قبورهم بعد وفاتهم مواضع التكريم ما دام لهم أبناء أو أحفاد على قيد الحياة.

ولم تكن الجنائز تقل فخامة وتعظيماً عن مواكب الأفراح، فكان يسير في طليعتها جماعة من النادبات المأجورات، فلما تغالين في عويلهن وهوسهن قيد هذا الغالي بنص في الألواح الاثني عشر يحرم عليهن اقتلاع شعرهن. ويتلو هؤلاء النسوة الزمارون وقد حدد القانون عددهم باثني عشر، ثم الراقصون يمثل الميت واحد منهم. ويأتي من بعد هؤلاء عرض عجيب لجماعة من الممثلين يلبسون أقنعة الموت أو وجوهاً من الشمع في صور آباء الميت الذين شغلوا مناصب ذات شأن في الدولة. ثم تتلو هؤلاء جميعاً جثة الميت محوطة بمظاهر تبلغ من الفخامة ما يبلغه موكب القائد المنتصر، وعليها كامل اللباس المخصص لأعظم منصب شغله

صاحبها في حياته، وكانت توضع في نعش بسطت عليه أغطية مطرزة باللونين الأرجواني والذهبي، ومن حولها الأسلحة والدروع التي غنمها ممن قتلهم من الأعداء. ويسير خلف النعش أبناء المتوفى وعليهم أثواب وأقنعة سوداء، وبناته سافرات، وأقاربه وأبناء عشيرته وأصدقاؤه ومواليه وعبيده. فإذا وصلت الجنازة إلى السوق العامة وقفت ورثى الميت أحد أبنائه أو أقاربه. لقد كانت الحياة في تلك الأيام خليقة بأن يحياها الإنسان ولو لم ينل منها إلا هذا التكريم بعد الوفاة.

وكان الموتى من أهل روما في القرون الأولى من حياتها يحرقون، ثم جرت العادة بعدئذ بأن يدفنوا وإن كان بعض المحافظين من أبنائها ظلوا يفضلون إحراق موتاهم. وسواء اتبعت هذه السنة أو تلك فقد كانت بقايا الميت تدفن في قبر أضحى فيما بعد مزاراً ومكاناً للعبادة، كان الأتقياء من أبناء الميت وأحفاده يضعون عليه من حين إلى حين طاقات الزهر وقليلاً من الطعام. وكان لعبادة الأسلاف والاعتقاد بأن أرواحهم تحيا في مكان ما وترقب الأحياء أكبر الأثر في استقرار الأخلاق والمجتمع الروماني، كما كان لهما نفس الأثر في بلاد اليونان والشرق الأقصى. وكان الموتى حسب الأساطير الرومانية التي اصطبغت بالصبغة الهلينية ينتقلون إلى جنات النعيم أو إلى جزائر المقيمين؛ على أنهم كلهم تقريباً كانوا ينزلون إلى الأرض ليستقروا في مملكة الأشباح التي يسيطر عليها أوركوس Orcus وبلوتون Pluto . وكان ثانيهما– وهو الصورة اليونانية للإله هيديز Hades اليوناني– يحمل في يده مطرقة يضرب بها الميت حتى يغيب عن وعيه.

أما أوركوس (وهو الاسم الذي اشتقت منه الكلمة الإنجليزية ogre أي الغول) فكان هو الهولة التي تلتهم جثة الميت بعدئذ. وإذ كان بلوتو أعظم الأرباب في باطن الأرض وأعلاها مقاماً، وإذ كانت الأرض هي المورد الأخير للثروة؛ وهي

في كثير من الأحيان مستودع ما يتجمع من الطعام والسلع، فقد كان بلوتو يعبد أيضاً على أنه إله الثروة والأثرياء، وأضحت زوجته- برسبرينا Prosperpina الضالة- ابنة سيريز Ceres إلهة الحب النامي. وكان الرومان يتمثلون الجحيم في بعض الأحيان على أنها موضع العقاب ، وكانوا يصورونها في الأغلب الأعم على أنها مسكن الأشباح النصف المجردة التي كانت في حياتها رجالاً لا يمتاز بعضهم عن بعض بثواب أو عقاب بل يعانون كلهم على السواء عذاب الظلام الأبدي والنسيان النهائي. وكما يقول لوسيان Lucian: "هنالك يجد الإنسان في آخر الأمر الديمقراطية المنشودة".

الفصل الثاني

الإمبراطورية الرومانية

هي المرحلة التي تلت الجمهورية الرومانية التي حكمت روما، فهي تطور للحكم السياسي لروما، وقد تميزت مرحلة الحكم الإمبراطوري لروما في تلك الفترة بالحكم الاستبدادي، وقد خلف الحكم الإمبراطوري بعد ٥٠٠ عام من الحكم الجمهوري لروما والذي استمر من ٥٠٩ ق.م إلى القرن الأول قبل الميلاد. حيث كان سبب ضعفه هو النزاع بين جايوس ماريوس وسولا والحرب الأهلية من يوليوس قيصر ضد بومبي.

في الواقع ليس هناك تاريخ محدد يبين انتقال روما من الجمهورية إلى الإمبراطورية، ولكن يمكن اعتبار بداية الإمبراطورية الرومانية من بداية تعيين يوليوس قيصر دكتاتوراً دائماً لروما سنة ٤٤ق.م ، في المرحلة التي انتصر فيها أوكتافيان وريث يوليوس قيصر في معركة أكتيوم، وكذلك منح مجلس الشيوخ الروماني لأوكتافيان عبارات التعظيم وتلقيبه (أغسطس العظيم) في ١٦ يونيو ٢٧ ق .م.

وبعد قيام الإمبراطورية بلغت روما قمت التطور وابدعت في كافة المجالات وفي المجال العلمي الذي ورثته من الإمبراطورية الرومانية، وحكم اباطرة الروم شعبهم بعدل بالرغم من وجود بعض الأباطرة الفاسدين، وقاموا بانشاء بنية تحتية عظيمة وبنوا شبكات الري العملاقة التي اوصلت الماء إلى كافة مزارع الإمبراطورية وبنيت القناطر وشبكات الطرق المعبدة التي يسرت النقل وجعلت من

روما إمبراطورية عظيمة بحق وبلغوا القمة في المجالات العلمية الثقافية وبرعوا بالرياضيات والفلك والكثيرمن المجالات متفوقين على غيرهم من الحضارات آن ذاك.

ومن أجل الترفيه على شعبهم والتحكم به قاموا ببناء الكولوسيوم الصرح العظيم الذي وقعت في ساحته المعارك الدموية، لم يكن الكولوسيوم فحسب أداة للترفيه بل كان رمز لسيطرة روما للعالم آن ذاك حيث أخذوا أسرى أعداءهم من الفرس والقوط وتم إعدامهم أو جعلهم في معارك دموية ضد المصارعين المشهورين بالجلاديوترز أو الجلادين أو أكثر الحيوانات إفتراساً وتوحشاً التي جلبت من أنحاء العالم ووضعت في ساحته العظيمة كالنمور والأسود والفيلة والدببة وغيرها من الحيوانات المفترسة، حتى أنهم قاموا بغمر الساحة بالماء وجعلها ساحة معركة بحرية كبيرة .

وقد اشتهرت جيوشهم بالمقاليع والمنجنيقات العملاقة والوحدات الشهيرة باسم ligeone، وحكم جيشها كافة أوروبا وشمال افريقيا والشام والعراق ساحقاً جيوش الجرمان والفرس ووصلت روما إلى أقصى عظمتها في عهد تراجان فوصلت من بريتانيا (بريطانيا الآن) شمالاً إلى قرطاجة جنوباً ومن أسبانيا وبلاد الغال غرباً إلى العراق وآسيا الصغرى شرقاً، لكن للأسف لم تدم عظمة روما طويلاً فوقعت في حفرة الفساد وانشغلت جيوشها بالحروب الأهلية فاستغل الفرس ذلك حتى وصلوا إلى مصر واستعادوا العراق بل أنهم وصلو إلى أرمينيا وكذلك الجرمان فحرروا بريتانيا ثم فرنسا ومنشأهم جرمانيا حتى أنهم حكموا أسبانيا. بلغت روما حداً عظيماً من الفساد إلى أن انقسمت قسمين. ونتيجة للانقسام ضعفت روما أكثر حتى أن القسم الغربي قد انهار تماماً أمام القوط.

كانت شبه الجزيرة الإيطاليه تحوي روما المدينة العظيمة منشأ الإمبراطورية في القسم الغربي وعند سقوطها أمام القوط (الجرمان) عانت روما من الدمار والخراب فدمرت هياكلها وطرقها وجسورها وأحرقت مزارعها. وأراد القوط هدم الكولوسيوم لكن لشدة عظمته وتماسكه لم يستطيعوا غير هدم جزء بسيط منه .

إنهيار روما أثر بشكل كبير جداً على ما تبقى من الروم في الشرق إلى أن أتى قسطنطين الأعظم الذي أعاد عظمة الإمبراطورية بالرغم من أن روما انهارت وذلك كان بتغيير الدين الروماني من عبادة الأوثان والآلهة إلى المسيحية. واتخذ من القسطنطينية التي سميت باسمه عاصمة لها وأعلن تغيير اسمها من الإمبراطورية الرومانية الشرقية إلى الإمبراطورية البيزنطية .

* تأسيس مدينة روما التاريخية :

هو حدثٌ تاريخي هام لا زال قيد الدراسة، ليس هناك وثائق أو إثباتات تاريخية تحدد مجيء الرومان إلى شبه الجزيرة الإيطالية وتأسيسهم مدينة روما وإنما يعتمد المؤرخون على مجموعة من الأساطير والروايات التي تناقلها الأشخاص الذين درسوا التاريخ القديم على مر العصور حيث تنقسم المعلومات المتاحة عنه إلى أساطير شديدة القدم وأبحاثٍ آثاريَّة حديثة. رغم قدم الأساطير المدوَّنة عن تأسيس روما الأوَّل، إلا أنَّ أقدمها كتبت بعد مئات السنين من ظهور المدينة الفعليّ، ولذلك فإنَّ الاعتماد عليها غير ممكن، أما المسوحات الآثارية فإن نتائجها تتغيَّر باستمرار مع حدوث الاكتشافات الجديدة.

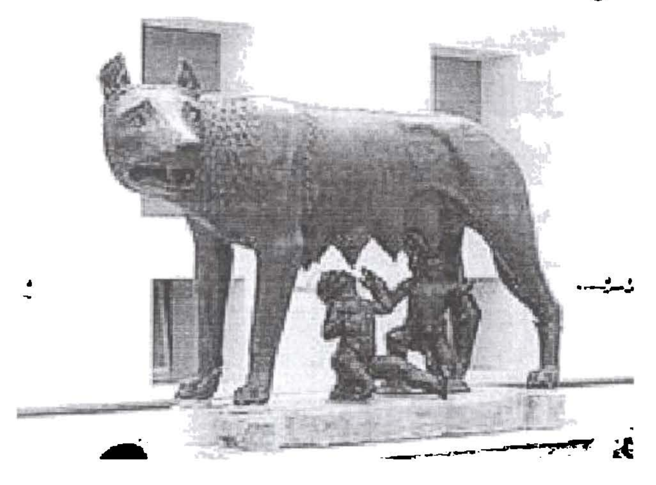
اختلق الرومان حكاية أسطوريَّة طويلة ومعقَّدة عن أصل مدينتهم، واتحدت هذه الحكاية مع كتابات ليفيوس وأشعار ورغيليوس وأوفيد التي أُلِّفت خلال عهد الإمبراطور أغسطس .وقد جرى تدريجياً دمج هذه النصوص القديمة معاً وتحويلها

إلى أسطورة موحَّدة أكثر تفصيلاً. تعتمد بحوث المؤرخين والآثاريِّين الحديثة في جانبٍ منها على تلك الأسطورة القديمة وعلى مصادر مكتوبة أخرى، كما أنها تعتمد على ما اكتشف خلال المسوحات الأثرية الكثيرة من آثار قديمة، وهي لا زالت تحاول إعادة بناء الأحداث الحقيقيَّة لتأسيس روما، وحسبما تظهر هذه البحوث والدراسات فإنَّ جزءاً ما من أسطورة تأسيس المدينة يحمل أصلاً من الحقيقة. لفترةٍ طويلة كان يفترض أن المؤسِّسين الحقيقيِّين لمدينة روما هما قوم الإتروسكانيين، الذين كانوا قد استقرُّوا في المنطقة المجاورة منذ القرن السادس قبل الميلاد، إلا أنَّ الدلائل الأثرية المكتشفة حديثاً تشكِّك بمدى صحَّة هذا الافتراض. إن التاريخ الدقيق لتأسيس مدينة روما لا زال مجهولاً، لكن بعض الباحثين – مثل تم كورنل – يعتقدون أنَّه كان في حوالي القرن الثامن قبل الميلاد، ويزعم المؤرخ (ماركوس تيرينتيوس فارفو) الذي عاش خلال عهد الإمبراطور الأول أغسطس: (١١٦ – ٢٧) ق.م أنَّ تاريخ تأسيس المدينة هو ٢١ أبريل سنة ٧٥٣ ق.م ، معتمداً في هذا التاريخ على مُنجّم روماني عاش في زمنه اسمه لوسيوس تاروتيوس فرمانوس.

ثمَّة نقطة جدلية أخرى في تاريخ روما المبكِّر، هو أصل اسمها. فرغم أنَّ الحكاية الأسطورية تُرجِعه إلى اسم مؤسس المدينة 'رومولوس'، إلا أنَّ العديد من الباحثين حالياً يرجعونه إلى أصولٍ أخرى..

تحدثنا الأسطورة عن وقائع تأسيس القرية الصغيرة أنه كان حول النزاع الأول بين الأخوين روميلوس وريموس حول تأسيس مدينة روما والنزاع الثاني القائم بين رية سلفا وأبيها ايمليوس حول مصير الطفلين فقامت الأم برمي التوأمين في نهر التيبر، ويروى كذلك أن التوأمين قد رضعا الذئبة لمدة تزيد عن أسبوع. ثم عثر

عليهما راعي كان يرعى بالمنطقة ونقلهما مباشرة إلى زوجته حيث قاما بتربيتهما حتى بلغا السن ١٨ عاماً .



حسب أسطورة تأسيس روما، كانت هذه الذئبة الرمادية هي من رعى وأطعم التوأمين رومولوس وريموس في طفولتهما، واللّذين أنشأ فيما بعد مدينة روما. لذلك فإنّ رسومات وتماثيل هذه الذئبة هي أكثر تمثيل معروف لحدث تأسيس المدينة.



عملة أوريوس لأغسطس، أول إمبراطور روماني

وقد سُميت روما نسبة إلى مؤسسها روميلوس الذي نصب نفسه ملكاً عليها كأول ملك على روما والمناطق المحيطة بها، وأسس بذلك سلسلة من الملوك، بلغ عددهم سبعة حكموا روما. وتشير الروايات إلى أن روميلوس ركز خلال تأسيس الدولة على النواحي العسكرية وقد وضع إستراتيجية تتلخص في الآتي: - السيطرة على الأراضي المحيطة بروما.

- أرسى القواعد الأولى للشرائع والديانة الرومانية.
- التوسع والسيطرة على الأقاليم القريبة والمجاورة.

* الموقع والتاريخ :

كان أول سُكَّان منطقة روما الحالية من اللاتين والسابينيين، وهم أقوام (هندو-أوروبيّة) دخلت شبه الجزيرة الإيطالية قادمةً شمالاً من وسط أوروبا على دفعاتٍ متتالية خلال الألف الثاني قبل الميلاد. قطنت هذه القبائل المهاجرة منطقةً من جنوب ولاية لاتسيو عُرِفت باسم Latin Vetusnt .

اختلفت القبائل المهاجرة إلى المنطقة في أصولها العرقيّة ولغاتها وتقاليدها ولذلك قطنت أقاليم مختلفة وعاشت بشيء من الانعزال عن بعضها بعضاً، لكن مع انتشارها عبر أنحاء إيطاليا المختلفة، بدأت هذه القبائل بالاحتكاك مع شعبين قطنا المنطقة بتلك الفترة، هم الإغريق والإتروسكانيُّون . استقرَّ ثانيهما - الإتروسكانيون - في موقع شمال مدينة روما الحالية (يشمل أجزاءً من ولايات لاتسيو وتوسكانا وأومبريا الحديثة)، وبنوا هناك حضارةً مزدهرة، فبحلول القرن الثامن قبل الميلاد كانوا قد أسسوا العديد من المدن المعروفة مثل: تاركوينيا وفيوس وفولتيرا. رغم ذلك، فإنَّ أصول الحضارة الإتروسكانية لا زالت مجهولة، وكلُّ ما هو معروفٌ عنهم مستمد من الدلائل الأثرية التي اكتشفت في مدنهم الجنائزيّة (Necropolis).

من جهةٍ أخرى كان الإغريق بدورهم قد بدأوا يستقرُّون في إيطاليا خلال الفترة ذاتها، فأسَّسوا المستعمرات المعروفة باسم ماغنا غراسيا أو اليونان العظيمة بين سنتي ٧٥٠ و ٥٥٠ ق.م .

نشأت مدينة روما في أول أمرها على الضفَّة الشرقية من نهر التيبر، على مسافة نحو ٤٠ كيلومتر من مصبِّه، وقد كان هذا الامتداد من النهر صالحاً للملاحة، ممَّا أعطى سكانها منفذاً سهلاً لبلوغ البحر التيراني. كان مناخ المنطقة معتدلاً بالنظر إلى طبيعتها الجبليَّة كثيرة التضاريس. وقد وفَّرت الأودية المحيطة بها مواقع استيطان أوليَّة مهمَّة لسكانها الأوائل، فقد امتازت هذه الأودية بتربتها البركانية شديدة الخصوبة، حيث كانت غنيَّة بالعديد من الأسمدة الطبيعيَّة مثل البوتاسيوم والفوسفات، وساعدَ ذلك كلُّه على ازدهار المستوطنات الأولى فيها . امتاز موقع المدينة بإطلاله على الماء واليابسة في الآن ذاته، حيث وفَّر لها موقعها على مسافة ٢٠ كيلومتراً من جبال ألبان دفاعاً طبيعياً ضدَّ الغزاة من البر، وفي الوقت نفسه كانت بعيدةً كفاية عن البحر لتأمن خطر غارات القراصنة. وأخيراً، كان نهر التيبر نفسه (مع جزيرة التيبر) وهضبتي كابيتولين وبالاتين عبارة عن قلعة طبيعيَّة جعلت الدفاع عن روما بالغ السُّهولة .

* المدن :

فلنقف قليلاً عند هذا المجد المزعزع ونحاول أن ندرك أن الإمبراطورية كانت أعظم شأناً من مدينة روما؛ ذلك أننا قد أطلقنا الوقوف عند هذا المنظر الباهر الذي استحوذ على عقول المؤرخين كما خلب ألباب سكان الولايات، لكن الواقع الذي لا مناص من الاعتراف به أن حيوية الدولة العظيمة لم يعد مقرها في عاصمتها الفاسدة المحتضرة؛ بل إن ما بقي لهذه الدولة من قوة وحيوية، وكثيراً مما

كان فيها من جمال، ومعظم ما كانت تحتويه من نشاط عقلي؛ إن هذا كله كان في الولايات وفي إيطاليا؛ ومن أجل هذا فلن نستطيع أن نكوّن لأنفسنا فكرة صحيحة عن روما، وعما قامت به من جلائل الأعمال في الإدارة والسلم، حتى نترك العاصمة نفسها ونطوف بالمدائن الألف التي كان يتكوّن منها العلم الروماني.

قال بلني الأكبر لما أن بدأ يصف إيطاليا: "ترى كيف أبدأ هذا العمل؟ ألا ما أكثر ما هنالك من بلدان!– ومن ذا الذي يستطيع أن يحصيها كلها؟ وما أعظم شهرة كل بلد بمفرده!". لقد كان حول روما وجنوبها إقليم لاتيوم، الذي كان في بادئ الأمر أمها، ثم صار عدوها، ثم جنة من الضواحي والقصور يقيم فيها الرومان أصحاب المال والذوق السليم، وكان إلى جنوب العاصمة وغربيها نهر التمبر وطرق برية صالحة تربطها بالمرفأين المنافسين لها وهما بورتس Portus وأستيا على البحر الترهيني .وقد وصلت أستيا إلى أوج عزها في القرنين الثاني والثالث من التاريخ الميلادي، فكانت شوارعها غاصة بالتجار وصائدي السمك، ودور تمثيلها مزدحمة بهم. وكانت بيوتها ومساكنها ذات الشقق الكثيرة شبيهة كل الشبه بأمثالها في روما الحارة، وقد تحدث عنها سائح من فلورنس في القرن الخامس عشر حديث المعجب بثروتها وزينتها العظيمة. وتدل بعض الأعمال الباقية منها إلى اليوم، ويدل أحد المذابح البديع التصميم والذي نقشت عليه أزهار جميلة دقيقة، على أن سكانها التجار أنفسهم كانوا يدركون معنى الجمال الحق.

وكان إلى جنوبي أستيا على شاطئ البحر مدينة انتيوم Antium (أنزيو Onzio) حيث كان لأغنى الرومان ولكثير من الأباطرة وللمحبوبين من الآلهة قصور وهياكل تمتد إلى شاطئ البحر الأبي لتستقبل ما يسري فيه من نسيم عليل. وقد وجدت في خرائبها التي تمتد نحو ثلاثة أميال تماثيل ذات روعة وجمال، منها

تمثال المجالد البرغيزي وتمثال أباو بلفادير. وبالقرب منهما أثر باقٍ إلى اليوم كان يذكر (المواطنين العظام) الذين مضى عليهم الآن ثلاثة عشر قرناً من الزمان أنهم كانوا من عهد قريب يستمتعون برؤية أحد عشر مجالداً يموتون وهم يقاتلون عشرة دبية ضارية. وكان إلى شماليها ومن وراء التلال الساحلية مدينة أكوينم مسقط رأس جوفنال وأربينم Arpinum التي كانت تفخر بابنيها ماريوس وشيشرون.

وعلى بعد عشرين ميلاً من روما كانت تقوم مدينة برانستي Praeneste القديمة (بالسترينا القديمة Palestrina)، وكانت بيوتها الجميلة مشيدة على شرفات مدرجة على سفوح الجبل؛ وحدائقها تشتهر بورودها، وقمة جبلها يتوجها هيكل ذائع الصيت للإلهة فورتونا بريمجينيا Fortuna Primigenia التي كانت تحيط النساء برعايتها وقت المخاض، وتنال منهن المال نظير ما تنطق به من النبوءات. وكانت تسوكيولم Tusculum التي تبعد عشرة أميال عن روما غنية مثلها بالحدائق والقصور، وفيها وُلد كاتو الكبير، واحتفظ شيشرون بكتابه (المجادلات التسكيولاتية)، وكانت أعظم ضواحي روما شهرة ضاحية تيبور (ترفولي) التي مد إليها هدريان قصره الريفي والتي قضت فيها زنوبيا ملكة تدمرسني أسرها.

وإلى شمال روما تقع إتروريا التي بُعثت في عهد الزعامة بعثاً جديداً متواضعاً، وفيها بلدة بروزيا Perusia التي خرّب أغسطس معظمها وجدد بناء بعضها، وجمّل فنانوه فيها قوساً تسكانياً قديماً وأنجبت أريتيوم Arretium ميساس Maecenas وبعثت به إلى روما، وأخرجت خزفاً للعالم القديم، وكانت مدينة بيسي Pisae في ذلك الوقت قد عمرت طويلاً، وتعزو هذه المدينة اسمها

ومنشأها إلى جماعة من المستعمرين اليونان جاءوا من بيزا Pisa في البلوبونيز وكانوا يكسبون عيشهم فيها بنقل الخشب في نهر أرنس Arnus .

وقامت على هذا النهر نفسه على مسافة من هذه المدينة في اتجاه منبعه مستعمرة رومانية ناشئة تدعى فلورنتيا Florentia ؛ يندر وجود مثلها بين المدن لأنها في أغلب الظن لم تقدّر مستقبلها حق قدره. وكان إلى الطرف الشمالي الغربي من أتروريا محاجر كرارا Carrara التي كان ينقل أجمل رخام روما إلى ثغر لونا Luna ثم تحمله السفن إلى العاصمة. وكانت جنوي من زمن بعيد هي المرفأ الذي تصدر منه غلات شمالي إيطاليا الغربي. ونسمع من زمن بعيد؛ أي من عام ٢٠٩ ق.م أن القرطاجيين قد دمروا تلك المدينة في حرب تجارية ضروس، وأنها دُمرت بعد ذلك مراراً كثيرة ولكنها كانت في كل مرة تُبعث بعثاً جديداً وتعود أكثر مما كانت رخاءاً وازدهاراً.

وعند قاعدة جبال الألب كانت أوكوستا تورينورم Augusta Taurinorumالتي أنشأها الغاليون التورينيون Touurini Gauls ، والتي جعلها أغسطس مستعمرة رومانية؛ وفي مقدور الإنسان أن يرى الآن أرصفتها ومجاريها القديمة تحت أرض شوارع تورين، وقد بقي فيها من أيام أغسطس باب ضخم يذكرنا بأن المدينة كانت في يوم من الأيام حصناً يصد عن البلاد المغيرين عليها من الشمال. وهنا ينثني نهر بدوا (البو) الكسول الذي ينبع من جبال الألب الكتية Cottian ويجري نحو الشرق مائتي وخمسين ميلاً، ويقسم الجزء الشمالي من إيطاليا قسمين كانا يعرفان في عهد الجمهورية بغالة ما قبل ألبو وغالة ما وراء ألبو. وكان وادي ألبو أخصب أقاليم شبه الجزيرة كلها، وأكثرها سكاناً، وأعظمها رخاءاً.

وكان – عند سفح جبال الألب تلك البحيرات العظيمة – فربانس Verbanus(مجيوري Maggiori)، ولاريوس Larius (كومو Como)، وبانكس Benacus (جاردا Garda)، التي كانت روعتها متعة العين والنفس لتلك الأجيال ولا تزال كذلك لنا نحن في هذه الأيام. وكان يبدأ من كومم – مدينة بلني الأصغر– طريق تجاري رئيسي يتجه جنوباً إلى مديولانم Mediolanum (ميلان). وقد استقر الغاليون في هذه المدينة في القرن الخامس قبل الميلاد، ثم أضحت في أيام فرجيل من الحواضر الكبيرة والمراكز التعليمية الهامة، وقبل أن يحل عام ٢٨٦ق.م صارت عاصمة الإمبراطورية الغربية بدل روما. وكانت فيرونا وقتئذ تسيطر على التجارة التي تعبر ممر برنر Brenner ؛ وقد بلغت من الثراء درجة أمكنتها من أن تنشئ لها مدرجاً (جُدِّدَ حديثاً) يتسع لخمسة وعشرين ألفاً من النظارة. وقامت على نهر ألبو الملتوي مدينة بلاستيا Placentia (بياسنزا الحديثة Piacenza) وكرمونا Cremona ومنتوا Mantua وفرارا Ferrara – وكانت في أول أمرها رباطات على الحدود أقيمت لصد الغاليين.

وكان إقليم فنيشيا يقع شمال نهر ألبو وشرق الأديج Adige . وقد اشتق اسمه من الفنيتي Veneti (المهاجرين الأولين من إليريا Illyria) . ويصف لنا هيرودوت كيف كان زعماء تلك القبائل يجمعون فتيات قراهم اللائي في سن الزواج، ويقدرون لكل فتاة ثمناً يتناسب مع جمالها، ويزوّجونها ممن يؤدي ذلك الثمن، ثم يتخذون تلك المهور بائنة مغرية للفتيات لمن كنّ أقل من هؤلاء جمالاً وفتنة. ولم تكن مدينة البندقية (Venice) قد نشأت بعد، ولكن مدناً كبيرة قامت عند بولا Pola على شبه جزيرة إستريا Istria؛ وترجستي Tergeste (تريستة Trieste) واكويليا Aquileia وبتفيوم Patavium و(بدوا Padua)

تتوج رأس البحر الأدرياوي. وقد بقي في بولا من أيام الرومان قوس نصر ضخم، وهيكل ظريف، ومدرج لا يفوقه في الروعة إلا الأصل الذي بُني على نمطه وهو الكولوسيوم. وكان يمتد إلى جنوب نهر ألبو سلسلة من المدن تبدأ من بلاسنتيا مخترقة بارما، وموتينا (مودينا) وبونونيا Bononia (بولونيا)، وفافنتيا Faventia (فينزي Faenze) وتنتهي عند أرمنيم.

وهنا عند رميني Rimini يقوم جسر من الجسور التي لا حصر لها والتي أقامها المهندسون الرومان. وهو أكثر الجسور احتفاظاً بشكله الكامل القديم. وكان الطريق الفلاميني يمتد على هذا الجسر إلى المدينة مخترقاً قوساً يعادل الخلق الروماني في صلابته وسيطرته. ويتفرع منه طريق فرعي يصل بـ تونيا بـ رفنا (بندقية الأيام الرومانية). وقد شُيّد هذا الطريق على قوائم في المستنقعات التي لوثتها عدة أنهار تصب في البحر الأدرياوي. ويصف استرابون مدينة رافنا "بأن فيها شوارع واسعة مكونة من قناطر ومعدّيات". وقد اتخذها أغسطس مقراً لأسطوله الأدرياوي، واتخذها كثير من الأباطرة مسكناً رسمياً لهم في القرن الخامس. وقد كان تفوق شمالي إيطاليا على سائر أجزائها في خصب التربة، وفي جوه الصحي المنشط الباعث على العمل، وفي موارده المعدنية، وفي صناعاته المختلفة المتنوعة، وتجارته النهرية القليلة النفقة، كان تفوقه في هذا كله مما سما به من الناحية الاقتصادية على وسط إيطاليا في القرن الأول الميلادي ومن ناحية الزعامة السياسية في القرن الثالث.

ولم ينشأ على الساحل الشرقي في جزئه الممتد جنوبي أرمنيم وشمالي برنديزيوم إلا عدد قليل من المدن الهامة، وذلك لأن هذا الساحل صخري كثير العواصف قليل المرافئ. بيد أنه كان في أمبريا Umbria، وبصينم، وسمنيوم،

وأبوليا، بلدان صغرى كثيرة لا يستطاع الحكم على ثرائها وفنها إلا بدراسة أنقاض بومبي، ومن هذه البلدان أسيوم Assisum مسقط رأس بروبرتيوس والقديس فرانسيس؛ ومنها سرسينا Sarsina التي وُلد فيها بلوتس Blautus ؛ وأميترنم Amiternum مسقط رأس سلست Sallust وسلمو Sulmo التي شهدت مولد أوفد، وفنوزيا التي شهدت مولد هوراس. ولم تشتهر بنفنتم بهزيمة برس فحسب بل اشتهرت كذلك بقوس النصر العظيم الذي أقامه فيها تراجان وهدريان. وقد قصّ هدريان في نقوشه الواضحة على هذا العمود قصة أعماله المجيدة في الحرب والسلم. وكانت برتديزيوم القائمة على الساحل الجنوبي الشرقي تشرف على طرق الاتصال في دنماشيا وبلاد اليونان والشرق. وعند (عقب) إيطاليا كانت تقوم مدينة دلماشيا وبلاد اليونان والشرق. وعند (عقب) إيطاليا كانت تقوم مدينة تارنتم، وكانت من قبل دولة – مدينة عزيزة الجانب، ولكنها لم تكن الوقت الذي نتحدث عنه إلا مشتى آخذاً في الاضمحلال لكبار الموظفين والأشراف الرومان. وفي جنوبي إيطاليا استولى أصحاب الضياع الكبيرة على معظم الأراضي وحولوها إلى مراع للماشية؛ ففقدت المدن من كانت تعتمد عليهم من المزارعين، واضمحلت طبقاتها من التجار وارباب الأعمال. وأفل نجم العشائر اليونانية التي كانت تنفق أموالها بسخاء في الأيام السابقة، وذلك بسبب تسرب القبائل الهمجية إليها وبسبب قيام الحرب البونية الثانية. فاضمحل شأنها حتى لم تعد أكثر من بلدان صغيرة أخذت اللغة اللاتينية تحل فيها ببطيء بحل اللغة اليونانية. وفي (اصبع) إيطاليا كانت مدينة رجيوم Rhegium (رجيوم Reggio الحالية) ذات المرفأ الصالح. وقد أثرت هذه المدينة بفضل تجارتها مع صقلية وأفريقية. وعلى الشاطئ الغربي كانت تقوم فيليا Velia ؛ ولعلها لم يكن من السهل عليها أن تذكر أيامها السالفة حين كان اسمها إيليا، وحين كان يتردد في جنباتها أصداء أشعار

برمنيدز وزينون وأقوالهما المتناقضة الخبيثة. وقد بدلت الجالية الرومانية التي استعمرت بوسيدونيا اسم هذه البلدة فجعلته بيستم Paestum ، ولا تزال تدهش زائرها بما فيها من هياكل فخمة. وكان أهلها اليونان في الوقت الذي نتحدث عنه قد أخذوا يذوبون في (الدم البربري) – الإيطالي في هذه المرة – الذي كان ينصب فيها من الريف القريب منها. ولم تبقَ الحضارة اليونانية حية في إيطاليا إلا في كمبانيا.

وكانت كمبانيا – المكونة من الجبال ومن الساحل المحيطين بنابلي – من الناحية الجغرافية جزءاً من سمنيوم. أما من الناحيتين الاقتصادية والثقافية فكانت عالماً مستقلاً بنفسه، لأنها كانت من الوجهة الصناعية أكثر تقدماً من روما، وكانت قوية من الناحية المالية، جمعت في رقعة صغيرة من الأرض حياة مليئة بالاضطرابات السياسية، والمنافسات الأدبية، والازدهار الفني، والألعاب العامة المثيرة. وكانت أرضها خصبة التربة تنتج أحسن الزيتون والكروم في إيطاليا. وكان يصدر منها النبيذ السرنتي Surrentine والفالرني Falernian الذائعا الصيت ولعل فارو Varro كان يفكر في كمبانيا وهو يتحدى العالم بقوله: "يا من ضربتم في أرضين كثيرة، هل رأيتم فيها أرضاً زُرعت أحسن من أرض إيطاليا؟... أليست إيطاليا مليئة بأشجار الفاكهة امتلاء يخيل معه إلى من يراها أنها كلها بستان واحد عظيم؟". وفي طرف كمبانيا الجنوبي شبه جزيرة صخرية وعرة المنحدر تمتد ناتئة في البحر من سالرنم Salernum إلى سرنتمSurrentum . وكانت القصور الصغيرة منبثة بين الكروم والحدائق المغروسة على التلال، كما كانت تقوم بمحاذاة شاطئ البحر. وكانت سرنتم جميلة مثل سرنتو Sorrento في هذه الأيام، وقد لقبها بلني الأكبر بأنها (بهجة الطبيعة) التي حبتها بكل ما لديها من هبات؛ ويبدو

أنه لم يكد يتغيّر فيها شيء في خلال ألفي هام، وأكبر الظن أن أهلها لا يزالون محتفظين بعاداتهم القديمة، وأن آلهتهم في هذه الأيام هي آلهتهم في الأيام الخالية؛ ولا تزال أجراف الصخور تحصر البحر حصاراً لا آخر له.

وكان في مواجهة هذا اللسان البارز في البحر جزيرة كبريا Capraea (كابري Cpri) تلاطمها الأمواج من جميع الجهات. وكان بركان فيزوف المطل على الشاطئ الجنوبي للخليج يرسل دخانه في السماء، بينما كانت بومبي وهركيولانيم ترقدان تحت طبقات الحمم. ثم تلي هاتين المدينتين نيوبوليس Neopolis (المدينة الجديدة) أكثر بلاد إيطاليا اصطباغاً بالصبغة اليونانية في عهد تراجان. وفي وسعنا أن نتبين من كسل نابلي في هذه الأيام مدى انهماكها القديم في الحب واللهو والفن. لقد كان أهلها إيطاليين، ولكن ثقافتهم، وعاداتهم، وألعابهم كانت كلها يونانية. وكان فيها هياكل وقصور، وملاهٍ جميلة؛ وكانت تقام فيها مرة في كل خمس سنين مباريات في الموسيقى والشعر نال أستاتيوس في واحدة منها جائزة. وفي الطرف الغربي من الخليج كان ثغر بتيولي Puteoli (بزيولي Puzzuoli الحديثة) التي إشتُقَّ اسمها من رائحة بركها الكبريتية.

وقد ازدهرت هذه المدينة بفضل تجارة روما وبفضل مصنوعاتها الحديدية، وخزفها، وزجاجها. وكان فيها مدرج تدل ممراته التي تحت الأرض والباقية إلى هذا اليوم على الطريقة التي كان يصل بها المجالدون والوحوش إلى المجلد. وعلى الجانب الآخر من مرفأ بتيولي كانت تتلألأ قصور بايا Baiac التي يزيد بهاءها وجاذبيتها قيامها بين الجبال والبحر. هنا كان يلهو قيصر وكلجيولا ونيرون، وهنا كان الرومان المصابون بداء الرئة يأتون ليستحموا في مياه عيونها المعدنية. وكانت المدينة تجني فوائد كثيرة من اشتهارها بالقمار وبالفساد الخلقي؛ وها هو

ذا ڤارو Varro يقول إن فتياتها كنّ ملكاً مشاعاً، وإن كثيرين من فتياتها كانوا بنات، وكان كلوديوس يرى أن شيشرون قد جلّله عار لا يمحى أبد الدهر لأنه سافر مرة إلى هذه البلدة. ويقول سنكا متسائلاً: "أتظن أن كاتو كانت تحدثه نفسه بأن يقيم في قصر مليء بأسباب اللهو والسرور، يستطيع وهو فيه أن يحصي عدد من يمر به أمام عينه من النساء القاصرات اللاتي يملأن القوارب والسفن الكثيرة الأنواع المطلية بكافة الألوان، والورود التي تتمايل حول البحيرة؟".

وعلى بعد بضعة أميال قليلة شمال بايا، في فوهة بركان خامد، كانت بحيرة أفيرنس Avernus تبعث في الجو دخاناً كبريتياً بلغ من قوته أن وصفته الأساطير بقولها أنه ما من طائر يطير فوقه ويبقى حياً. وكان بالقرب من الكهف الذي شقّ إنياس طريقه السهل إلى الجحيم كما جاء في ملحمة فرجيل.

وفي شمال البحيرة كانت مدينة كومي Cumae القديمة، وقد أخذت تحتضر في ذلك الوقت بعد أن قامت إلى جانبها مدينة نيوبوليس التي كانت أكثر منها جاذبية، ولوجود مرفأين بجوارها أكثر أمناً من مرفئها وهما بتيولي وأستيا، ولتقدم الصناعة في كابوا Capua . وكانت كابوا تبعد عن شاطئ البحر في الداخل نحو خمسين ميلاً وتقوم في إقليم خصيب كان ينتج في بعض الأحيان أربع غلات في العام، ولم يكن في إيطاليا كلها ما يضارع ما فيها من مصانع البرنز والحديد. وقد جازتها روما على مساعدتها هنيبال جزاء أضر بها قرنين من الزمان عجزت فيهما عن أن تفيق من كبوتها، ووصفها شيشرون في خلالها بأنها: "مسكن من ماتوا سياسياً". وظلت كذلك حتى أعادها قيصر إلى سابق عهدها بأن جاء إليها بآلاف من المستعمرين الجدد، وأضحت في أيام تراجان مدينة مزدهرة مرة أخرى.

لقد يبدو لنا أن هذه المدن الكبرى التي كانت قائمة في إيطاليا القديمة والتي سردناها على القارئ سرداً سريعاً ليست أكثر من أسماء. ولأشد ما نخطئ إذ نظنّ أنها مجرد ألفاظ على خريطة، أو لا نحس أنها كانت مساكن صاخبة لرجال مرهفي الحس يجِدُّون في طلب الطعام والشراب والنساء والذهب.

نظام البلديات وحياتها :

ولم تكن الحياة الخاصة والعامة، حياة الأفراد وحياة الجماعات، أحد وأقوى ما كانت في إيطاليا القديمة؛ غير أن حوادث هذه الأيام تبلغ من الخطر ومن استنفاد الجهود حداً لا نستطيع معه أن نولي تفاصيل نظام البلديات في عهد القياصرة كثيراً من عنايتنا، ومن أجل هذا لم تعد نظم الحكم المختلفة المميزة أو الحقوق السياسية المتابعة التي كان الأهلون يعضون عليها بالنواجذ؛ لم تعد هذه أو تلك جزءاً من ذلك الماضي الحي الذي هو موضوع بحثنا ومثار اهتمامنا.

لقد كان من الخصائص الأساسية للإمبراطورية الرومانية تتألف من مجموعة من (دول– المدن) تحكم نفسها بنفسها إلى حدٍ ما، وتضم كل منها في مؤخرتها أرضين واسعة تمتلكها وتسيطر عليها، مع أن الإمبراطورية كلها كانت مقسمة إلى ولايات. وكان معني الوطنية في هذه الإمبراطورية حب الشخص لمدينته أكثر مما تعني حبه للإمبراطورية. وكان الأحرار في كل مدينة يقنعون في الأحوال العادية بممارسة حقوقهم السياسية المحلية البحتة؛ وقلما كان الذين نالوا المواطنية الرومانية من غير أهل روما يذهبون إلى تلك العاصمة ليعطوا أصواتهم في الانتخابات؛ ولم يكن اضمحلال الجمعيات العامة في العاصمة مصحوباً باضمحلال مماثل له في مُدن الإمبراطورية ما تدل على هذا بومبي نفسها.

وكان لمعظم البلديات الإيطالية مجالس شيوخ Curia ولمعظم المدن الشرقية مجالس boule تشريعية تسن قوانينها وجمعيات comitia ekklesia تختار حكامها؛ وكان ينتظر من حاكم المدينة أن يهب مدينته مبلغاً كبيراً من المال Snmma Honoraria - (الكلمة الثانية مشتقة من Honas بمعنى المنصب)- نظير تفضلها عليه بأن يكون حاكماً لها. وقد جرت العادة أيضاً أن يتبرع من حين إلى حين ببعض المال للأغراض أو الألعاب العامة. وإذ كان المنصب لا ينال عليه صاحبه أجراً فإن ديمقراطية الأحرار- أو أرستقراطية الأحرار- قد استحالت في كل مكان تقريباً الجركية يتولاها ذوو المال والجاه.

وظلت البلديات مائتي عام من عهد أغسطس إلى عهد أورليوس في رخاء وازدهار. ولسنا ننكر أن الكثرة الغالبة من أهلها كانت من الفقراء بطبيعة الحال؛ فقد تكفلت الطبيعة والمميزات المختلفة بإيجاد هذه الحال ولكن التاريخ لم يحدثنا قط عن عهد من العهود، قبل هذا العهد أو بعده، فعل فيه الأغنياء للفقراء قدر ما فعله أغنياء هذه المدائن لفقرائها؛ ذلك أن نفقات إدارة المدينة كلها تقريباً، وما يلزم من المال لتمثيل المسرحيات، وغير ذلك من ضروب التسلية، والألعاب، وتشييد الهياكل، ودور التمثيل، والملاعب؛ ومدارس التدريب الرياضي، والمكتبات العامة، والقنوات التي تنقل ماء الشرب للمدن، والقناطر والحمامات، وتجميل هذه كلها بالأقواس والأروقة ذات العمد، والصوَر والتماثيل، كانت كلها يتحملها ذوو اليسار. وقد ظل الوطن طوال المائتي عام الأولى من عهد الإمبراطورية يدفع أولئك الأقوام إلى التنافس فيما بينهم للقيام بهذه الأعمال الخيرية تنافساً أدى في بعض الأحيان إلى إفلاس عدد من الأسر التي كانت تمولها، أو المدن التي تتكفل بها بعد إقامتها من مال الأغنياء.

وقد جرت العادة في أيام القحط أن يبتاع الأغنياء الطعام ويوزعوه من غير ثمن على الفقراء، وكانوا في بعض المناسبات يقدمون لجميع المواطنين؛ ولجميع السكان أحياناً، زيتاً أو خمراً بالمجان، أو يقيمون لهم وليمة عامة، أو يهبونهم قدراً من المال. وخلّدت النقوش الباقية إلى الآن كثيراً من هذا السخاء. فها هو ذا ثري من أصحاب الملايين يهب مدينة ألتينم في فنيشيا ١.٦٠٠.٠٠٠ سسترس لإقامة حمامات عامة، وها هي ذي سيدة تشيد هيكلاً ومدرجاً في كسينم Casinum؛ وها هو ذا ديسميوس تلس Decimius Tullus يهب تركوينياي Tarquinii حمامات تكلّفت ٥.٠٠٠.٠٠٠ سسترس؛ وها هي ذي كرمونا Cremona التي دمرها جنود فسبازيان لا تلبث أن يعاد بناؤها من تبرعات المواطنين. وتذكر النقوش إسمي طبيبين قدما كل ما يملكان هبات لنلمثلي. وفي أستيا التي كانت مزدحمة بالسكان دعا لوسليوس جمالا Lucilius Gemala جميع أهلها إلى الطعام ورصف فيها طريقاً طويلاً واسعاً، ورمم سبعة هياكل أو أعاد بناءها وأعاد بناء حمامات البلدية، ووهب خزانتها ثلاثة ملايين سسترس . وكان من عادة بعض الأغنياء أن يقيم الواحد منهم وليمة يدعو إليها قسماً كبيراً من المواطنين في عيد ميلاده أو لمناسبة إنتخابه إلى منصب عام؛ أو زواج إبنته، أو ارتداء إبنه الطوغة، دليلاً على بلوغه سن الرشد، أو تدشين بناء أهداه إلى المدينة. وكانت المدينة تجزي هذا المحسن على إحسانه بأن تعينه في منصب عام، أو تقيم له تمثالاً، أو تمتدحه بقصيدة أو نقش. ولم يكن الفقراء يشعرون بالذلّة حين ينالون هذه العطايا كلها، ذلك بأنهم كانوا يتهمون الأغنياء بأنهم لم يحصلوا على هذا المال الذي يفعلون به الخير إلا من طريق الاستغلال، ومن أجل هذا كانوا يتطلبون الاقتصاد في المباني الجميلة والتماثيل، ويلحون في تخفيض ثمن الحبوب والإكثار من الألعاب

وإذا أضفنا إلى هبات الأفراد، ما كان يهبه الأباطرة للمدن، وما كان يقام فيها بأموالهم من مبانٍ، وما يقدمونه لها من مال لتخفيف ما يحل بها من الكوارث. فضلاً عن الأعمال العامة والمناصب التي كانت تحوّل من خزائن البلديات، إذا فعلنا هذا بدأنا نحس بفخامة المدن الإيطاليّة في عهد حكومة الزعامة. لقد كانت شوارعها مرصوفة، وكان فيها مجارٍ لنقل المياه القذرة، وشرطة لحماية الأمن، وكثير من وسائل الزينة، وخدمة طبية مجانية للفقراء من أهلها، وماء نقي نظيف يصل إلى الدور في أنابيب نظير أجر قليل، وطعام يقدم للفقراء بثمن بخس. وكانت الحمامات في معظم الأحوال مباحة من غير أجر يُنفَق عليها من هبات المحسنين، والمال يقدم للأسر الفقيرة مساعدة لها على تربية الأبناء والإكثار منهم؛ وكانت المدارس ودور الكتب تُنشأ للتعليم والمطالعة، والمسرحيات تُمثَّل، والحفلات الموسيقية تقام، والألعاب تُنظَّم لتُنافس بها تلك المدن روما غير عابئة بما تنفقه فيها من مال.

ولم تكن حضارة المدن الإيطاليّة حضارة مادية بالقدر الذي كانت عليه في العاصمة؛ فقد كانت هذه المدائن تتنافس في إقامة المدرجات، ولكنها أقامت كذلك هياكل فخمة، يضارع بعضها أحسن ما كان منها في روما، وجعلت شهورها مرحة بما كانت تقيمه من أعياد دينية ذات بهجة. وكانت تنفق بسخاء على الأعمال الفنية، وتنشئ القاعات الرحبة للمحاضرات، وللشعراء، والمـفسطائيين، والخطباء، والفلاسفة، والموسيقيين.

وكانت تيسّر لمواطنيها أسباب الصحة، والنظافة، والتنزه، والحياة الثقافية القوية. ومنها، لا من روما، خرج عظماء المؤلفين اللاتين، وعدد كبير من أحسن ما في متاحفها من روائع النحت كتمثال نيكي (العدالة) في متحف نابلي، وتمثال

بروس (الحب) في سنتومسلا Centumecella، وتمثال زيوس في أتركولي Atricolic . وكانت تقوم بحاجيات عدد من السكان لا يقلّون عن عددهم قبل هذا القرن في المدن التي قامت مكانها وتؤمنهم من مصائب الحرب تأميناً منقطع النظير.

وقصارى القول أن القرنين الأول والثاني من التاريخ الميلادي قد شهدا ذروة مجد شبه الجزيرة العظيمة.

* الحكومة :

◂ القانون :

إذ كان القانون هو أساس التاريخ الروماني وجوهره، فقد كان من المستحيل أن نفصل هذا عن ذاك. ومن أجل هذا لن يكون هذا الفصل من فصول الكتاب إلا مكملاً لما سبقه وما سيعقبه من تفصيلات، ولن يزيد على لبنات متفرقة في صرح الحضارة الرومانية. فقد كان القانون أخص خصائص الروح الرومانية، وأبقى مظهر من مظاهرها وكانت روما مضرب المثل في النظام كما كانت بلاد اليونان مضرب المثل في الحرية، ولقد أورثتنا روما شرائعها، وتقاليدها الإدارية لتكون هي أسس النظام الاجتماعي، كما أورثتنا بلاد اليونان الديمقراطية والفلسفة اللتين كانتا أساس الحرية الفردية. وأهم ما يجب على الساسة ورجال الحكم هو أن يجمعوا بين هذين التراثين المختلفين المتنافرين ويوحدوا بينهما، ويؤلفوا من نغماتهما المتعارضة المنشطة نغماً مؤتلفاً منسجماً.

والدستور الروماني يشبه الدستور البريطاني – فلم يكن هذا الدستور طائفة من القواعد المخلدة التي يتقيد بها الناس، بل كان سلسلة متتابعة من السوابق

ترشد وتوجه، ولكنها لا تمنع التغيير. فكلما زاد الثراء وتعقدت أساليب الحياة، أصدرت الجمعيات وأصدر الحكام والزعماء قوانين جديدة، وسايرت الشرائع الإمبراطورية في نموها واتساع نطاقها، فكانت كلما امتدت رقعة الإمبراطورية لاحقتها القوانين إلى الحدود الجديدة، وتطلب تعليم رجال القانون، وإرشاد القضاة، وحماية المواطن من الأحكام الظالمة غير المشروعة، تطلب هذا تنظيم الشرائع وصياغتها في صورة مرتبة يسهل معرفتها والوصول إليها.

وبينما كانت الاضطرابات التي حدثت عقب ثورات ابني جراكس وماريوس على أشدها قام ببليوس موكيوس سكافولا Publius Mucius Scaevola (الذي ولي القنصلية في عام ١٣٣ ق. م) وابنه كونتس Quintus (وقد ولي القنصلية في ٩٥ ق.م) وبذلاً جهوداً كبيرة لصياغة قوانين روما صياغة يسهل فهمها. وكتب شيشرون؛ وكان من تلاميذ رجل آخر يدعى كونتس موسيوس اسكافولا (وقد ولي القنصلية عام ١١٧ ق. م)، رسائل بليغة في فلسفة القوانين، ووضع مشروع قوانين مثالية يقصد بها الاحتفاظ بالثروة الطائلة التي جمعها وبالدين الذي خسره. وخلقت القوانين المتناقضة التي سنها ماريوس وصلاً، وسلطة بومبي المطلقة التي لم يكن لها مثيل من قبل، والشرائع الثورية التي وضعها قيصر، والدستور الجديد الذي وضعه أغسطس، خلقت هذه كلها مشاكل جديدة للعقول التي حاولت أن تجعل الشرائع المتمشية مع المنطق السليم، وأخذ المشترع النابه انتستيوس ليبو Antistius Labeo يندد بما في القوانين من اضطراب وفوضى، ويعلن أن المراسيم التي أصدرها قيصر وأغسطس مراسيم باطلة لأنها مظهر لسلطة مغتصبة غير شرعية. ولم يكن في مقدور عقول الأفراد أو سلطة المحاكم أن تقبل هذه القوانين الجديدة إلا بعد أن وطدت الزعامة سلطتها باستخدام القوة أولاً

وبسلطان العادة فيما بعد. ويعود الفضل إلى القرنين الثاني والثالث من التاريخ الميلادي في وضع القوانين الرومانية في الغرب في صورتها النهائية – وهو عملاً لا يقل خطراً عن صياغة العلم والفلسفة في بلاد اليونان.

* المجتمع :

كان الرومان شعب روما القديمة قد أسسوا إمبراطورية احتلت أكثر بلدان البحر الأبيض المتوسط وأوربا الغربية حتى سقوطها في ٤٧٦ م وكانت لغتهم هي اللاتينية . وقد عُرفوا بعدم تقديرهم لقيمة العمل كما أنهم لم ينصفوا العمال والطبقات المغلوبة على أمرها مثل العبيد والفقراء والفلاحين ولم يمنحوهم حقوقهم وحرياتهم خوفاً من الثورة عليهم وعلى أملاكهم وسلطتهم ومع ذلك فقد اشتهرت هذه الحضارة بالإزدهار الإقتصادي والمادي وذلك بفضل كد الكادحين من الطبقة الفقيرة.

* البنية المجتمعية :

الحياة في روما القديمة تدور حول مدينة روما، التي تقع على التلال السبعة. وتشتمل المدينة على عدد كبير من المباني التذكارية مثل الكولوسيوم، مجمع تراجان والبانثيون. وفيها نافورات مياة الشرب العذبة التي توفرها مئات الكيلومترات من القنوات المائية، والمسارح، ومباني الألعاب الرياضية (الجمنازيوم) ومجمعات حمام تكتمل مع المكتبات والمحلات التجارية والأسواق، والمجاري الوظيفية.

في جميع الأراضي الواقعة تحت سيطرة روما القديمة، تراوحت العمارة السكنية بين منازل متواضعة جداً إلى الفيلات الريفية .أما في العاصمة

روما، كانت المساكن الإمبراطورية على تل بلاطي (قصرى) أنيق، حيث استمدت كلمة قصر منه. وتعيش الطبقات المنخفضة من عامة الشعب والمتوسطة في وسط المدينة، وتكدس في شقق، أو Insulae التي كانت أشبه بالأقليات الحديثة. وتُبنى هذه المناطق غالباً على أراضى الطبقة العليا لجمع دخول إيجار العقارات. وغالباً ما يكون في مركزها المدارس أو غرف التسوق . ويُمد هؤلاء الناس بالحبوب المجانية، ويتم الترفيه عنها بألعاب المجالدة (gladiator)، كما يتم تسجيلهم كتابعين من السادة المعتقين في صفوف الطبقة العليا الأرستقراطيون، للمساعدة التي تنشدها ولتدعيم مصالحهم.

◂ المطبخ :

تغير المطبخ الروماني القديم على مدى الفترة الطويلة التي عاشتها الحضارة الرومانية القديمة. وتأثرت العادات الغذائية للشعب الروماني القديم بالثقافة اليونانية، التغيرات السياسية من المملكة إلي الجمهورية إلى الإمبراطورية، والتوسعات التي امتدت إليها الإمبراطورية، واطلاع الرومان على العادات الغائية وتقنيات الطهي المختلفة. في البداية كان الاختلاف بين الطبقات الاجتماعية غير كبير، لكنه بدأ في الظهور مع نمو الامبراطورية الرومانية.

* اللغات :

كانت اللاتينية هي اللغة التي يتحدث بها أهالي المنطقة حول روما تسمى لاتيوم (Latium) . صارت تلك اللغة مهمة جداً كاللغة الرسمية في الإمبراطورية الرومانية. كل اللغات الرومانسية -(هي أحد فروع اللغات الهندو-أوروبية. أغلبيتها في جنوب أوروبا)- أصلها من اللغة اللاتينية، ولذلك الكثير من الكلمات اللاتينية توجد في لغات معاصرة آخرى مثل الإنجليزية. وكانت اللاتينية

تعتمد في قواعدها قليلاً على ترتيب الكلمة، ونقل المعنى من خلال نظام اللاحقة المتصلة بجذر الكلمة . وتعتمد أبجدية اللغة على الأبجدية الإتريورية، التي كانت بدورها تعتمد على الأبجدية اليونانية. وعلى الرغم من أن الأدب اللاتيني الباقي يتألف كله تقريباً من اللاتينية الكلاسيكية، إلا أن لغة الأدب مصطنعة للغاية، منمقة الأسلوب ومصقولة من القرن الأول قبل الميلاد، وكانت اللغة المنطوقة فعلياً في الإمبراطورية الرومانية اللاتينية العامية، والتي تختلف بشكل كبير عن اللاتينية الكلاسيكية في قواعد اللغة والمفردات، وأخيراً في النطق.

بينما استمرت اللاتينية اللغة الرئيسي المكتوبة في الامبراطورية الرومانية، أصبحت اليونانية اللغة التي يتحدث بها جيداً النخبة المتعلمة، إذ أن معظم المؤلفات التي درسها الرومان كتبت باليونانية. في النصف الشرقي من الإمبراطورية الرومانية والتي تحولت فيما بعد إلى الإمبراطورية البيزنطية لم تكن اللاتينية قادرة أبداً على أن تحل محل اليونانية، وبعد وفاة قسطنطين أصبحت اليونانية اللغة الرسمية للحكومة البيزنطية . وأدى توسع الإمبراطورية الرومانية إلى انتشار اللاتينية في جميع أنحاء أوروبا، وبمرور الوقت تطورت اللاتينية عامية اللهجة وأثارت الجدل في مواقع مختلفة، وتدريجياً تحولت إلى عدد متميز من اللغات الرومانسية.

* الديانة :

كانت للرومان العديد من الآلهة والأساطير المرتبطة بهم والتي كانت تدخل في صميم حياتهم اليومية. وتشكلت من تلك المعتقدات والديانات والأساطير اليونانية، وكان أغلبها مألوفاً لدى عامة الشعب الإغريقي. على غرار الديانات التي كانت منتشرة حينذاك، لقد آمن الإغريق بوجود آلهة عديدة، كما ربطوا بين كل آلهة وأحد النشاطات اليومية . أفروديت مثلاً: كانت إلهة الحب

والجنس، بينما كان آريس إله الحرب، ويميلان إله الموتى. بالرغم من أنه يمكن عد المئات من الموجودات التي يمكن أن تعتبر (آلهة) حسب التصورات القديمة، إلا أن حضور أكثرها اقتصر على جوانب هي أشبه بالفولكلور منها إلى ممارسات دينية. العبادة الفعلية اقتصرت على بضعة آلهات فقط، وبالأخص الآلهات الثلاثة عشر الأولمبيانية (نسبة إلى مقرها في جبل أولمبوس أو أولمب). تعتبر الآلهات الأولمبيانية المركز الذي تنتظم من حوله المعتقدات الهلينستية القديمة، وتعتبر بيرسيفون (راعية الألغاز الإليوسينية) الإستثناء الوحيد هنا. كانت العديد من القرى والمدن تملك معتقدات خاصة بها، ترتكز على مجموعة من الحوريات والآلهات المحلية. ولم يكن الروماني، كما كان الإغريقي، يفكر في آلهته كان لها صوراً كصور الآدميين، ولم يكن يسميها إلا مونينا Munina أي الأرواح، وكانت هذه الآلهة في بعض الأحيان معنويات مجردة كالصحة، أو الشباب، أو الذاكرة، أو الحظ، أو الشرف، أو الأمل، أو الخوف، أو الفضيلة، أو العفاف، أو الوفاق، أو النصر، أو روما. وكان منها أرواح للمرض يصعب استرضاؤها كالأطياف وأرواح الموتى؛ ومنها أرواح فصول السنة، مثل Maia روح شهر مايو؛ ومنها آلهة الماء مثل نبتون Neptune، وأرواح الغابات أو الآلهة التي تسكن الأشجار مثل سيلڤانس Silvanus. وكان بعضها يتقمص الحيوانات المقدسة كالحصان أو الحيوان الذبيح، أو الأوز المقدس الذي كان المتقون يحتفظون بها فوق الكبتول لا يناله أحد بأذى، ومنها أرواح التناسل والإنتاج فمثلاً: تتومس يشرف على الحمل، ولوسينا تحمي الحيض والولادة، وكان بريابس Priapus إلهاً للإخصاب عند اليونان، ولكنه سرعان ما سكن روما، وكانت العذارى والأمهات -(إذا كان لنا أن نصدق القديس أوغستين الغاضب)- يجلسن على قضيب تمثاله ليضمن بذلك استعدادهن للحمل).

* الاقتصاد :

كان يُنظر للزراعة في روما القديمة بإجلال كبير. وبين العديد من المعلقين الذين امتدحوا الحياة الريفية البسيطة وكرّموها بهالة الفضيلة الرومانية. وقد اعتبر شيشرون الزراعة أفضل المهن الرومانية. فيقول في كتابه (في الواجبات): "لكن من كل المهن ذات الدخل المضمون، فلا شيء أفضل من الزراعة، ولا أكثر ربحاً، ولا أبعث للسعادة، ولا أنسب لرجل حر ...". فهي حياة استعملها شيشرون في مرافعته Pro Sex. Roscio Ameriae ليدافع عن سكستوس روسكيوس، الذي هاجم الإدعاء حياته الريفية، قائلاً: "ولكن حياة الريف التي تسميها حياة مهرجين هي معلّم الإقتصاد والصناعة والعدل".

قلما كان الروماني في تلك العصور يحتاج إلى الطب، لأن حياته النشيطة في الزراعة والجندية تكسبه صحة وقوة. وكان يجدُّ في فلح الأرض كما يجد اليوناني في خوض عباب البحر؛ وكانت الزراعة أساس حياته، يقيم المدن لتكون مجتمعاً للزراع يتبادلون فيها محصولات أرضهم، وينظّم جيوشه ودولته على أساس استعداده للدفاع عن أملاكه وتوسيع رقعتها، ويفكر في آلهته على أنها أرواح الأرض الحية والسماء المغذية.

ونجد الملكية الفردية قائمة في روما من أقدم العصور المعروفة؛ على أن بعض الراضي كانت تعد من الأملاك العامة ager publicus التي تستولي عليها الدولة عن طريق الفتح وتحتفظ لنفسها بملكيتها. وكانت أسرة الزراع في عهد الجمهورية الباكر تمتلك فدانين أو ثلاثة أفدنة، يشتغل فيها جميع أفرادها وعبيدها إن كان لها عبيد، وتعيش عيشة متقشفة على ما تنتجه من الغلات. وكانوا يفترشون القش، ويصحون من نومهم مبكرين، ويخرجون إلي عملهم ونصف جسمهم العلوي

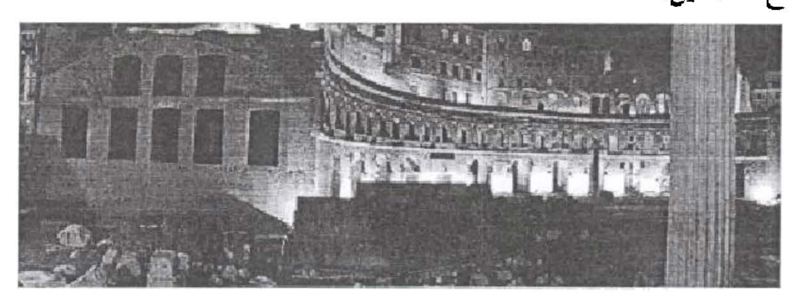
عار من الملابس، ليحرثوا الأرض ويمهدوها خلف ثيران تسمدها بفضلاتها، وتتخذ لحومها قرابين دينية وطعاماً في الأعياد والولائم. وكانت فضلات الآنية تتخذ هي الأخرى سماداً، ولكن المخصبات الكيمائية كانت نادرة في إيطاليا قبل عهد الإمبراطورية. وقد استورد في ذلك العهد كتباً في الزراعة العملية من بلاد اليونان ومن قرطاجنة .وكانت الأرض تزرع حباً ثم خضراً، ثم تترك من حين إلى حين لتكون مراعي حتى لا يستنفد خصبها. وكانت الفاكهة والخضر موفورة، وكانت بعد البقول أهم غذاء للأهلين. وكان الثوم من أحب المشهيات، وقد بلغ من شأن الزراعة عندهم أن بعض أسر الأشراف قد اشتقت أسماؤها من الخضر التي تعنى بزراعتها. ومن أمثلة ذلك أسرLentuli, Fabii,Caepiones ، وهي مشتقة من ألفاظ معناها العدس، والبصل، والفول أو الحمص. ثم طغت زراعة التين والزيتون والكروم شيئاً فشيئاً على زراعة الحبوب والخضر، واستبدل زيت الزيتون بالزبد في الطعام، وبالصابون في الاستحمام، واستخدم للإضاءة في المشاعل والمصابيح، كما كان العنصر الأساسي في أدهان الشعر والجلد التي كانت رياح البحر الأبيض المتوسط الجافة وشمسه المحرقة في فصل الصيف تحتم عليهم استعمالها.

وكان الضأن أهم قطعانهم لأن الإيطاليين كانوا يفضلون نسيج الصوف على غيره من المنسوجات. وكانت الخنازير والدجاج تربى في ساحة المزرعة، وكان لكل أسرة تقريباً حديقة للأزهار.

ثم غيرت الحروب هذه الصورة القروية وما فيها من كدح. ذلك أن كثيرين من الزراع الذين استبدلوا السيف بالمحراث قد غلبوا على أمرهم في ميدان القتال أو اجتذبتهم حياة المدن فلم يعودوا قط إلى حقولهم؛ وكثيرون غيرهم وجدوا أن

أرضهم أتلفها الإهمال، أو الجيوش، فلم يجدوا لديهم من الشجاعة ما يحملهم على أن يبدأوا العمل فيها من جديد؛ ومنهم من قصمت ظهورهم الديون الباهظة؛ فاضطر هؤلاء كلهم إلى أن يبيعوا أرضهم بأثمان زهيدة إلى الأشراف أو الممولين الزراع؛ وضم هؤلاء المزارع الصغيرة بعضها إلى بعض وكونوا منها ضياعاً واسعة كبيرة Latifundia، واستبدلوا بزراعة الحبوب في هذه الضياع مراعي للضأن والماشية، وبساتين وكروماً، وحشدوا فيها عبيداً من أسرى الحروب يعملون فيها على أعين مشرفين، كانوا هم أيضاً عبيداً في أغلب الأحيان.

وكان الملاك يأتون إلى هذه الضياع بين الفينة والفينة ليلقوا نظرة على أملاكهم؛ ولم يكونوا هم أنفسهم يقومون فيها بعمل من الأعمال، بل كانوا يعيشون عيشة الملاك الغائبين عن أملاكهم في منازل ذات حدائق في الريف، أو في قصور في روما. وقد بدأ هذا الاتجاه الجديد قبل القرن الرابع، حتى إذا حل القرن الثالث قبل الميلاد نشأت في الريف طائفة من المستأجرين الذين أثقلتهم الديون، وفي العاصمة طائفة من الصعاليك الذين لا ملك لهم، وانتشرت بينهم التذمر والغضب من وضعهم. وما لبث هذان التذمر والغضب أن قضيا على الجمهورية التي أقامها كدح الفلاحين.



صورة لليلة لسوق تراجان الذي بناه Apollodorus of Damascus.

* تقنيات الزراعة :

كانت أساليب الزراعة وأدواتها لا تختلف اختلافاً جوهرياً عما كانت عليه منذ قرون، فقد احتفظ المحراث، والمجرفة، والمعزقة، والفأس، والمذراة، والمنجل بصورتها التي كانت عليها في تلك الأيام، ولم تكد تتغير في شيء. وكانت الحبوب تطحن في طواحين تديرها المياة أو الحيوانات. وكانت المضخات اللولبية والسواقي ترفع الماء من العيون أو الأنهار إلى قنوات الري. وكان يحفظون بخصب التربة بأتباع الدورة الزراعية، واستخدام المخصبات والنباتات التي تفيد الأرض كالفصفصة والبرسيم والشيلم والفول. وكانوا يتفننون في انتخاب البذور، وكان في وسعهم بعنايتهم وحذقهم أن يجنوا ثلاثة محاصيل أو أربعة في بعض الأحيان من حقول كمبانيا ووادي البو الخصبة الغنية. وكان في مقدورهم أن يحصلوا من زرعة واحدة من الفصفصة على أربعة محصولات أو ستة في كل عام لمدة عشرة أعوام. وكانوا يزرعون كل الخضر الأوربية المعروفة عدا أندرها، وكانوا يزرعون بعضها في البيوت الزجاجية ليتجروا فيها أثناء الشتاء. وكانت أشجار الفاكهة والنقل على اختلاف لا أنواعها كثيرة، لأن القواد والتجار الإطاليين، والتجار الأجانب، والأرقاء حملوا معهم إلى إيطاليا الكثير من أصنافها، فجاءوا بأشجار الخوخ من بلاد الفرس، والمشمش من أرمينيا، والكرز من كراسس في إقليم بنتس (ومنها اشتق اسم هذه الفاكهة)، والكروم من سوريا، والبرقوق من دمشق، والخوخ والبندق من آسيا الصغرى، والجوز من بلاد اليونان، والزيتون والتين من أفريقية. واستطاع المهرة من زراع الأشجار أن يطعموا شجر القطلب (الأربوطس) بأغصان شجر الجوز، وشجر الدلب بأغصان الخوخ، وشجر الدردار بأغصان الكرز. ويذكر بلنى تسعة وعشرين نوعاً من شجر التين كانت تزرع في

إيطاليا، ويقول كالوملا: "لقد عرفت إيطاليا بفضل عناية زراعنا كيف تنتج فاكهة العالم كله تقريباً". ثم نقلت هذه الفنون إلى غربي أوربا وشماليها. وجملة القول أن ألوان الطعام الكثيرة التي نأكلها قد تجمعت من رقعة واسعة من الأرض، وأن لها من ورائها تاريخ طويل. وقد يكون هذا الطعام جزءاً من التراث الذي ورثناه من بلاد الشرق أو بلاد اليونان والرومان الأقدمين .



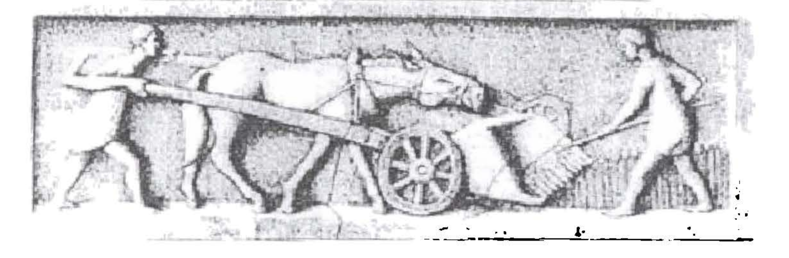
كاتو الأكبر

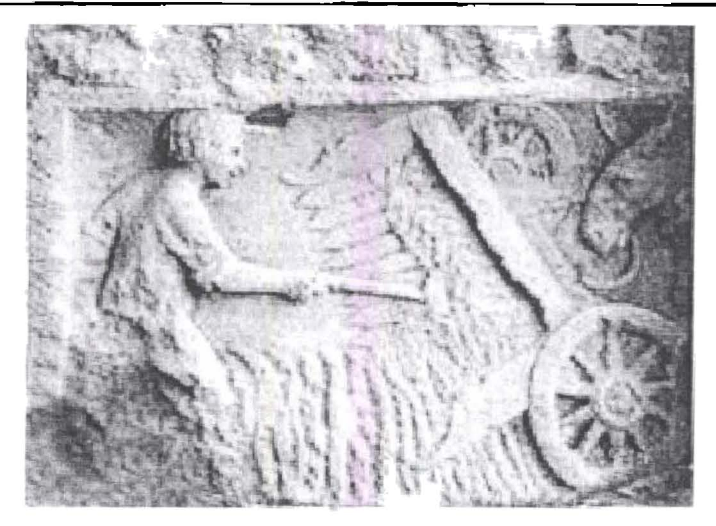
مؤلف كتاب الزراعة الرومانية القديمة.



Roman hoe blade

من حقل في متحف شيكاجو





نقش بارز يصور فلاح غالي- روماني.

* التجـــارة :

♦ الاقتصاد الزراعي :

كان سبب انتشار المراعي والضياع الواسعة إن تربية الماشية وزراعة أشجار الزيتون والكروم كانت أكثر ربحاً من زراعة الحبوب والخضر، وأن أصحابها قد تبينوا أن المراعي إذا أريد أن تستغل على خير وجه وجب أن تكون متسعة المساحة موحدة الإدارة. فلما أشرف القرن الأول بعد الميلاد على الانتهاء كانت هذه المزايا قد أخذت في الزوال بسبب ما حدث من الزيادة في تكاليف العبيد، ومن النقص في إنتاجهم، ومن ضعف قدرتهم على الابتكار.

وقد بدأ في هذه الأثناء الانتقال الطويل الأجل من استخدام العبيد إلى استخدام أقنان الأرض. وكان سبب ذلك أن السلام قلل من استرقاق أسرى

الحروب، فعمد بعض ملاك الضياع الواسعة إلى تقسيمها أقساماً صغيرة لا يستخدمون في فلحها العبيد بل يؤجرونها إلى زراع أحرار يؤدون لهم في نظير ذلك مالاً وعملاً. وكان معظم (الأراضي العامة) التي تملكها الحكومة يستغل وقتئذ بهذه الطريقة، كما كانت تستغل بها أيضاً الأراضي الواسعة التي يمتلكها بلنى الأصغر الذي يصف مستأجريه بأنهم فلاحون أصحاء، أقوياء، طيبو القلوب، ثرثارون، وهو وصف ينطبق كل الانطباق على الفلاحين الإيطاليين في هذه الأيام، فقد بقوا على حالهم رغم ما حل بالبلاد من أحداث وما طرأ عليها من تغيير.

وكانت بساتين الزيتون كثيرة العدد، أما الكروم فلم يكن يخلو منها مكان، وكانت تدرج لها سفوح الجبال فتبدو ذات روعة وجمال. وكانت إيطاليا تخرج خمسين نوعاً من أنواع النبيذ المشهورة، وكانت روما وحدها تحتسي منها خمسة وعشرين مليون جالون في كل عام، أي بمعدل نصف جالون لكل شخص من ساكنيها رجالهم ونسائهم وأطفالهم وعبيدهم كل أسبوع. وكان معظم النبيذ من إنتاج المنظمات الرأسمالية . أي بطرقة الإنتاج الكبير الذي تموله روما. وكان الكثير مما تنتجه يصدر إلى خارج البلاد لك يتذوق البلاد التي يتشرب الجعة كألمانيا وغالة لذة النبيذ. وشرعت أسبانيا وأفريقيا وغالة تزرع كرومها، وأخذ زراع الكروم الإيطاليون يفقدون من البلاد التي يصدرون إليها نبيذهم أسبوعاً بعد أسبوع، ويغمرون سوقهم المحلية بأكثر مما تطيقه من النبيذ في إحدى أزمات الإنتاج الوفير التي عانتها روما في الزمن القديم. وحاول دومتيان أن يخفف من أثر هذه الحال السيئة، وأن يعيد زراعة الحبوب إلى حالها الأولى. فحرم غرس كروم جديدة في إيطاليا وأمر بأن تدمر نصف الكروم المزروعة في الولايات. وأثارت هذه الأوامر عاصفة من الاحتجاج الشديد، وعجزت الحكومة عن تنفيذها فكانت النتيجة أن

نبيذ غالة وزيتون أسبانيا وأفريقيا وبلاد المشرق أخذا يطردان الغلات الإيطالية من أسواق البحر الأبيض المتوسط وبدأ من ذلك الوقت اضمحلال إيطاليا الاقتصادي.

وخُصص جزء كبير من أراضي شبه جزيرة إيطاليا للمراعي، فكانت الأرض غير الموفورة الخصب، وكان العبيد ذوو الأجور الرخيصة يستخدمان لتربية الماشية والضأن والخنازير، وكانوا يعون بتربيتها على الطريقة العلمية. وكانت الخيل تربى في الغالي للأغراض الحربية، وللصيد وألعاب الفروسية، وقلما كانت تستخدم لجر المركبات؛ وكانت الثيران تجر المحاريث والعربات، والبغال تحمل الأثقال على ظهورها؛ وكانت البقر والغنم والماعز تمد الأهلين بثلاثة أنواع من اللبن يصنع منه الإيطاليون وقتئذ كما يصنعون منه في هذه الأيام أصناف الجبن اللذيذ. وكانت الخنازير تربى في الغابات الغنية بالجوز وثمار البلوط. ويقول استرابون إن إيطاليا كانت تعيش في الغالب على لحم الخنازير التي تربى في غابات البلوط الكثيرة في شمالي إيطاليا. وكان الدجاج يمد المزارع بالسماد المخصب والأسر الإيطالية بالطعام اللذيذ، كما كان النحل يمد الأهلين بالشهد الذي كان منذ القدم يستعمل بدل السكر. وإذا أضفنا إلى ما سبق بعض مساحات من الكتان والتيل، وقليلاً من صيد الحيوان، وكثيراً من صيد السمك، تكونت لدينا الصورة التي كان عليها الريف الإيطالي منذ ألف وتسعمائة عام والتي لا يزال محتفظاً بها إلى اليوم.

* الأرستقراطية والأراضي :

في العصر الفضي ظهر المرجع الروماني الهام في الزراعة وهو كتاب يونيوس كلوملا Junius Columella المسمى De Re Rustica. ومؤلفه من أصل أسباني فهو من الناحية شبيه بكونتليان ومارتيال وآل سنسكا. وكان يستغل عدة ضياع في إيطاليا ثم اتخذ مسكنه بعدئذ في روما. ذلك أنه وجد أن

أحسن الأراضي قد شيدت عليها البيوت ذات الحدائق وسويت لتكون مسارح للأثرياء، وأن التي تليها في الجودة قد غرست فيها بساتين الزيتون والكروم؛ ولم يبق للزراعة إلا أردأ الأراضي. ومن أقواله في هذا: "لقد وكلنا حرث أراضينا لأحط العبيد؛ وهم يقومون بعملهم قيام الهمج". وكان يرى أن أحرار إيطاليا يتدهورون في المدن على حين أنه كان في مقدورهم أن يقووا أجسامهم وأخلاقهم بالعمل في الأرض، "فنحن نعمل في الملاعب ودور التمثيل ولا نعمل بين المزارع والكروم". وكان كلوملا يحب الأرض ويحس بأن أفلحها أعود على الناس من ثقافة المدن. ويقول في ذلك: "أن الزراعة من اخوات الحكمة". وكان يغرى الناس بالعودة إلى الحقول بتجميل موضوعاته بالألفاظ اللاتينية المصقولة. وإذا تحدث عن الحدائق والأزهار بلغت حماسته الشعرية غايتها.

وتلك هي الفترة التي نطق فيها بلنى العالم الطبيعي بعبقرية لم يكن موعدها قد حان: "إن الضياع الكبيرة قد خربت إيطاليا"، وذلك حكم اصدره غيره من الكتاب وهم سنكا، ولوكان، وبترونيوس، ومارتيال، وجوفناتل. فقد وصف سنكا مسارح الأنعام التي كانت أوسع رقعة من الممالك يزرعها عبيد مصفدون في الغلال. ويقول كالوملا: "أن بعض الضياع قد بلغت من السعة حداً يستحيل معه على مالكيها أن يطوفوا حولها راكبين". ويحدثنا بلنى عن ضيعة يعمل فيها ٤١١٧ من العبيد، و ٧٢٠٠ ثور، و ٢٥٧.٠٠٠ من الحيوانات الأخرى. نعم إن ما عمله أبنا جراكس، وقيصر، وأغسطس من توزيع الأراضي على الرومان قد زاد عدد صغار الملاك، ولكن معظم هؤلاء تركوا أملاكهم في أثناء الحروب التي قامت بعدئذ وابتاعها الأغنياء، ولما أن قللت الإدارة الإمبراطورية من أعمال السلب والنهب في الأقاليم ابتاع الأشراف بأموالهم ضياعاً كبيرة.

* العسكرية :

كان النظام العسكري القائم في العصر الروماني القديم يعتمد بصفة رئيسية على الجيش الروماني، والذي كان اعتمد عليه الدستور الروماني في نهاية الأمر، وكان من أكثر الأنظمة العسكرية نجاحاً في تاريخ العالم كله. لقد كان الجيش هو والمواطنون وحدة وثيقة الارتباط، وكان الجيش مجتمعاً في المئات هو الهيئة الرئيسية التي تسن قانون الدولة. وكان الفرسان يؤخذون من المئات الثمان عشرة الأولى. أما (الطبقة الأولى) فكانت تكون فرق المشاة الثقيلة، وكان كل جندي فيها يسلح بحربتين وخنجر وسيف، ويلبس خوذة من البرنز، ودرعاً من الزرد، وجرموقاً، ومجناً. وكان لرجال (الطبقة الثانية) كل هذا العدد عدا الدروع الزردية وأما رجال (الطبقتين الثالثة والرابعة) فلم يكن لهم سلاح، ولم يكن لرجال (الطبقة الخامسة) غير المقاليع والحجارة.

وكان الفيلق الروماني هيئة مختلطة تتألف من ٤٢٠٠ من المشاة، و ٣٠٠ من الفرسان، وعدة كتائب أخرى إضافية؛ وكان جيش القنصل يتألف من فيلقين. وكان كل فيلق يقسم إلى كتائب، وكانت كل منها في بادئ الأمر تتألف من مائة جندي، ثم أصبحت فيما بعد تتألف من مائتين، ويقودها قواد المئات. وكان لكل فيلق علمه الخاص vexillum. وكان مما يخل بالشرف أن يسقط هذا العلم في أيدي الأعداء. وكان مهرة الضباط في بعض الأحيان يلقون العلم بين صفوف الأعداء ليثيروا حماسة جندهم فيعملوا على استعادته مهما كلفهم ذلك من بذل وتضحية. وإذا نشبت المعركة قذفت صفوف المشاة الأمامية العدو الذي لم يكن يبعد عنهم أكثر من عشر خطوات أو عشرين خطوة بوابل من الحراب؛ وهي رماح من الخشب تنتهي بأطراف من الحديد، وهاجمه في الجناحين أصحاب النبال

والمقالع بالسهام وبالحجارة، وهجم الفرسان بالأسنة والسيوف، وكانت الواقعة تنتهي بقتال حاسم يدور بين الأفراد بالسيوف القصار. أما أعمال الحصار فكانت تستخدم فيها المجانيق الخشبية التي تدار بالجذب أو اللي وتقذف من الحجارة ما زنته عشرة أرطال إلى أبعد من ثلاثمائة ياردة. وكانت كباش حربية ضخمة معلقة في حبال تشد إلى الوراء، ثم تخلي فتنطح أسوار الأعداء. وكان يقام رصيف مائل من الطين والخشب تدفع وتجر عليه أبراج ذات عجل ترمي منها القذائف على الأعداء. وقد عُدل في عام ٣٦٦ ق.م تشكيل الفيالق التي كانت في عهد الجمهورية الأول تتألف من ستة صفوف متراصة في كل واحد منها ٥٠٠ جندي، فكانت لذلك ضخمة كبيرة العدد يصعب تحريكها وتسييرها، فقسم كل فيلق إلى كوكبات في كل كوكبة مائتا جندي. وكان يترك فراغ بين كل كوكبة والتي تجاورها، وتقف الكوكبة التي في كل صف خلف الفراغ المتروك في الصف الذي قبله. وبهذه الطريقة يمكن الإسراع في إمداد كل صف من الصف المجاور له، وتحويل كوكبة أو عدة كوكبات لمواجهة أي هجوم جانبي، كما كان من شأن هذا النظام أن يفسح المجال للحرب الفردية التي كان الجندي الروماني يعد لها أحسن إعداد.

* قائمة أكبر الإمبراطوريات :

أسقطت ثورة الشعب الروماني الملك الطاغية طقعينوس واعتبر الرومان عام ٥٠٩ ق.م مفترقاً أساسياً في حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية وأطلقوا عليه اسم عام المجد وكان ذلك بعد سلسلة من الأحداث السياسية والعسكرية التي لا تزال غامضة حتى وقتنا الحاضر، وتوصل الشعب الروماني إلى تنظيم جديد للسلطة في روما، وابتداءاً من ذلك التاريخ بدأت العملية الفعلية لبناء الإمبرطورية الرومانية، فعملوا على التوسع الجغرافي حيث وضعوا نصب أعينهم هدفاً أساسياً

ينحصر في التوسع الجغرافي باستخدام القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية، ورأوا بأن هذه الطريقة هي الأفضل لتحقيق طموحات هذه الدولة الفتية، فبدأوا بحروب شبيهة بالغزوات القبلية المحدودة تستهدف إخضاع العشائر والعائلات المحيطة بروما؛ وكان ذلك خلال مراحل قيام الجمهورية الأولى التي قامت بتأسيس الإمبراطورية الرومانية، ثم بدأت مرحلة قيام الجمهورية الثانية التي شهدت تحول الدولة الصاعدة من قوة لاتينية داخل شبه الجزيرة الإيطالية إلى قوة عسكرية عالمية تتأثر بما يجري وتؤثر على في مركز العالم القديم (حوض البحر الأبيض المتوسط) وفي هذه المرحلة انتهت حروب روما داخل شبه الجزيرة الإيطالية، وبدأت حروب الرومان مع الفينيقيين (القرطاجيين) التي كانت مدينة قرطاجة الكائنة في شمال افريقيا عاصمة لهم، وقد سميت هذه الحروب بالحروب البونية (Punic Wars).

* الصراع الروماني القرطاجي :

◄ الحروب البونيقية :

بدأ الصراع الروماني – القرطاجي كصراع تجاري ثم أخذ أبعاداً عسكرية وكان أول احتكاك بين الطرفين عندما احتل الرومان جزيرة صقلية عام ٢٦٤ ق.م واعتبر القرطاجيون هذا الغزو مساساً مباشراً بمصالحهم الاقتصادية والسياسية، وهذه الواقعة كانت البداية الأولى للحرب بين الرومان والقرطاجيين التي استمرت إلى عام ٢٤١ ق.م. وفي الحروب البونيقية خاض الطرفان سلسلة من المعارك البرية والبحرية حسم بعضها وبقي الآخر دون نتائج حاسمة ولكن كان غالبية حسم المعارك للرومان وخصوصاً المعارك البرية أما المعارك البحرية فكانت غالباً نتائجها للقرطاجيين حيث كانت معظم قواتهم بحرية بخلاف الرومان الذين كانت قواتهم برية.

وقد حقق الرومان أول نصر عندما أخرجوا القرطاجيين من صقلية عام ٢٤١ ق.م، ثم تلا ذلك أن تمكن القائد الروماني مختاريوس ماركوس ديغولوس من هزيمة الأسطول القرطاجي عام ٢٥٦ ق.م وكانت هذه المعركة أول معركة بحرية يخوضها الجيش الروماني، ولكن القرطاجيين لم يستكينوا للرومان وقرر قائدهم في هذه الحقبة من الزمن هانيبال الاستمرار في مدّ رقعة السيطرة القرطاجية على الساحل الإسباني وقد وصلوا إلى مرسليا عاقدين العزم على غزو الأراضي الإيطالية من الجهة الشمالية الغربية. وكانت آمال (هانيبال) كبيرة في أن يساعده الرومان وبدأ القرطاجيون حملتهم الجديدة علي الرومان، ومن هنا بدأ ميزان القوى يميل ضد روما فبعد أكثر من عشر سنوات من الحروب المستمرة مع أعداء مختلفين على جميع الاتجاهات لشبه الجزيرة الإيطالية قويت حملة هانيبال المدروسة والمعد لها جيداً وأصبحت مثل رأس الحربة في وجه الطموحات الرومانية، خصوصاً أن هذه الحملة قد ظهرت مع ظهور عدد من الأطراف المعادية للرومان وأصبحت الدولة الرومانية في خوف من التحالفات التي قد تهدد وجود دولتهم ومخططاتهم التوسعية .

◂ انتصارات هانيبال :

تمكن هانيبال من تحقيق سلسلة من الانتصارات للقرطاجيين على الرومان تتمثل في:

- الانتصار على الجيش الروماني في معركة معركة كاناي.
- الاستيلاء على مدينة ساعونتوم حليفة روما.
- قطع نهر تريبيا.

وقد سبق تلك الفترة تحالف بين الملك المقدوني فيليب الخامس وهانيبال

ضد الرومان، وزاد الطينة بلة انفصال سيراكوز في صقلية عن السلطة المركزية في روما ومن هنا أصبحت روما على حافة الهزيمة .

هزيمة هانيبال :

تعددت أسباب الهزائم القرطاجية ومنها:

- قدرة القادة الرومان على مواجهة المصاعب بهدوء ورباطة جأش.
- الاستفادة من الدروس العسكرية القتالية المتابعة بأسرع وقت.
- بقاء معظم حلفاء روما اللاتينيين إلى جانبها في أوقات الأزمات.
- عدم وصول المساعدات والإمدادات إلى قوات هانيبال من قرطاجة.

كانت الحكومة القرطاجية تعاني من الانقسامات والفساد مما أدى إلى عدم مساندة الحملة الهانيبالية.

كان القسم الأكبر من جيش (هنيبال) من الخيالة، وكان هذا السلاح فعّالاً في العمليات القتالية المتحركة والسريعة، ولكنه غير ملائم لعمليات الحصار واحتلال الأراضي. وهذه المواقف والمؤثرات استغلها الرومان فأعادوا تنظيم جيوشهم ونشروها على مختلف الجبهات وقاموا بسلسلة من الحملات التي أدت إلى استعادة كل من مدينتي سيراكوز وكابي، وقرر الرومان فتح جبهة في أسبانيا لمحاصرة قوات هانيبال ومنع التعزيزات من الوصول إليها.

وقد ألحقت القوات الرومانية هزيمة بالقوات القرطاجية في معركة إيليبا Ilipa في إسبانيا وفي هذه الأثناء تراجع الملك المقدوني فيليب الخامس عن التحالف مع هانيبال فسعى الرومان إلى مصالحته.

وقد قاد القائد الروماني مختاريوس سيبيو جيشاً قوامه ٢٥ ألف رجل من

المشاة المدعمين بالخيالة وقطع به البحر الأبيض المتوسط متجهاً إلى قرطاجة، وأصر القرطاجيون على استدعاء هانيبال من إسبانيا لقيادة الجيوش القرطاجية، والتقى الجيشان في معركة زاما التي هزم فيها القرطاجيون. بعد هذه الهزيمة عقدت معاهدة اتفق فيها الطرفان على أن :

- يدفع القرطاجيون الجزية خمسين عاماً.
- تخفيض سفن القرطاجيين إلى عشر سفن.
- عدم شن أي حرب خارج أفريقيا إلا بموافقة روما.

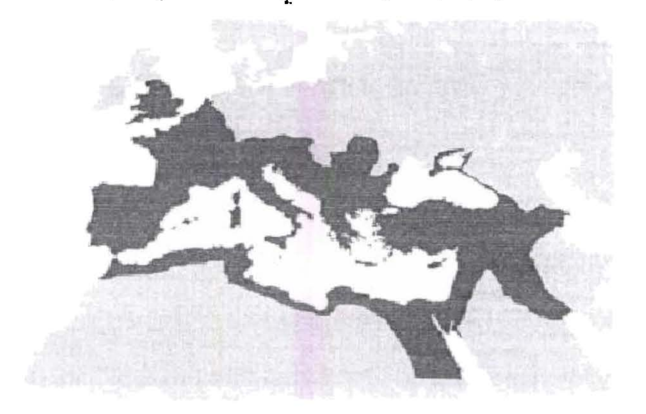
كان من نتائج الانتصار الروماني السيطرة الرومانية على الساحل الإسباني الشرقي والجنوبي وتم تقسيم إسبانيا إلى مقاطعتين تحت اسم إسبانيا القريبة وإسبانيا البعيدة.



أنقاض مدينة وليلي في المغرب (أقدم موقع أثري بالمغرب – عاصمة المغرب القديم وتعد جزءاً من إمبراطورية الرومان وإرثهم)



وصلت الإمبراطورية الرومانية أقصى امتداد لها في العام ٩١٦.



الإمبراطورية الرومانية في سنة ١١٧م: خلال أقصى اتساع لها

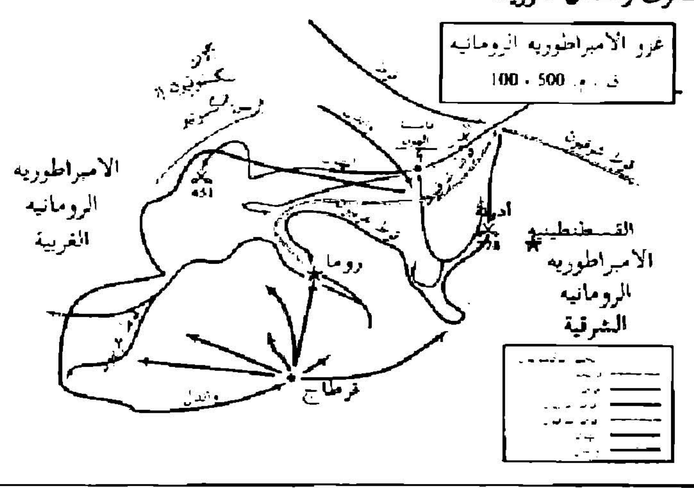
خريطة توضح أقصى امتداد للدولة الرومانية وذلك في عهد تراجان

الفصل الثالث

عصر التوسع الروماني

إثر الانتهاء من درء الخطر القرطاجي اتجهت أنظار الرومان شرقاً وأصبحوا يفكرون في الاستيلاء على مملكة مقدونيا وبالفعل أعلنوا عليها الحرب وكان لهم أهداف تتمثل في :

- الحد أو القضاء على النفوذ المقدوني في الشرق.
- السيطرة على الجزر الواقعة في شرق حوض البحر الأبيض المتوسط نظراً لأهميتها البالغة على صعيد الملاحة والتجارة.
- الوصول إلي أراضي المملكة السلوقية التي كانت تسيطر على أجزاء من آسيا الصغرى وشمال سوريا.

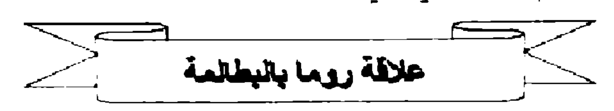


شن الرومان سلسلة من المعارك التي انتهت باحتلال كامل للأراضي المقدونية في الشرق وتم السيطرة على بلاد الإغريق اليونان، وبنهاية هذه الحروب أتسعت حدود الجمهورية الرومانية من إسبانيا غرباً إلى السواحل الغربية لآسيا الصغرى شرقاً، بالإضافة إلى الأراضي القرطاجية في شمال أفريقيا، وقسمت هذه الأراضي الشاسعة إلى سبع مقاطعات مرتبطة بالحكومة المركزية في روما.

وبعد هذه الانتصارات أصبحت الدولة الرومانية دولة عظمى يصعب قهرها وتتحكم بمقدرات العالم القديم الغربي والشرقي، وفي هذه المرحلة بدأ التاريخ الروماني يضج بأسماء القادة والزعماء المنتصرين وتحولوا إلى طبقة حاكمة تؤثر على مجرى الأحداث في روما وخارج.

* الحكم الروماني في مصر والشام :

أولاً : الحكم الروماني في مصر :



مراحل السيطرة الرومانية على مصر

المرحلة الأولى:

كانت علاقة ود وتبادل تجارى فى عهد البطالمة الأوائل.

المرحلة الثانية:

أخذت شكل التدخل السياسي الروماني فى شئون مصر وفرضت روما حمايتها على البطالمة باعتبارها القوة العظمى فى العالم

المرحلة الثالثة:

أخذت العلاقات شكلا جديدا فأصبح التدخل بالقوة العسكرية حتى سيطرت روما على مصر عام 30 ق.م.

يقول ألفرد بتلر عن الحكم الروماني في مصر:

"إن حكومة مصر (الرومانية) لم يكن لها إلا غرض واحد، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم في الحياة أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم".

حكم البطالمة خلفاء الاسكندر الأكبر مصر بعد وفاته وتمكنوا من إنشاء دولة فيها تمتعت بكل مظاهر الاستقلال حتى سنة ٣١ق.م؛ حيث تمكن اوكتافيوس من الانتصار على قوات البطالمة بقيادة كليوباترا السابعة وانطونيوس في موقعة أكتيوم البحرية في سبتمبر في نفس هذه السنة، ثم دخوله مصر وإخضاعها للإمبراطورية الرومانية في أغسطس سنة ٣٠ ق.م. ومنذ ذلك التاريخ صارت مصر ولاية رومانية وانتهت دولة البطالمة في مصر.

* كيفية خضوع مصر للإمبراطورية الرومانية :

كانت في إيطاليا بلاد تعرف قديماً باسم "لاسيوم" مؤلفة من ثلاثين مدينة مستقلة في إدارتها وشئونها الداخلية، ولكنها متحدة مع بعضها في دفع الأعداء عنها، وكانت أهم تلك المدن هي : روما التي أنشئت سنة ٧٥٣ ق.م وأشتق اسمها من اسم مشيدها "الأمير روميليوس"، وكانت الحكومة الرومانية ملكية مطلقة، تمكن ملوكها تدريجياً من إخضاع كل مدن لاسيوم وتوحيدها في دولة واحدة ما لبثت أن قويت وازدهرت وتوسعت إلى أن تمكنت من حكم جزء كبير من العالم المعروف يومئذ لمدة حوالي سبعمائة سنة فيما يعرف بالإمبراطورية الرومانية.

وكانت مصر أخر أقطار المنطقة التي سقطت في أيدي الرومان، وكان نفوذ روما قد بدأ يتغلغل في مصر منذ عصر بطليموس الخامس في القرن الثاني قبل الميلاد، وزاد مع وفاة بطلميوس التاسع سنة ٨٠ ق.م، حيث كان الحكام البطالمة يلجأون إلى روما لتقوية مركزهم نتيجة للإضطرابات الداخلية وتنازعهم على الحكم، حتى أصبح الملك البطلمي لا يستقر على عرشه دون رضاء روما عنه ودون أن تسنده قوة رومانية تقيم في الاسكندرية.

وفي مطلع العهد الروماني بمصر بعد مقتل يوليوس قيصر، درات في روما حرب أهلية طاحنة انتهت بانتصار أوكتافيوس وأنطونيوس على أعدائهم وسيطرتهم علي الإمبراطورية الرومانية. ثم قاموا بتقسيم الإمبراطورية إلي قسمين القسم الغربي ويحكمه أوكتافيوس والقسم الشرقي ويحكمه ماركوس أنطونيوس.

وعندما ارتقت كليوباترا السابعة عرش مصر سنة ٥١ ق.م قام صراع بين دولة البطالمة والرومان، حاولت فيه تلك الملكة أن تستميل قلب يوليوس قيصر ومن بعده أنطونيوس، فعندما ذهب أنطونيوس إلي القسم الشرقي فتن بجمال كليوباترا السابعة حاكمه مصر، فأصبح طوع بنانها، ولكنها اكتسبت كراهية الرومان، فعقدوا العزم على التخلص منها ومن أنطونيوس، حيث تزوجت كليوباترا من أنطونيوس في الوقت الذي كان لا يزال متزوجاً من أوكتافيا شقيقة أوكتافيوس مما أدي الي تأزم العلاقة بينهما، لدرجة أن انطونيوس أعلن طلاقه من زوجته أوكتافيا شقيقة أوكتافيوس، وقام بتقسيم الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية الرومانية علي كليوباترا وابنها قيصرون وأبنائه منها.

وقد استغل أوكاتفيوس بعض الأخطاء التي وقع فيها انطونيوس في الشرق لشن حملة سياسية شعواء ضده والتنديد بعلاقته بالملكة المصرية؛ فبحكم وجود

أوكتافيوس في روما استطاع أن يثير الرأي العام الروماني ضد أنطونيوس والملكة المصرية، حيث صور موقفه علي أنه قد حول الولايات الشرقية كلها إلى مملكة من الطراز الشرقي يجلس هو وكليوباترا علي عرشها ويرثها أبنائهم وهو ما يعني خيانة الشعب الروماني.

ولما كان أوكتافيوس يدرك أن لأنطونيوس أنصاراً بين الرومان، فانه لم يعلن الحرب علي أنطونيوس حتي لا تبدو حرباً أهلية بين زعيمي روما من أجل التنافس علي السلطة وانما أعلن الحرب علي كليوباترا بإعتبارها عدوة للشعب الروماني حتي يضفي عليها صفة الحرب القومية ضد الخطر الأجنبي القادم من الشرق، ويظهر أنطونيوس بمظهر الخائن لبلاده. وهكذا وقعت معركة أكتيوم البحرية وانتصر أوكتافيوس علي أنطونيوس وانتحر أنطونيوس بعد أن أشاعت كليوباترا أنها ماتت وبعد أن أوصدت جميع الأبواب في وجهه. وأما كليوباترا عندما أيقنت أنه لم يبق إلا أن تُحمل ذليلة إلي روما لتعرض عبر شوارعها في مهرجان نصر أوكتافيوس؛ لذلك قامت بالإنتحار بواسطة حية الكوبرا، رمز الخلود عند المصريين، وهي ميتة ترفعها إلى مصاف الآلهات.

وفي نهاية شهر أغسطس سنه ٣٠ ق. م أعلن اوكتافيوس (الإمبراطور اغسطس فيما بعد) ضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية وممتلكات الشعب الروماني.

وكانت مصر تتمتع بموقع جغرافي هام، وثروة طائلة، وكانت أهميتها بالنسبة للإمبراطورية الرومانية تتمثل في عامل إقتصادي هو القمح المصري الذي كانت روما تعيش عليه منذ وقت طويل.

وعمل أغسطس بعد فتحه لمصر على إزاحة كل ما يمكن أن يعوقه في الحكم، فقتل أنتيليوس ابن أنطونيوس كما قتل قيصرون ابن كليوباترا من قيصر، أما الأبناء الثلاثة لكليوباترا من أنطونيوس فكانوا أصغر سناً فأودعهم عند الزوجة الرومانية لأنطونيوس، وهي أخته أوكتافيوس، والتي كان أنطونيوس قد هجرها من أجل كليوباترا، وقد مات الصبيان بعد حين بينما تزوجت الفتاة أحد أمراء الولايات الرومانية.

* الحياة السياسية :

ظلت مصر في الفترة التي ما بين سنة ٣١ ق.م وسنة ٣٩٥م تابعة للدولة الرومانية واعتمدت روما في توطيد سلطانها على مصر بالقوة العسكرية والتي أقامت لهم الثكنات في أنحاء البلاد فكان هناك حامية شرق الاسكندرية وحامية بابليون وحامية أسوان وغيرها من الحاميات التي انتشرت في أرجاء البلاد.

وكان يتولى حكم مصر والي يبعثه الإمبراطور نيابة عنه ومقره الاسكندرية يهيمن على إدارة البلاد وشئونها المالية وهو مسئول أمام الإمبراطور مباشرة وكانت مدة ولايته قصيرة حتى لا يستقل بها، وهذا ما جعل الولاة لا يهتمون بمصالح البلاد بل صبوا اهتماماتهم على مصالحهم الشخصية وحرموا المصريين من الاشتراك في إدارة بلادهم مما جعلهم كالغرباء فيها، بالإضافة إلى منعهم من الانضمام للجيش حتى لا يدفعهم ذلك إلى جمع صفوفهم ومقاومة الرومان في المستقبل. وأمام هذه السياسة الجائرة فقد رأى المصريون أن الرومان مغتصب آخر أخذ الحكم من مغتصب أول وهم البطالسة، فلم يتغير من الوضع شيء بل إزداد الأمر سوءاً كما كان يحدث عادة عند انتقال الحكم من أسرة فرعونية إلى أخرى فرعونية.

وقد رضخ المصريون لهذا الحكم فترة وثاروا في فترات وكانت الحاميات الرومانية تقضي على هذه الثورات بكل عنف ومن أخطر هذه الثورات ما حدث في عهد الإمبراطور ماركوس أورليوس (١٦١-١٨٠)م وعرف بحرب الزرع أو الحرب البكوليه – نسبة إلى منطقه في شمال الدلتا – وتمكن المصريون من هزيمة الفرق الرومانية وكادت الاسكندرية أن تقع في قبضة الثوار لولا وصول إمدادات للرومان من سوريا قضت على هذه الثورة.

١- الحكم والإدارة :

نجحت مصر تحت السيطرة الرومانية في الإبقاء على معظم نظام الحكم الذي كان يوجد تحت البطالمة. وقد قدم الرومان تغييرات هامة في النظام الإداري، موجهة إلى تحقيق مستوى عالي من الكفاءة ولتعظيم الدخل. واجبات حام مصر جمعت مسئوليات عن الأمن العسكري من خلال قيادة الفيالق cohorts، وتنظيم المالية والضرائب، وإدارة العدل.

وباستيلاء أغسطس على مصر وقضائه على حكامها البطالمة يبدأ عهد جديد في البلاد؛ تصبح بمقتضاه مصر ولأول مرة في تاريخها الطويل تابعة لإمبراطورية أخرى هي الإمبراطورية الرومانية، ويختلف المؤرخون في الوضع القانوني لمصر داخل هذه الإمبراطورية؛ فمصر بما كانت تتمتع به من تاريخ قديم، وشأن متميز بين الأمم وموقع إستراتيجي وقوة ومنعة وثروة واسعة لا يمكن أن تصبح مجرد ولاية رومانية؛ مثلها مثل باقي الولايات. ودون الدخول في تفاصيل الجدل الفقهي الذي دار بين المؤرخين الأقدمين عن وضع مصر يمكن الجزم بأن مصر كانت لها وضعاً متميزاً وفريداً بين ولايات الإمبراطورية الرومانية الأخرى.

فقد وضع فيها أغسطس قوات رومانية لتأمين سلامتها، ووضعها تحت إشرافه المباشر، وفي سنة ٢٧ ق.م قسمت الولايات الإمبراطورية إلى ولايات خاضعة للسناتو، وولايات خاضعة للإمبراطور، وكانت مصر من الولايات الخاضعة للإمبراطور مباشرة، أما حاكم مصر من قبل الرومان فلم يكن كغيرة من الحكام الذين كانوا يعدون نواباً للإمبراطور تحت اسم قائم مقام قنصل أو قائم مقام برايتور، وإنما كان لقب برايفكتوس أي والي أو حاكم عام واللقب الرسمي (حاكم عام الاسكندرية ومصر) كما وضع الإمبراطور قاعدة (ألا يزور مصر أحد من رجال السناتو أو من طبقة الفرسان إلا بإذن خاص منه). وبذلك أصبح الإمبراطور الروماني هو الملك الرسمي للبلاد، يتمثل في شخصه ما تمثل في شخص فرعون من قداسة وتأليه، وكانت تخلع عليه الألقاب الفرعونية المألوفة .

وقد ترتب على ضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية فقدانها لاستقلالها السياسي، وإرتباط مصيرها بمصير الدولة الرومانية، وذلك على خلاف ما كان عليه الحال في العصر البطلمي، حيث كانت مصر دولة مستقلة تحكمها أسرة حاكمة من أصول مقدونية، ولكنها تتشبه بفراعنة مصر الأقدمين في كل شئ. أما من وجهة النظر التاريخية فإن تاريخ مصر السياسي تحت حكم الرومان يختلف تمام الإختلاف عن تاريخها في العصر البطلمي، فلم يعد لها سياسة مستقلة أو تاريخ مستقل.

وتمتد فترة الحكم الروماني لمصر حوالي ثلاثة قرون، إبتداء من ضمها للإمبراطورية الرومانية على يد الإمبراطور أغسطس سنة ٣٠ ق.م إلى تقسيم الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤–٣٠٥)م إلى غربية عاصمتها روما، وشرقية عاصمتها بيزنطة (القسطنطينية فيما بعد) ووقوع مصر في

نفوذ الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية. وعلى إمتداد هذه القرون الثلاثة إعتمد الرومان في توطيد سلطانهم في مصر على القوة، فأقاموا الحاميات العسكرية في الأماكن الرئيسية التي تمكنهم من السيطرة على كافة أنحاء البلاد. في الاسكندرية وفي بابليون وفي طيبة وفي أسوان، ولم يكتف الرومان بالقوة العسكرية، ولكنهم لجأوا إلى الأساليب السياسية بتأليب عناصر السكان المختلفة من المصريين والرومان والأغريق واليهود على بعضهم، ليضمنوا لأنفسهم إخضاع البلاد، مما جعل الحياة السياسية في مصر خلال العصر الروماني تتميز بكثرة الفتن وشيوع الإضطرابات التي تباينت أسبابها، وإختلفت مظاهرها تبعاً للعهود.

بعد أن صارت مصر بالفتح الروماني إحدى الولايات التابعة للإمبراطورية الرومانية، كان الإمبراطور يختار لمصر الولاة لتدبير الأمور، وكان الوالي يستعين في إدارة شئونها بعدد من كبار العاملين في الإدارة المركزية وفي الأقاليم، ولم يترتب على دخول مصر في الدولة الرومانية تغيرات هامة في إدارة البلاد، لأن سياسة روما بوجة عام في خلال فتوحاتها في الشرق كانت تقضي بتجنب التدخل قدر الإمكان في نظم البلاد التي كانت فيها إدارة منظمة، ولذلك فقد سارت الإدارة الرومانية على النظام الذي كان البطالمة قد وضعوه، اللهم إلا بعد التعديلات، وبعض التطور مع مرور الوقت.

الإمبراطور :

كان الإمبراطور الروماني يعد بالنسبة لمصر الملك الشرعي للبلاد ووريث الفرعون، وأصبحت صورته تظهر على المعابد في زي الفراعنة مثلما كان يفعل البطالمة، وعلى رأسه التاج المزدوج للوجهين القبلي والبحري، واسمه محفور داخل

خرطوش بالهيروغليفية، لكن الإمبراطور لم يكن يدير شئون مصر بنفسه وإنما كان يعهد بإدارتها إلى موظف يختاره كان يسمى والي مصر أو الوالي.

◀ الوالي :

كان والي مصر يحمل لقباً لم يحمل مثله حاكم أية ولاية أخرى وهو "برايفكتوس" أي (والي) أو حاكم عام، وكان ذلك بقصد تميز مصر عن غيرها من ولايات الإمبراطورية الرومانية، فكان والي مصر يعد أهم والي من طبقة الفرسان في الإمبراطورية كلها. ويعتبر والي مصر هو نائب الإمبراطور، وهو الحاكم الفعلي للبلاد، وكان يستمد سلطانه من الإمبراطور، حيث كان يخضع له خضوعاً تاماً فيما يتعلق بتعيينه وعزله، وكان الوالي يقيم في العاصمة الاسكندرية. والوالي هو الرئيس الأعلى للإدارة والعدالة والجيش والشئون المالية، ورغم أن لقبه الرسمي كان والي أو حاكم، إلا أنه كان يمارس السلطات التي مارسها قبله ملوك البطالمة، وكانت سلطاته مطلقة وغير مقيدة. ومن اختصاصاته كرئيس أعلى للإدارة المدنية أنه كان يتولى تعيين كبار الموظفين الذين يستعين بهم في إدارة شئون البلاد، وإن كان الإمبراطور يتدخل أحياناً لتعيين بعض كبار الموظفين كمعاونين للوالي ومراقبين له في ذات الوقت، وكانت اختصاصاته على النواحي المالية للبلاد هي أبرز مهامه، فعليه جباية الضرائب التي يحددها له الإمبراطور ونقلها إلى روما، وهو الذي يشرف على كيفية إنفاق الدخل المخصص لمصر. ومن اختصاصاته العسكرية أنه يعتبر قائد الجيش الروماني في مصر، وكان في بادئ الأمر يقود الجيش بنفسه، ويشرف على نظام التجنيد، والنظر في مسائل الأحوال الشخصية الخاصة بالجنود. أما اختصاصه القضائي فيتمثل في أنه كان يعتبر القاضي الأول للولاية، وأحكامه نهائية، وله الحق في النظر في القضايا المدنية، بل وفي بعض الأحيان في المسائل

الجنائية. وفي بعض الأحيان يفصل الوالي بنفسه في القضايا التي ترفع إليه مستعيناً بمجلس قضائي أو يفوض بعض معاونية من رجال الإدارة للفصل فيه.

٢ - السلطة المركزية :

ورث الرومان عن البطالمة جهازاً بيروقراطياً كبيراً؛ إلا أن هذا الجهاز كان قد تفشى فيه الفساد والتسيب، وهو ما يظهر في المصادر التي ترجع إلى أواخر حكم البطالمة، وقد عمل الرومان على إصلاح الجهاز الإداري، وإدخال تعديلات تلائم أهداف الحكم الجديد.

يأتي الوالي الروماني على قمة الإدارة العسكرية والمدنية ، ويستمد سلطاته من كونه ممثل الإمبراطور في الولاية، وبالنسبة لسكان مصر كان الوالي في نظرهم يحتل مركز الملك، وهي الحقيقة التي ذكرها بعض الكُتاب القدامى؛ حيث ذكروا أن مصر في عصر الرومان حكمها رجال لهم منزلة الملوك، وكان الوالي الروماني في مصر يسلك مسلك الملوك القدامى، فلم يكن يبحر في النيل في زمن الفيضان، وكان يذهب مع حاشيته إلى جنوب مصر، حيث المكان الذي كان يُعتقد أن النيل ينبع منه، ويقوم بالقاء هدايا من الذهب والفضة طلباً للبركة وتعبيراً عن العرفان للنيل. وبمقتضى السلطة التي كان يتمتع بها الوالي الروماني، فإنه كان يتولى قيادة القوات الرومانية التي تعسكر في مصر، وكانت الجماهير تصطف لتحيته كل صباح، ويتلقى الشكاوي والإلتماسات، ومن حقه إصدار الأحكام بالإعدام ومصادرة الممتلكات، وكان يترأس أعلى محكمة في البلاد وهي محكمة الوالي.

ولم يكن من عادة الولاة تسجيل إنجازاتهم في النقوش، مع إستثناء ذلك التصرف الذي أقدم عليه كورنيليوس جاللوس، أول الولاة في عصر أغسطس، والذي استوجب تقديمه للمحاكمة، وكان اسم الوالي عادة ما يُذكر مرتبطاً باسم

الإمبراطور . وعندما كان الوالي يقوم بزيارة بعض المناطق في مصر، كان يستقبل بحفاوة، ويجرى تزيين تماثيل الآلهة وتقام المهرجانات إحتفالاً بمقدمه. والوالي هو ممثل الإمبراطور؛ وكان الإمبراطور هو الملك الشرعي، وفرعون مصر، وقد رسم على المعابد كما كان البطالمة يمثلون من قبل في زي الفراعنة وعلى رأسه التاج المزدوج لمصر العليا والسفلى وأمامه اسمه محفوراً على خرطوشه بالهيروغليفية.

وكان الأباطرة يحرصون أشد الحرص، ألا يتولى منصب والي أحد الأشخاص لفترة طويلة، حتى لا يتحول إلي مركز قوة، وكانوا يرسلون من يثقون فيهم من رجالهم لتولي هذا المنصب الحساس.

ومن المُلاحظ أن أهمية منصب والي مصر، أخذت في الإنخفاض بعد أن قلت موارد مصر الإقتصادية، ولم يعد ينظر إلى والي مصر بإعتباره متميزاً عن غيره من الولاة في الإمبراطورية، وتوارى الخوف من إسناد هذا المنصب إلى رجل من طبقة السناتو. وعند تعيين والي جديد كان على الوالي أن يظل في مصر حتى دخول الوالي الجديد، وفي حالة خلو المنصب لأسباب طارئة يتم إختيار واحداً من كبار الموظفين في الولاية لتصريف الأمور لحين وصول الوالي الجديد من روما .

كان الوالي يترأس الجهاز الإداري في البلاد، وكانت مصر مقسمة إلى ثلاثة أقاليم؛ وهي إقليم طيبة "مصر العليا" ، وإقليم المديريات السبعة وأرسينوي "مصر الوسطى"، ثم "أقليم الدلتا". وعلى رأس كل إقليم من هذه الأقاليم موظف يدعي إبستراتيجوس؛ وكان هذا الموظف يتم إختياره عن طريق الإمبراطور، ولابد أن يكون مواطناً رومانياً. وقد إنقسمت الأقاليم إلى وحدات أصغر هي المديريات، وعلى رأس كل مديرية موظف حمل لقب الاستراتيجوس؛ وكان الوالي هو الذي يعينه، كما كان الوالي يقوم بتعيين مدير إدارة السجلات في المديرية؛ والذي ظل

يحمل اللقب القديم منذ عصر البطالمة؛ وهو لقب الكاتب الملكي. و يوجد إلى جانب الوالي في الاسكندرية مجموعة من المعاونين يختص كل واحد منهم بأحد القطاعات، فكان من بينهم "اليوريديكوس" الذي يختار من الرومان المنتميين إلى طبقة الفرسان، ومهام هذا الموظف تتضمن بعض إختصاصات وزير العدل، وهناك موظف قضائي آخر يطلق عليه الأرخي ديكاستيس، كما كان يوجد مساعد آخر للوالي مهمته الإشراف على حفظ الوثائق والسجلات ويدعى كاتب الوثائق، وكان عليه أن يعد كافة الوثائق التي يحتاج إليها الوالي، وكان مساعد الوالي في البداية في الشئون المالية يحمل اللقب البطلمي وهو الديويكتيس، وفي منتصف القرن الثاني آلت السلطة التي كان يمارسها الوالي في النواحي المالية إلى إدارة جديدة هي إدارة الحساب الخاص (الإديوس لوجوس).

كان الوالي يشرف إشرافاً كاملاً على الشئون الدينية، وكانت موارد المعابد تخضع لرقابته، ولكن لم يلبث الإشراف على المعابد أن إنتقل إلى موظف حمل لقب الكاهن الأعلى مع إنه لم يكن كاهناً؛ بل موظفاً مدنياً رومانياً، وإنتقل بعد ذلك إلى سلطة مدير الحساب الخاص (الإيديوس لوجوس). وقد إمتدت سلطة الوالي على الأفراد لكي تشمل ضرورة الحصول على موافقته عند مغادرة البلاد؛ فقد كانت مداخل مصر ومخارجها تخضع لرقابة شديدة، وكانت مسألة السفر أمراً مستحيلاً بدون الحصول على موافقة الوالي، ومن سلطته أن يقوم بتوقيع العقوبة على من يغادرون البلاد دون إذنه. كان الوالي يقوم بتصريف شئون الولاية عن طريق المراسلات ، فكان يتلقى تقارير مفصلة عن كافة مظاهر النشاط في أرجاء مصر ، فهناك تقارير عن الضرائب والتعداد وتسجيل الملكية، وسجلات المواليد والوفيات، وتقارير عن مصادر دخل الدولة، كما كان يتلقى الإلتماسات من الأهالي

ويقوم بتحويلها إلى جهات الإختصاص. وكان الوالي يصدر المراسيم المختلفة. وكانت اللغة التي تصدر بها المراسيم هي اللغة الإغريقية: وبعض تلك المراسيم كانت تصدر بصفة روتينية، مثل المراسيم الخاصة بإجراء التعداد، فكانت الإدارة الرومانية في مصر تقوم بإجراء تعداد للسكان كل أربعة عشر عاماً. كما كانت هناك مراسيم تصدر في ظروف خاصة مثل المراسيم التي كان يصدرها الولاة لحض الهاربين على العودة إلى مواطنهم، وكانت هذه المراسيم في العادة تحتوي على قرارات تقضي بالإعفاء عن الهاربين، وتخفيف الأعباء المفروضة عليهم والتي كانت تؤدي إلى هروبهم.

وكان الأباطرة يستندون إلى تقارير الولاة في كل ما يصدرونه من قرارات تتعلق بالولايات، وكان من حق الأهالي رفع شكواهم إلى الإمبراطور مباشرة.

حرص الرومان على الحصول على أكبر قدر ممكن من دخل ولاية مصر؛ لذلك كان الإشراف على الشئون المالية من أهم واجبات الوالي، ونظراً لأن مصر كانت تمثل أهمية قصوى كمصدر للغلال للإمبراطورية فإن الغلال التي كان يجرى شحنها إلى روما كانت في معظمها من الضرائب المقررة على مصر، وكان الإشراف على الضرائب من أولى المهام التي أعطيت للوالي في مصر. وكان الوالى هو الذي يحدد مقدار الضريبة التي يتم جبايتها في ضوء التقارير التي ترد إليه، وينفق معظم وقته في مراجعة تقارير الضرائب في المديريات، أما مقدار الضريبة الذي كان على الولاية أن تدفعة إلى روما؛ فالإمبراطور هو الذي يحدده؛ وذلك بناء على التقارير التي يتلقاها من الوالي . وكان الوالي يتمتع بسلطة مطلقة في تقدير الضرائب داخل مصر، ولكن يحد من هذه السلطة تدخل الإمبراطور الذي كان يُعد السلطة الوحيدة التي تملك الحق في تقرير الإعفاء الضريبي، أما فيما يخص الخدمات الإلزامية فإن

الوالي لم يكن يتدخل في هذا المجال خلال القرنين الأول والثاني، ولكن القرن الثالث شهد إشرافاً كاملاً للوالي على نظام الخدمات الإلزامية.

وكان الوالي يقوم بجولات تفقدية في أقاليم مصر، بشكل دوري يعقد خلالها جلسات المحكمة التي كانت تُعد أعلى سلطة قضائية؛ وهي محكمة الوالي، وكانت تنعقد ثلاث مرات في العام؛ مرة في بيلوزيوم للنظر في قضايا شرق الدلتا، ومرة في الاسكندرية للنظر في قضايا غرب الدلتا، أما المرة الثالثة فكانت تنعقد في منف للنظر في قضايا باقي الأقاليم، ولم يكن هناك ما يمنع من قيامه بعقد هذه المحكمة بشكل إستثنائي في أماكن أخرى.

* ولاة مصر في عهد الرومان :

أول حاكم لإجيبتوس، كايوس كورنليوس كالوس؛ وضع الصعيد تحت السيطرة الرومانية بقوة السلاح، وأسس محمية في منطقة الحدود الجنوبية، والتي كانت قد هجرها البطالمة المتأخرين. الحاكم الثالث، كايوس بترونيوس؛ طهر قنوات الري المهملة، مما أنعش الزراعة. ومن عهد نيرون، شهدت مصر عصراً من الازدهار دام قرناً.

لكن معظم المشاكل كان سببها صراعات دينية بين المسيحيين واليهود، خصوصاً في الاسكندرية، التي أصبحت بعد تدمير القدس المركز العالمي للديانة والثقافة اليهوديتين. وتحت تراجان حدث تمرد يهودي، نتج عنه قمع اليهود في الاسكندرية وفقدان كل امتيازاتهم، إلا أنهم سرعان ما استعادوها .

وبدءاً من عهد أنتينوؤبوليس أصبحت المباني تُشيد على الطراز اليوناني الروماني في جميع أنحاء مصر. وبالرغم من ذلك، ففي عهد ماركوس أورليوس،

أدت الضرائب المرهقة إلى عصيان عام ١٣٩، من المواطنين المصريين، والذي لم يتم إخضاعه إلا بعد عدة سنين من القتال. هذه الحرب الريفية أحدثت ضرراً هائلاً بالاقتصاد وسجلت بداية الهبوط الاقتصادي لمصر.

أفيدوس كاسيوس، الذي قاد القوات الرومانية في الحرب، أعلن نفسه إمبراطوراً، وقد اعترفت به جيوش سوريا وإجيبتوس. إلا أنه لدى اقتراب ماركوس أورليوس فقد أزيح عن الحكم وقتل، ورأفة الإمبراطور هي التي استعادت السلم.

وقد اندلع عصيان مماثل في ١٩٣م، عندما أعلن بسكنيوس نيكر نفسه امبراطوراً عند وفاة برتيناكس. وقد أعطى الإمبراطور سبتيميوس سويرس دستوراً للاسكندرية والعواصم الإقليمية في ٢٠٢م. نشبت سلسلة من العصيانات؛ عسكرية ومدنية طوال القرن الثالث. وفي عهد دقيوس في ٢٥٠م عانى المسيحيون مرة أخرى من الاضطهاد، إلا أن ديانتهم استحرت في الانتشار.

وفي ظل الحكم الروماني لمصر شعر المصريين بإضطهاد كبير لهم نتيجة :

١ – إلغاء مجلس المدينة الذي كان يعقد أثناء فترة الحكم البطلمية لمصر.

٢ – الضرائب الباهضة التي تفرض علي المصريين.

٣ – عدم مشاركة المصريين في الحكم.

٤ – الاستغلال الاقتصادي لثروات مصر، فقد أصبحت مصر مزرعة للقمح لتزويد روما وتوزيعها على سكانها لكسب تأييدهم.

ومع مرور الوقت ازادات سوء معاملة الرومان للمصريين مما دفعهم للثورات.

٣- الثورات :

- لم يكد يمضي عام على الفتح الروماني حتى شبت ثورة في طيبة بسبب ضرائب جديدة كان الإمبراطور أغسطس قد فرضها قبل مغادرته لمصر عائداً إلى روما، وامتدت هذه الثورة إلى الدلتا ولكن الوالي الروماني تمكن من إخمادها بالعنف.

- ثورة الفلاحين في عهد ماركوس أورينيوس: ثورة الرعاة والفلاحين القرن الثاني الميلادي في عام ١٧٣ قام الفلاحون المصريون في شمال الدلتا بثورة عنيفة اتخذت شكل حرب العصابات وعرفت في المصادر الرومانية باسم ثورة (الرعاة Bucolic). فكانت أول ثورة عنيفة للمصريين نسمع عنها منذ ثورات إقليم طيبة في مطلع العصر الروماني. وهي الثورات التي أخضعها أولاً الولاة الرومان على مصر وهو كورنيليوس جالوس. وقد تزعم ثورة الفلاحين أحد الكهنة فيما يبدو واسمه "إيزودور" ويعني ذلك أن الكهنة المصريين كانوا لا يزالون حتى ذلك الوقت يشكلون القيادات الوطنية. والحقيقة هي أن أحوال الفلاحين المصريين كانت تزداد سواءاً على مر الأيام حتى بلغت منذ منتصف القرن الثاني الميلادي حداً لا يحتمل تحت وطأة نظام ضرائب، وخدمات إلزامية Leitourgiae لم تكن موزعة توزيعاً عادلاً متكافئاً مع القدرة المالية بين الأغنياء والفقراء وأعمال سخرة أكره عليها الفلاحون وشملت أشخاصهم ودوابهم.

- وفي عهد الإمبراطور كاليجولا (٣٧ - ٤١)م بدأت سلسلة من الفتن كان أساسها الصراع بين اليهود والإغريق تم إخمادها والقضاء عليها، ولكنها تجددت في عهد نيرون (٥٤ - ٦٨)م.

وقد حاول بعض الأباطرة الرومان ومنهم تيتوس (٧٩-٨١)م وميتيانوس (٨١-٩٦)م أن يكتسبوا ود أهل مصر بإظهار الإجلال والإحترام للآلهة المصرية،

وفعلا نعمت مصر ببعض السكينة والهدوء في عهد الإمبراطور نيرفا (٩٦–٩٨)م وأوئل عهد الإمبراطور تراجان (٩٨–١١٧)م، ولكن ما لبثت نار الفتنة بين الإغريق واليهود أن ثارت مرة أخرى، وتطورت الأمور بسرعة وأصبحت المواجهة بين اليهود من جهة والسلطة الرومانية نفسها من جهة أخرى؛ فقد قام اليهود بثورتهم الكبرى سنة ١١٥م، التي ظلت نارها مشتعلة قرابة العامين قتل خلالها الكثير من الرومان والإغريق والمصريين، وعمدوا إلى تدمير الطرق والمعابد والمباني وإلى تخريب الممتلكات والحقول، وإنتهت الثورة مع بداية حكم الإمبراطور هادريان (١١٧–١٣٨)م الذي وجه عنايته إلى إصلاح ما أتلفته تلك الثورة.

وفضلاً عن ذلك فقد ترتب على ثورة اليهود المدمرة في عهد تراجان تخريب الأراضي الزراعية وإهمال نظام الري، فساءت أحوال الزراعة وهجر الفلاحون أراضيهم عندما رأوا ألا جدوى من فلاحتها وإحيائها ما دام لا يبقى لهم من ثمرة جهدهم فيها إلا النزر اليسير. ومما يدل على سوء الأحوال تفشي ظاهرة فرار المزارعين من الأرض وهجر الأهالي للمواطن (محل الإقامة Idia)، وهو ما عرف في لغة الوثائق (بالتسحب Anachoresis) إما للعجز عن أداء الضرائب أو فرار من خدمة إلزامية، فكان "المُتسحب" يلجأ إلى المدن الكبيرة وخاصة الاسكندرية على أمل أن يجد فيها عملاً يرتزق منه، أو يتوارى على الأقل عن أعين السلطات التي كانت تجد في طلبه لإعادته إلى موطنه Idia، فإن لم يجد المتسحب إلى ذلك سبيلاً لاذ بأحراش الدلتا وربما التحق بعصابات قطاع الطرق.

هكذا بدأ الرومان يحصدون الثمار المرة لسياستهم الاقتصادية الخرقاء في ابتزاز ثروة مصر وامتصاص الطاقة الإنتاجية لأراضيها وأهليها. ويبدو أن المصريين انتهزوا فرصة سحب بعض القوات من مصر للمشاركة في الحروب التي خاضتها

الإمبراطورية ضد قبائل الجرمان في منطقة الدانوب، فثاروا ثورتهم تلك التي بلغ عن عنفها أن عجزت القوات الرومانية عن مواجهتها، بل كادت مدينة الاسكندرية أن تسقط في يد الثوار. ولم يتدرك الأمر سوى وصول نجدة من سوريا تحت إمرة فيديوس كاسيوس قائد القوات هناك، وقد لجأ هذا إلى أسلوب المكيدة والخداع مع الثوار لكي يوقع بينهم، وعندما نجح في استمالة بعضهم، تحول الباقون إلى شراذم فتمكن من تعقبهم حتى قضى عليهم، ثم عاد إلى سوريا منتصراً بعد أن ترك فيها نائباً عنه.

وساد مصر بعض الهدوء في عهود الأباطرة الرومان التاليين وهم: أنطونينوس بيوس (١٣٨-١٦١)م، وماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠)م، وكومودوس (١٨٠-١٩٢)م، وبرتيناكس ١٩٣م، وسفروس (١٩٣-٢١١)م.

ومع أحقاد الاسكندريين في عهد الإمبراطور كومودوس كان ماركوس أوريليوس أخر حلقة في سلسلة الأباطرة الصالحين لأن ابنه وخليفته كومودوس (١٧٦-١٩٢) كان على النقيض من أبيه تماماً؛ فقد اتبع في سياسة الحكم أساليب بالغة العنف، واستبدت به شهوة الانتقام فتعقب أفراد أسرة أفيديوس كاسيوس حتى استأصل شأفتهم، ومضى في محاكمة زعماء الإسكندريين وأعدم الكثير منهم. وقد بينت تلك البردية التي تعرف باسم (أعمال أبيانوس Acta Appiana) أن صراع الاسكندريين مع الأباطرة الرومان أصبح سافراً. فالبردية تضم أجزاء من محاضر محاكمة أبيانوس أحد زعماء الإسكندريين الذين تم إعدامهم على يد كومودوس، وهي توضح مدى الكراهية والحقد على الرومان وتتهمهم بممارسة أسوأ أنواع الابتزاز وهو أخذ القمح من مصر وبيعه في الخارج بأربعة أضعاف ثمنه. وقد ازدادت أحوال مصر سوءاً في عهد كومودوس بحيث لم

تعد تبعث علي اطمئنان روما إلى ولاية مصر، ولعل من الأمور ذات الدلالة في هذا الصدد ما قام به كومودوس من بناء أسطول جديد لنقل القمح من شمال إفريقيا إلى روما لمواجهة الموقف إذا ما تأخر وصول القمح من مصر.

ويعتبر القرن الثالث الميلادي من الفترات الهامة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية لما تميز به من أنه فترة إنتقال من الحضارة القديمة إلى حضارة العصور الوسطى، وما أحاط بذلك من تغيرات جوهرية من ظروف المجتمع السياسية والإقتصادية والإجتماعية والدينية، ومن أبرز أحداث هذه الفترة : كثرة الإنقسامات السياسية، والتنازع حول العرش، وتدخل الجيش لتعيين أو عزل أو قتل الأباطرة. وكان للمصريين نصيب من هذه الأحداث وكان موقفهم بصفة عامة هو مناصرة كل دعي للعرش أو ثائر على السلطة المركزية في روما، وذلك لإظهار كراهيتهم الشديدة للحكم الروماني. وتعتبر الفترة التاريخية الممتدة من عهد الإمبراطور كراكلا (٢١١–٢١٧)م إلى عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤–٣٠٥)م من الفترات العصيبة التي كثرت فيها المحن والمؤامرات والإنقسامات السياسية والحروب الأهلية في معظم أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وبالطبع لم تشذ مصر عن غيرها من الولايات فقد كان لها نصيبها من هذه الأحداث.

وفي منتصف القرن الثالث لاحظ الإمبراطور ديقيوس (٢٤٩–٢٥١)م أن المسيحية قد زاد إنتشارها وبدأ أنصارها يظهرون كقوة لها حسابها في الحياة العامة فقرر القيام بحملة شاملة للقضاء على جميع أتباع الدين الجديد قضاءاً مبرماً في أنحاء الإمبراطورية وشهدت مصر إضطهادا للمسيحيين بالتعذيب والصلب والقتل حتى لم ينج منهم إلا من فر إلى الصحاري أو إلتجأ إلى المقابر والكهوف. وكانت الفترة (٢٥٢–٢٦٨)م التي أعقبت عهد هذا الإمبراطور فترة تطاحن بين أدعياء

العرش في روما، بينما ساد بعض الهدوء في مصر مما سهل للملكة زنوبيا ملكة تدمر 'بالميرا' الإستيلاء على مصر ٢٦٩م لمدة عامين فقط ثم نجح الإمبراطور أوريليانوس (٢٧٠–٢٧٥)م في القضاء على نفوذ تدمر في مصر، بل واستولى على تدمر نفسها. وغادر الإمبراطور أوريليانوس مصر وعهد بها إلى أحد قواده وهو بروبوس لإخضاع قبائل البلميس الذين كانوا قد توغلوا في جنوب مصر، وظل بروبوس والياً على مصر قرابة الخمس سنوات ثم نادى به الجيش المصري إمبراطوراً على روما (٢٧٦–٢٨٢)م ولكنه قتل بواسطة جنود الجيش الذين قتلوا ثلاثة من الأباطرة التاليين له خلال عامين إلى أن تمكن من الأمر الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤–٣٠٥)م. ورغم أن عصر الإمبراطور دقلديانوس يدرسه بعض المؤرخين على أنه واقع في حقبة الحكم البيزنطي لمصر، إلا أغلب الأراء على أن هذا العصر هو نقطة التحول بالإمبراطورية الرومانية لأنه هو الذي أدخل إصلاحات عديدة على النواحي المختلفة في الدولة؛ من أهمها أنه رأى أن يتولى الحكم إثنان من الأباطرة في نفس الوقت؛ أحداهما للشرق والأخر للغرب، وحدث في عهده أن خرج عن طاعته واليه في الاسكندرية، فسار إليها وحاصرها ثمانية أشهر، ثم فتحها عنوة، وأطلق جنوده فيها ينهبون ويقتلون ويحرقون. ومن محاولات دقلديانوس في إعادة تنظيم الإمبراطورية أنه رأى في القضاء على المسيحية نجاة من الاختلافات والإنقسامات في الرأي؛ فأعتبر المسيحية في عصرها الأول حركة مناهضة للنظام الإمبراطوري المتوارث وبدأ تنفيذ فكرته هذه بوسائل سلمية، ولكنه لم ينجح فلجأ إلى الاضطهاد؛ وهو أقسى إضطهاد عرفه المسيحيون في سنة ٣٠٣م ، وأقام المذابح للمسيحيين وأحرق الكتب المقدسة ودمر الكنائس وصار هذا التاريخ يؤرخ به عند مسيحي مصر؛ وهو تاريخ الشهداء؛ وهو تاريخ السنة القبطية. واستمر إضطهاد المسيحيين على أيدي أباطرة الرومان بعد دقلديانوس حتى سنة ٣٢٣م

عندما تولى الإمبراطور قسطنطين (٣٢٣-٣٣٧)م وأصبح أول إمبراطور مسيحي للإمبراطورية الرومانية وأعترف رسمياً بالديانة المسيحية، وبتولي هذا الإمبراطور أمور الإمبراطورية الرومانية الشرقية حسب تقسيم دقلديانوس يبدأ في مصر عهد جديد هو العهد البيزنطي.

إصلاحات مطلع القرن الرابع أسست قاعدة للازدهار النسبي في مصر لمدة ٢٥٠ عاماً، على حساب ربما المزيد من الجمود وتحكم الدولة الجائر. حيث تم تقسيم مصر لأغراض إدارية إلى عدد من المقاطعات الأصغر، وتم فصل المسئولين المدنيين عن العسكريين؛ البرانس praeses والدكس dux. وبحلول منتصف القرن السادس وجد الإمبراطور جستنيان نفسه مضطراً للاعتراف بفشل هذه السياسة وليعيد جمع السلطتين المدنية والعسكرية في أيدي (الدكس) مع نائب مدني له (البرانسات) كوزن مضاد لسلطة الكنيسة. وعندئذ اختفت كل إدعاءات الحكم الذاتي. وكان وجود الجنود وفرض قوة الجيش ملحوظاً بدرجة أكبر؛ حيث أن تأثيره تخلل كافة مناحي الحياة في المدينة والقرية على حد السواء.

ومع الفتح الإسلامي لمصر عام ٦٤١م رحب المصريون بالمسلمين الذين خلصوهم من ظلم الرومان طيلة عقود طويلة من القهر والظلم. وذلك مثلما ذكر بعض المؤرخين أن من أبرز أسباب نجاح الجيوش الإسلامية في هزيمة البيزنطيين هو استقبال المصريين المسيحيين للعرب على أنهم منقذين لهم من تعذيب الرومان. ومن مؤيدي هذا الرأي المؤرخ البريطاني إدوارد جيبون في كتابه (تاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية) سنة ١٧٨٢.

وتختلف الرويات الإسلامية والقبطية في سرد حوادث الفتح وتجتمع على أن الرومان عذبوا المصريين أثناء حكمهم وجعلوا مصر ضيعة للإمبراطور الروماني

وعرفت بمخزن غلال روما، وكان اختلاف عقيدة المصريين عن حكامهم سبباً في اضطهادهم من قبل الرومان مرتين مرة لاختلاف الدين فالدولة الرومانية كانت وثنية والمصريين مسيحيين، ولما اعترفت الدولة الرومانية بالمسيحية أعتنقوا مذهباً مغايراً للمذهب الذي عليه المصريين.

* الحياة الإقتصادية :

كانت مصر بالنسبة إلى روما البقرة الحلوب إذ كانت نظم الإدارة تستغل الثروات وتبتز أموال المصريين تجاراً ومزارعين وصناعاً حتى هجر عدد كبير من المصريين متاجرهم ومزارعهم ومصانعهم مما أدى إلى كساد التجارة وتأخر الزراعة وتقهقر الصناعة، وقلت الموارد، وضعف الإنتاج، وأهمل نظام الرى وفقد الأمن وكثر السلب والنهب، وفرّ المصريين من قسوة الحكم وفساده وجشعه؛ فقد فرضت ضرائب عديدة لا حصر لها فهناك ضريبة سنوية تجبى على الحيوان وعلى الأرض الصالحة للزراعه وعلى الحدائق، وضريبة شهرية تجبى من التجار على اختلاف متاجرهم وكذلك على التجارة المارة من النيل. وكان صاحب المصنع ملزماً بدفع ضريبة قبل خروج البضاعة من مصنعه، وضريبة التاج التي كان المصريون يُكرَهون عليها لتقديم الأموال هدية لشراء تاج الإمبراطور عند ارتقائه العرش أو عند الشروع في بناء معبد أو تمثال للإمبراطور، وضريبة على السفن والعربات وبيع الأراضي، وعلى الحمامات العامة والأسواق، وأثاث المنازل، ومن لم يقم بدفع هذه الضرائب فإنه يعمل في السخرة في حفر الترع وتطهيرها. وعلاوة على ذلك كان على المصريين تزويد الجنود الرومان بالقمح والشعير لغذائهم وعلف دوابهم عند مرورهم بقرى مصر. وقد أثقل الرومان على المصريين بالضرائب الباهظة المتعددة التي شملت كل شيء والتي جعلت الحياة جحيماً لا يطاق، مما أدى إلى فرار كثير

من الزراع عن مواطنهم، وترك أرضهم بدون زراعة. فارتفعت الأسعار وتدهورت الزراعة فالصناعة وانكمشت التجارة.

◀ النشاط الإقتصادي :

بذل الرومان جهوداً كبيرة في سبيل إنعاش البلاد إقتصادياً خاصة وأن جزءاً كبيراً من فوائد أزدهار الحياة الإقتصادية في مصر كان يذهب إلى روما ذاتها، سواء عن طريق الضرائب أو عن طريق أرباح المستثمرين الرومان؛ لذلك فقد شجعت الإدارة الرومانية الملكية الخاصة في المجال الزراعي، كما شجعت سياسة الإقتصاد الحر في الصناعة والتجارة، أما المناجم والمحاجر فقد ظلت مُحتكرة بواسطة الدولة، وازدهرت صناعات النسيج وورق البردي والطوب. وقد شجع الازدهار الإقتصادي عدة عوامل منها سياسة الرومان والسلام الذي ساد لمدة قرنين من الزمان، بالإضافة إلي موقع مصر المتوسط بين الولايات الرومانية، وموقعها على طريق التجارة بين الشرق والغرب، وعادت الاسكندرية لتصبح أكبر مركز للصناعة والتجارة في الإمبراطورية الرومانية كلها، كما وجدت صناعات أخرى للإستهلاك المحلي بجانب الصناعات التصديرية، مثل صناعات الأخشاب والمطاحن والزيوت والخمور والمعادن.

◀ النُظُم المالية والإقتصادية :

كانت الغنائم التي أستولى عليها أغسطس من مصر، بعد أن هزم أنطونيوس وكليوباترا كبيرة لدرجة جعلته قادراً على تلبية مطالب جنوده، وأدت كذلك إلي زيادة ثروته الشخصية هو وأتباعه، وقد أدى تدفق ثروات مصر على روما إلى إرتفاع الأسعار. وقد قامت سياسة الرومان المالية والإقتصادية في مصر على مبدأ أساسي، وهو الحصول على أكبر قدر ممكن من دخل هذه الولاية، وقد تطلب تحقيق هذا

المبدأ القيام بجهود شاقة، من أجل إصلاح مرافق البلاد التي لحقها التدهور في السنوات الأخيرة من حكم البطالمة، فقامت الإدارة الرومانية بإجراء إصلاحات شاملة لشبكة الري، وعملت على تطهير القنوات والترع والمصارف، وأعادت بناء الجسور التي تهدمت. وقد أدت هذه الجهود إلى إنعاش الإقتصاد المصري، وكان من شأن ذلك مساعدة الإدارة الرومانية في الحصول على مستحقاتها لدى الأفراد؛ وهو أمر لا يتحقق إلا من خلال نظام دقيق لجباية الضرائب.

الضرائب :

قام نظام الضرائب في مصر في عصر الرومان علي قواعد مُحكمة تستطيع الدولة بمقتضاها أن تحصل على مستحقاتها لدى الأفراد، وكانت هذه المستحقات تشتمل على ضرائب ورسوم مختلفة عن الممتلكات والأفراد والنشاط المالي والتجاري، وإلى جانب الضرائب الثابتة كانت هناك ضرائب إستثنائية ترتبط بظروف خاصة. وكانت هناك بعض الضرائب التي تجبى نقداً، والبعض الأخر يجبى عيناً. وفيما يتعلق بإلتزامات مصر العينية تجاه الإمبراطورية الرومانية؛ فكانت مصر تمد روما بثلث احتياجاتها السنوية من الغلال، كما كان يتحتم عليها إطعام جيش الإحتلال الروماني المرابط على أراضيها، وللوفاء بذلك كان يجب علي المزارع أن يدفع أردباً عن كل أروة كضريبة نوعية عن الأرض التي تزرع حبوباً، ولكن في بعض الأحيان كان المزارع يدفع أكثر من هذا القدر في حالة الأراضي العالية الخصوبة والتي كانت تغل مقداراً أكبر من المحصول. وكان على المزارع بعد حصاد المحصول أن يقوم بتسليم ما عليه من مستحقات للدولة إلى أمناء مخازن الغلال الذين كانوا يكلفون بالقيام بهذا العمل بصورة إلزامية ولم يكونوا يتقاضون أجراً مقابل قيامهم بهذا العمل، وكان على أمناء مخازن الغلال ومساعديهم أن يشرفوا

على تسليم الغلال إلى معسكرات الجيش أو إلى المخزن العام بالقرب من الاسكندرية، وكانت هناك ضرائب مقررة على المحاصيل الأخرى مثل الكروم والفاكهة والنخيل والزيتون. وفيما عدا الكميات التي كان يتم تسليمها إلى معسكرات الجيش كان يتم تحصيل مقدار هذه الضرائب نقداً. وكانت الإدارة تحرص على عدم بقاء أي قطعة أرض دون زراعة لأن بقاءها على هذا النحو يعني عدم جباية ضرائب عنها، لذلك فإن الأراضي التي لم يكن يتقدم أحد لإستئجارها أو التي يهرب مزارعوها كانت الدولة تُلزم سكان القرية بزراعتها؛ على أن يسددوا الضرائب المستحقة عليها إجبارياً بشكل تضامني.

ولم تكن الحيوانات التي يملكها المزارع تسلم من تحصيل ضرائب عنها؛ لذلك كان ينبغي على المزارع أن يقدم تقريراً سنوياً عن عدد الحيوانات التي بحوزته حتى يتأكد جباة الضرائب من عدد الحيوانات التي تولد في كل عام، ويتمكنوا من تحصيل الضرائب المستحقة عليها.

وإلى جانب الضرائب التي تجبى في مجال الزراعة والثروة الحيوانية كانت هناك ضرائب تجبى على الأفراد؛ لعل أشهرها ضريبة الرأس، وكان يجب على جميع سكان مصر من الذكور الذين تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والستين أن يؤدوها، إلا أن بعض الفئات كانت تتمتع بحق الإعفاء من أداء هذه الضريبة مثل الذين يتمتعون بالمواطنة الرومانية، ومواطنوا مدينة الاسكندرية. وأعضاء المعهد العلمي بالاسكندرية، وخريجي معاهد الجمنازيوم، وعدد من الكهنة من ذوي المكانة الخاصة، وبعض أصحاب المهن، أما سكان عواصم المديريات فإنهم كانوا يؤدونها بقيمة مخفضة. وقد وجدت ضريبة أخرى يدفعها الأفراد وهي ضريبة الجسور، وكان مقدارها واحداً في جميع أرجاء البلاد، وكان الهدف من جبايتها

الأنفاق على صيانة الجسور وتنظيم عمليات الري، وهناك ضريبة أخرى مقدارها درخمتان لكل فرد وهي ضريبة الخنازير كان الغرض من تحصيلها إمداد المعابد الإغريقية بالحيوانات اللازمة للأضاحي.

فرضت الإدارة الرومانية ضرائب على أصحاب الحرف حيث كان ينبغي على كل فرد أن يؤدي ضريبة الحرف؛ سواء أكان رجلاً أو إمرأة طالما إنه يؤدي عملاً يتقاضى في مقابله أجراً، وكان على الصبية اللذين كانوا ما يزالون في مرحلة التدريب أن يدفعوا هذه الضريبة إذا بلغ الواحد منهم الرابعة عشرة من العمر، وكان يتم تحصيل هذه الضريبة من أصحاب كل حرفة على حدة، وقد أختلف مقدارها من فترة لأخرى، وتراوحت قيمتها من منطقة لأخرى، وكان على صاحب العمل أن يقوم بإبلاغ السلطات عند إنتهاء أحد الصبية من مرحلة التدريب وتقلد هذا الصبي العمل حتى يتم إدراج اسمه في قوائم الضريبة التي يدفعها العاملون، وكان على العامل أن يبلغ السلطات في حالة إنتقاله لممارسة عمل أخر سواء أكان هذا الإنتقال بصفة دائمة أو مؤقتة. أما الأشخاص الذين كانت طبيعة عملهم تتطلب التنقل من مكان إلى آخر ، فكان يتحتم عليهم أن يحصلوا على تصريح من جابي الضريبة في موطنهم يسمح لهم بالتواجد في أماكن أخرى. وقد فرضت الإدارة الرومانية ضريبة إضافية على الأهالي لتعويض النقص الناجم عن وجود بعض الأشخاص الذين يعجزون عن دفع الضريبة لكونهم معدمين، أو بسبب هروب البعض الأخر، دون أن يتركوا وراءهم ممتلكات يمكن للدولة مصادرتها حتى تتمكن من تحصيل مستحقاتها لدى الهارب، وكان مقدار العجز الذي يترتب على وجود مثل هذه الحالات يجري توزيعه على باقي سكان القرية، ويختلف هذا المقدار حسب أعداد الهاربين.

وقد خضعت الأنشطة المالية والتجارية للضرائب. وكان يتم فرض رسوم عند تسجيل الوثائق في دار السجلات، وهناك ضرائب كان يتم تحصيلها عن عمليات البيع بواقع ١٠٥٪ ، وعن الرهن بنسبة ٢٥٪، وحتى الحيوانات التي كان الأهالي يقدمونها قرباناً للآلهة لم تكن تسلم من تدخل الدولة التي كانت تحصل على نسبة منها.

وقد فرضت ضرائب كان الهدف منها إمداد جيش الإحتلال الروماني المرابط في مصر بحاجته من الغذاء والوقود والعلف وملابس الجنود. ولم يكن مقدار هذه الضرائب محدداً؛ بل كان الأمر يترك لرجال الجيش لتقدير مدى حاجتهم، وغالبية الأحيان كانت المعسكرات تشتط في مطالبها. ولم يقتصر الأمر على إمداد جيش الإحتلال الروماني في مصر بحاجته؛ بل كان على دافعي الضرائب في مصر أن يقدموا ما يطلب منهم لمساعدة جيش الإمبراطورية في الحروب التي كان يخوضها، وكان على الأهالي أن يقدموا بتمويل الزيارات التي كان يقوم بها كبار الزوار الرومان لمصر؛ بما في ذلك زيارات الأباطرة وأفراد عائلاتهم، كما كان عليهم أيضاً تمويل الزيارات التي كا يقوم بها الوالي وحاشيته في أرجاء البلاد.

جباية الضرائب :

قامت جباية الضرائب في مصر في عصر الرومان في البداية على نظام الإلتزام؛ وهو ما يعد إستمراراً للنظام الذي كان معمولاً به في عصر البطالمة؛ حيث كان يشهر في المزاد في كل عام جباية كل ضريبة على حدة في منطقة في الأغلب لم تكن تزيد عن مديرية واحدة. ويرسو المزاد على من يضمن للدولة الحصول على أكبر قدر ممكن من حصيلة الضريبة. وكان يتعين أن يكون للملتزم ضامنون، وأن

يقدم الملتزم وضامنوه ممتلكاتهم رهناً للوفاء بإلتزاماته، ويبدو أن الدولة اضطرت بعد ذلك إلى فرض إلتزام جباية الضرائب على الأفراد مما كان يؤدي إلى هروب الملتزمين في كثير من الأحيان، بيد أن نظام الإلتزام أخذ يختفي شيئاً فشيئاً، وأسندت جباية الضرائب إلى موظفين كان يجرى تكليفهم للقيام بهذا العمل بشكل إلزامي، وكان جباة الضرائب المكلفين يلتزمون بتعويض النقص الذي ينتج في بعض الأحيان من أموالهم الخاصة، ولكن في عهد الإمبراطور تراجان (٩٨–١١٧)م تقرر إلزام كل سكان القرية بأن يتضامنوا في سد العجز الذي قد يترتب على عملية الجباية.

وكان الوالي هو الذي يشرف على عملية الجباية بأكملها، ويقوم بمراجعة العامة في أثناء زيارته للمديريات، ويقرأ التقارير التي يقدمها له المسئولون في المديرية، ولكن الإمبراطور هو الذي يقرر مقدار الضريبة المستحقة على الولاية، استناداً إلى تقارير الوالي، ومن حقه أن يمنح البعض إعفاءات من الضرائب، كما كان الوالي يتمتع بنفس الحق ولكن في حالات استثنائية.

وتذكر بعض المصادر عن الوسائل التي كان يلجأ إليها بعض جباة الضرائب، من أجل إنتزاع مستحقات الدولة لدى الأهالي؛ فجابي الضريبة في إحدى المناطق حين وجد أن بعض دافعي الضرائب قد هربوا دون أن يدفعوا ما عليهم، اتجه إلى زوجاتهم وأطفالهم وأقاربهم فسامهم سوء العذاب، وطرح بعضهم أرضاً، وأخذ يضربهم ويطأهم بأقدامه، بل أنه لم يتورع عن قتل بعضهم، فإذا لم يجد أقارب للهارب فإن الأذى ينتقل إلى الجيران وقد يشمل القرية جميعها.
وتعددت الأساليب البشعة التي كان يلجأ إليها جباة الضرائب الذين لم يرحموا حتى المتوفي ودفعتهم صفاقتهم إلى الإعتداء على جثث الموتى حتى يُجبروا

أقاربهم على دفع ما هو مستحق عليهم من ضرائب، وإزاء بشاعة هذه الأساليب وعجز الأهالي عن الوفاء بإلتزاماتهم فلا عجب أن يؤدي ذلك إلى هروب الأهالي من مواطنهم، وخُلو بعض القرى من السكان.

*الصناعة والتجارة :

إذا كانت الدولة قد عملت على تشجيع الملكية الفردية في مجال الزراعة فإنها نهجت ذات النهج في مجال الصناعة والتجارة فلم يتبع الرومان سياسة الإحتكار التي مارسها البطالمة؛ بل تركوا أمر الصناعة في أيدي الأفراد، ولكنهم حرصوا على إبقاء الصناعات الأساسية خاضعة لسيطرة الدولة مثل الإشراف على المناجم والمحاجر، كما تدخلت الدولة بشكل جزئي في بعض الصناعات مثل صناعة النسيج والبردي والجعة والطوب.

الصناعة والتجارة شهدتا إزدهاراً كبيراً في بدايات العصر الروماني؛ ويرجع ذلك إلى النشاط الذي شهدته التجارة الشرقية؛ وهو النشاط الذي لعبت فيه الاسكندرية دوراً مهماً، فقد استطاعت هذه المدينة بفضل موقعها المتوسط في قلب الإمبراطورية الرومانية أن تحتل مكانة عظيمة في إقتصاديات العالم القديم.

كانت الاسكندرية مركزاً مهماً لصناعة الزجاج والبردي والنسيج، وتعد صناعة الزجاج من الصناعات العريقة في مصر، ويرجع تاريخها إلى عصر الفراعنة؛ حيث توفرت في رمال مصر المادة اللازمة لإنتاج أنواع متميزة من الزجاج ، وكانت الاسكندرية تقوم بتصدير الزجاج إلى سائر أرجاء البحر المتوسط، أما صناعة أوراق البردي فهي صناعة مصرية خالصة أنفردت بها مصر دون سائر بلدان العالم القديم، لأن نبات البردي كان ينمو في مستنقعات الدلتا المصرية فقط، وكانت

أوراق البردي يتم صناعتها من سيقان هذا النبات، ومن المرجح أن تجارة البردي كانت حرة تماماً ولكن الدولة فرضت ضرائب نقدية ونوعية علي صناعة البردي.

ثم تأتي بعد ذلك صناعة النسيج ، التي كانت تحظى بانتشار واسع في مصر، وقامت هذه الصناعة علي الإنتاج المنزلي إلى جانب المصانع التي كانت تقوم بإنتاج أنواع راقية من النسيج، وقد اشتهرت الاسكندرية بإنتاج نوع متميز من التيل المزخرف. وكان المصريون لديهم طريقة سرية لتلوين وصباغة الملابس، وكانت المنسوجات المصرية تلقى رواجاً في الأسواق الشرقية بالإضافة إلى بلدان البحر المتوسط. ويبدو أن الدولة كانت تشرف علي هذه الصناعة وكانت لديها مصانع للنسيج، وقد فرضت الدولة على النساجين وعلى المصانع دفع ضرائب نقدية ونوعية.

وإلى جانب الصناعات الأساسية عرفت مصر صناعات أخرى، مثل صناعة العطور والمستحضرات الطبية، وكذلك الأدوات الموسيقية والخمور والفخار.

أما فيما يتعلق بالتجارة ، فإنه على الرغم من تدهور مكانة الاسكندرية من الناحية السياسية؛ فإن دورها في مجال التجارة أصبح عظيماً، وكان ذلك نتيجة حتمية لحالة الازدهار التي عمت الإمبراطورية الرومانية بعد أن عم السلام وخلا البحر من القراصنة وأصبحت السفن تبحر في أمان، وتقاطر التجار على الاسكندرية من جميع أرجاء المعمورة؛ من الإغريق والإيطاليين والسوريين ومن آسيا الصغرى وكذلك الأثيوبيين والعرب والفرس. وسيطر التجار السكندريون على تجارة البحر الأحمر والشرق. وبعد اكتشاف الرياح الشرقية الموسمية على يد هيبالوس في القرن الأول قبل الميلاد ازدادت التجارة بشكل واضح. وقبل عصر أغسطس لم تكن تبحر إلى المياة الشرقية أكثر من عشرين سفينة، ولكن بعد ذلك ازدادت

التجارة حتى أن الأساطيل الكبرى أصبحت قادرة على جلب التجارة من الهند وأقاصي أثيوبيا.

ولكن تأثرت الصناعة والتجارة بالأحوال السياسية التي شهدتها مصر والإمبراطورية الرومانية فتدهورت الصناعة في القرن الثالث. فإذا كانت النُظم الاقتصادية للرومان قد أتت أكلها في البداية وشهدت مصر حالة من الازدهار في كافة القطاعات الاقتصادية، فإنها ما لبثت أن إنهارت، ولم تصمد أمام الرياح العاتية التي تمثلت في الاضطرابات التي شهدتها مصر في كثير من الأحيان. بالإضافة إلى الأحوال المضطربة التي سادت الإمبراطورية في أحوال كثيرة، وربما يرجع ذلك إلى أن النظم الاقتصادية والمالية في مصر أستندت إلى أسس فاسدة قامت على إعتصار هذه الولاية والحصول على أكبر دخل ممكن منها دون أن تضع في اعتبارها في غالبية الأحيان الظروف التي تمر بها البلاد، وتظهر الأبحاث التي أجراها الباحثون إلى أي مدى كانت الإدارة الرومانية ظالمة في مصر.

* طبقات المجتمع :

* المجتمع :

كان المجتمع المصري في ذلك العهد يحيا في أسوأ أيامه حيث السلطة والإدارة والوظائف في يد الرومان واليونان وبعض اليهود من المتقربين إلى الرومان، وكان المصريون محرومون حتى من التمتع بخيرات بلادهم لفرض الضرائب الباهظة المتعددة عليهم وكذلك حرمانهم من الإشتراك في الجيش. مما جعلهم يعيشون كالغرباء عنها، وإذا وصل بعضهم إلى منصب ديني فإننا نجد الاضطهاد ينصب على هؤلاء القادة الدينيين. مما حمل فريق كبير منهم على الفرار بعقيدته إلى الأديرة والكهوف المنتشرة في أنحاء مصر واتخذوا عادة التنسك التي أخذوها عن

اليهود، فازداد عدد الأديرة تبعا لذلك وكثر عدد أعضائها الذين أعطوا لأنفسهم حق الإعفاء من الوظائف غير المأجورة وغيرها، وشذ بعض من هؤلاء فاحترفوا السطو والنهب.

وعلى هذا نقول أن المجتمع المصري في هذه الفترة كان على طبقتين :

١- طبقة المصريين : الطبقة الكادحة الذين يعيشون في عناء وشقاء.

٢- طبقة الرومان : وهم المنعمون المرفهون الذين يسكنون الحواضر ويتمتعون بخيرات البلاد.

١- المصريون :

البقية الباقية من سكان مصر؛ من غير المواطنين الرومان ومواطني المدن الإغريقية واليهود؛ فهم الذين يطلق عليهم إجمالاً "المصريون"، وتطلق هذه الصفة علي سكان الريف سواء أكانوا ينحدرون من أصول مصرية أو إغريقية، وهي فئة لم تشهد حياتها تغيرات تُذكر، ومما هو جدير بالذكر أن الوضع المتميز الذي كان يتمتع به الإغريق والمقدونيون في عصر البطالمة لم يعد له وجود فنزلوا إلي مرتبة المصريين، وأدى زوال التفرقة بين المصريين والإغريق إلى إنعدام الفجوة بينهم فشاع الزواج بين الطرفين وبشكل خاص في الريف، وكان الأطفال الذين يولدون نتيجة لهذه الزيجات يحملون أسماء إغريقية أو مصرية، ولكن الإدارة الرومانية كانت حريصة على بقاء الفوارق بين الفئات، فوضعت قوانين لتنظيم العلاقة بين الطبقات، وفرضت عقوبات صارمة على من يخالف تلك القوانين، وهذه القوانين كانت جائرة جداً بالنسبة للمصريين.

عندما أصدر الإمبراطور كراكالا قراره عام ۲۱۲م؛ والذي قضى بمنح حقوق المواطنة الرومانية لكافة رعايا الإمبراطورية، فيما عدا فئة واحدة أطلق عليها القرار فئة المستسلمين؛ وهي فئة غير معروف من هم الذين عناهم القرار؛ فعلى الرغم مما قد يبدو للعيان من أن هذا القرار قد ألغى الفوارق الإجتماعية فإنه بالنسبة للمصريين في المدن والقرى لم يكن يعني شيئاً جديداً؛ فحصول المصريين على المواطنة الرومانية لم يؤد إلى إعفائهم من دفع ضريبة الرأس؛ بل زادت عليهم الأعباء فقد تقرر أن يدفعوا ضريبة جديدة هي ضريبة الميراث التي كانت مقررة على المواطنين الرومان.

٢- الإغريق واليهود :

عندما دخل أوكتافيوس مصر كانت توجد ثلاث مُدن إغريقية في مصر وهي نقراطيس في الدلتا ثم مدينة الاسكندرية، أما المدينة الثالثة فهي بطلمية التي تقع في صعيد مصر. وفي عام ۱۳۰م أضاف الإمبراطور هادريان مدينة رابعة هي أنتينوبوليس التي أقامها في مصر الوسطى تكريماً لذكرى خليله الذي غرق في هذه المنطقة خلال مرافقته للإمبراطور، وقد حصلت مدينة أنتينوبوليس على كافة الامتيازات التي كانت تتمتع بها المدن الأخرى وحصول مواطنيها على امتيازات اضافية، أما الاسكندرية فقد بلغ عدد الرجال الأحرار فيها ۳۰۰.۰۰۰ نسمة، وربما يصل إجمالي عدد سكانها إلى نصف مليون نسمة، وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات في نظم المدن الأربع إلا أن نظمها كانت في الغالب متقاربة.

وأهم تلك النظم التي تشابهت فيها هذه المدن هي تسجيل مواطنيها في قبائل وأحياء. وهو النظام الذي كان متبعاً في المدن المستقلة في بلاد اليونان، وكذلك وجود مؤسسة الجمنازيوم التي حرص عليها الإغريق باعتبارها من رموز

المدينة الإغريقية، وكان مواطنو هذه المدن يقبلون على تولي وظيفة مدير معهد الجمنازيوم؛ وهي وظيفة شرفية كان شاغلها مسئولاً عن إمداد المعهد بكافة احتياجاته، وقد أصبحت هذه الوظيفة فيما بعد إلزامية.

يعد مجلس الشورى أيضاً من معالم المدينة الإغريقية، وكان حرمان الاسكندرية من هذا المجلس من الأسباب التي جعلت السكندريون يكرهون الحكم الروماني، أما مدينتا نقراطيس وبطلمية فقد تمتعتا بوجود مجلس للشورى فيهما، وقد حصلت مدينة أنتينوبولس على مجلس الشورى منذ تأسيسها، وحصلت الاسكندرية على حق التمتع بوجود مجلس الشورى في عهد سبتيموس سيفيروس الذي منح هذا الحق لكافة عواصم المديريات، وقد أثار هذا الأمر سخط السكندريين الذين ساءهم أن يروا مدينتهم العظيمة تتساوى مع سائر المدن الأخرى في مصر.

ومن الناحية الإقتصادية تمتع مواطنو المدن الإغريقية ببعض الإمتيازات؛ فقد كانوا يشاركون في النشاط الإقتصادي لمدينة الاسكندرية، كما أعفوا من دفع ضريبة الرأس التي كانت تعد بالنسبة لسكان الولايات عبئاً تنوء به كواهلهم، إضافة إلي كونها دليلاً على تدني المكانة الإجتماعية والسياسية، وكان مواطنو المدن الإغريقية الأربع يتملكون أراضي زراعية في أنحاء متفرقة من مصر، وكانت بعض هذه الأراضي تقع على مسافات بعيدة من مدنهم، كما تمتع هؤلاء المواطنون بحق الإعفاء من الخدمات الإلزامية أينما حلوا. وكان من حق مواطني المدن الإغريقية أن يخدموا في الفرق الرومانية، وهذا يعني أنهم يصبحوا مواطنين رومان بمجرد تسجيلهم في هذه الفرق، أما باقي السكان فكان من حقهم الخدمة في الفرق المساعدة فقط، وهذا لا يعطيهم الحق في الحصول على المواطنة الرومانية إلا بعد

الخدمة لمدة ربع قرن. ومما هو جدير بالذكر أن حقوق المواطنة في المدن الإغريقية كانت تقتصر على فئة محدودة، ولم يكن كل المقيمين في المدينة يتمتعون بحقوق المواطنة. فقد كان يوجد الكثيرون الذين اجتذبتهم إلى هذه المدن الرغبة في استثمار أموالهم.

أما اليهود فإن استقرارهم في مصر يرجع إلى عهود قديمة. وكانت هناك جالية يهودية في جنوب مصر منذ القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، وقد انتشر اليهود في سائر أرجاء مصر، وكان لهم دور ملموس في الحياة الإجتماعية والإقتصادية والثقافية في الاسكندرية، كما شغل بعض اليهود مراكز إدارية مهمة في الاسكندرية مثل إسكندر لوسيماخوس شقيق الكاتب فيلون ووالد تيبريوس الإسكندر الذي أصبح والياً على مصر فيما بعد. ويعد فيلون من العلامات الثقافية البارزة في الاسكندرية في القرن الأول، وكان ضليعاً في الفلسفة اليونانية، وكتب أبحاثه باللغة اليونانية، وكان يحاول شرح الديانة اليهودية لغير اليهود.

يذكر فيلون أن عدد اليهود في الاسكندرية يصل إلى المليون، وهو رقم يدخل في إطار المبالغات الخطابية ، لأن إجمالي سكان المدينة لم يصل إلى نصف هذا العدد، ولكن يبدو أن عدد اليهود في الاسكندرية تزايد فأصبحوا يشغلون اثنين أو أكثر من أحياء المدينة الخمسة بعد أن كانوا يسكنون حياً واحداً هو الحي الرابع الدلتا. وكان أغسطس قد كافأ اليهود نظير الخدمات التي قدموها للرومان فأقر لهم الإمتيازات التي كانوا يتمتعون بها منذ عصر البطالمة والتي تشمل احتفاظهم بمجلس للشيوخ في الوقت الذي حُرِم فيه السكندريون من أن يكون لهم مجلس للشورى، لذلك تمادى اليهود وتصرفوا كما لو كانوا من مواطني الاسكندرية وأخذوا يقحمون أنفسهم في مؤسسات الإغريق مثل الجمنازيوم، مما إستفز

السكندريون، وأدى إلى تفجير روح الكراهية لديهم تجاه اليهود. لكن بعد الفتن المتوالية التي قام بها اليهود في القرن الأول والثاني فإنهم حرموا الكثير من امتيازاتهم، وقد ظل يهود مصر على ولائهم للرومان حتى بعد تدمير الرومان لهيكل أورشليم، وعلى الرغم من ذلك فإن معبد اليهود الرئيسي في مصر وهو معبد ليونتوبوليس قد تعرض للنهب والتدمير، وأمر فسباسيانوس بإغلاقه نهائياً. فقد خشيت السلطات الرومانية من أن يتحول هذا المعبد إلى مركز لتجمع اليهود، بدلاً من هيكل أورشليم.

* الديانة :

ترك الرومان للمصريين في بادئ الأمر حرية العقيدة، وعاملوهم في هذه الناحية باللين، فلم يتدخلوا أويحدوا من حرية المعتقدات، وكانت مصر كغيرها من الولايات الرومية تدين بالدين الوثني، وظل المصريون ينعمون بهذه الحرية إلى أن ظهرت المسيحية في فلسطين، وكانت مصر في طليعة البلاد التي تسربت إليها المسيحية في منتصف القرن الأول الميلادي، على يد القديس (مرقص) لقربها من فلسطين. وأخذ هذا الدين ينتشر في الاسكندرية والوجه البحرى ثم انتشر تدريجياً في أنحاء مصر خلال القرن الثاني الميلادي؛ فثارت مخاوف الرومان الوثنيين، وصبوا العذاب صباً على المصريين الذين اعتنقوا المسيحية، وتركوا الوثنية الدين الرسمي للدولة. وأخذ الاضطهاد صورة منظمة في عهد الإمبراطور سفروس (١٩٣-٢١١)م ثم بلغ ذروته القصوى في حكم الإمبراطور دقالديانوس (٢٨٤-٣٠٥)م فقد رغب هذا الإمبراطور أن يضعه رعاياه موضع الألوهية حتى يضمن حياته وملكه؛ فقاومه المسيحيون في ذلك؛ فعمد إلى تعذيبهم؛ فصمد المصريون لهذا الاضطهاد بقوة وعناد أضفى عليه صفة قومية، وقدمت مصر في سبيل

عقيدتها أعداداً كبيرة من الشهداء مما حمل الكنيسة القبطية في مصر أن تطلق على عصر هذا الإمبراطور (عصر الشهداء). ولم تفلح وسائل الاضطهاد في وقف انتشار المسيحية التي عمت كل بلاد مصر.

وقد خففت وسائل الاضطهاد عندما اعترف الإمبراطور قسطنطين الأول (٣٠٦-٣٣٧)م بالمسيحية ديناً مسموحاً به في الدولة كبقية الأديان الأخرى. وأصدر الأمير تيودوسيوس الأول (٣٧٨-٣٩٥)م في سنة ٣٨١م مرسوماً بجعل المسيحية دين الدولة الرسمي الوحيد في جميع أنحاء الإمبراطوريه. وأخذت الاضطهادات وسبل التعذيب تنصب تبعاً لذلك على الوثنيين بعد أن كانت توالى على المسيحيين، وتابع المسيحيون نشر دينهم بنفس القوة التي حاول بها أنصار الوثنية إخماد جذورة المسيحية بها.

وعلى الرغم من أن المسيحية صارت الدين الرسمي للإمبراطور، لم تنعم مصر بهذا المرسوم لوقوع خلاف وجدال في طبيعة السيد المسيح. وبلغ النزاع أقصاه بين كنيسة الاسكندرية التي تنادى بالطبيعة البشرية للمسيح، وبين كنيسة روما القائلة بالطبيعتين إحداها بشرية وأخرى إلهية للسيد المسيح. وبذلك تعرض المصريون لألوان العذاب لاعتناقهم مذهباً مخالفاً لمذهب الإمبراطورية.

ثانياً : الحكم الروماني في الشام :

* سوريا (ولاية رومانية) :

يقول مؤرخ شامي عربي عن الحكم الروماني في الشام : "كانت معاملة الروماني للشاميين بادئ ذا بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه ممتلكتهم في داخليتها من المشاغب والمتاعب. ولما شاخت دولتهم انقلبت إلي أتعس ما كانت

عليه من الرق والعبودية، ولم تضف رومية بلاد الشام مباشرة ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين، ولا أرضهم أرضاً رومانية، بل ظلوا غرباء ورعايا، وكثيراً ما كانوا يبيعون أبناءهم للرومان ليوفوا ما عليهم من الأموال، ولكم أن تتخيلوا فظاعة ما كان يجري مع أبنائهم من انتهاك للأعراض وغيره، وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق، وبهذه الأيدي عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع في الشام ".

• **ولاية سوريا** : باللاتينية (Syria) ؛ هي ولاية رومانية تأسست أثر فتح الرومان لسوريا عام ٦٤ ق.م. تحت قيادة بومبيوس الكبير . دام الحكم الروماني ومن ثم البيزنطي لسوريا قرابة السبعمائة سنة حتى سقوطها على يد الخلفاء الراشدين عام ٦٣٧م. حيث شكلت سوريا إحدى أهم الولايات الرومانية. كما حشدت روما ثلاث ألوية في سوريا ساهمت في الدفاع ضد البارثيين إلى الشرق. وبحلول القرن الثالث أصبحت للولاية أهمية خاصة بوصول السلالة السفرية ذات الأصول السورية إلى سدة الحكم في روما.

في حوالي ٣٤١م، تم تقسيم الولاية إلى جزئين: سوريا الداخلية غرب الفرات، وولاية الفرات في الجزء الشرقي. واستمر الحكم البيزنطي بعد الرومان حتى القرن السابع حيث شكلت معركة الجسر الحديدي في أنطاكيا نهاية للحكم الروماني لسوريا.

وقد طويت صفحة العهد اليوناني في دمشق عام ٦٤ق.م عندما دخلتها جيوش الرّومان بقيادة القائد العام بومبيوس Pompeius ، وعرفت دمشق في هذا العهد نشاطاً تجارياً واسعاً؛ مُستفيدة من كونها محطّة رئيسيّة على طريق القوافل، ومن اتّساع الإمبراطورية الرومانية، وأفادها تدفّق الأموال عليها في تطوّرها العمراني الذي بلغ في عهد الرّومان حداً عظيماً مازالت آثاره باقية إلى اليوم.

وأصبحت دمشق في عهد الإمبراطور هادريان حاملة لقب متروبول (مدينة رئيسية) ثم حملت لقب (مستعمرة رومانية) في عهد الإمبراطور سبتيم سيفير، ولمع من أبنائها مهندسون، ووصلت شهرة أحدهم "أبولودور الدمشقي" إلى روما.

وفي أواخر القرن الرابع الميلادي انقسمت الإمبراطورية الرومانية وغَدَت دمشق من أملاك الجزء الشرقي من هذه الإمبراطورية، وهي التي عرفت باسم الدّولة البيزنطية . وأصبحت دمشق مركزاً عسكرياً مهمّاً في مواجهة الفُرس السّاسانيين، كما غدت من أهم مراكز الدولة العربيّة التي قامت في بلاد الشام وهي دولة الغَساسنة. وتقع دمشق بيد الفرس عام ٦١٢م ويستعيدها الرّوم بعد خمسة عشر عاماً على يد هرقل عام ٦٢٧م. ولم تلبث أن أضحت في حُكم العرب بعد أن فتحتها جيوش العرب المسلمين عام ١٤هـ/٦٣٥م.

• لمحات في تاريخ دمشق العمراني العهد الرّوماني :

من المعروف أن السّلم الروماني والازدهار الإقتصادي الملحوظ الذي حظيت به دمشق في أيام تبعيّتها للإمبراطورية الرومانية قد ضاعف من عدد سكانها ونجمت عنه حركة عمرانية واسعة. الأمر الذي استدعى توسيع المدينة، وإحداث تنظيم جديد فيها يحقق المفاهيم الجديدة في تنظيم المدن وتحصينها؛ فأحيطت المدينة بسور واسع مستطيل بُني بالأحجار الضخمة؛ احتمى وراء بردى من ناحية الشمال، وفُتحت فيه سبعة أبواب: واحد في الشرق، وآخر في الغرب، واثنان في الجنوب؛ هما: باب كيسان والباب الصغير، وثلاثة في الشمال؛ هي: باب توما وباب الجنيق (كان بقرب باب السلام) وباب الفراديس. وكان يشق المدينة شارع رئيسي عريض يمتد من الغرب إلى الشرق وينحصر بين باب الجابية وباب شرقي اشتهر بالشارع المستقيم ويبلغ طوله ١٥٠٠ متراً. وكان يتألف من طريق واسع في

الوسط يقابل فتحة الباب الوسطى، ورواقين جانبيين مسقوفين يقابلان الفتحتين الصغيرتين للبابين الشرقي والغربي؛ تحملهما الأعمدة المتوجة بتيجان كورنثية جميلة التي مازال يظهر بعضها بين الفينة والأخرى خلال أعمال الحفر والبناء في الشارع. وكانت المخازن التجارية موزعة على طول هذا الشارع بحذاء أروقته.

وهذا الشارع الرئيسي الجميل Decumanus Maxiums كان مزيّناً بالتماثيل، وقد أدرك العرب أحدها الذي كان يتوسط الشارع، وهو عمود عليه تمثال رجل باسط ذراعيه، وآخر على رأسه مثل الكرة فيها حديد. وكان يقطع هذا الشارع شارع آخر عرضاني متقاطع (يمتد من الشمال إلى الجنوب Cardo Maximus). وعند نقطة التقاطع قوس رباعيّة Tetrapylum تم الكشف عنها في منتصف القرن العشرين (عند محلّة طالع الفضّة)، وكانت على عمق ٤ أمتار ونصف من سطح الأرض الحالية، نظراً لارتفاع سويّة الشارع على مرّ العصور. وتم رفع هذه الآبدة إلى مستوى الشارع وترميمها، وهي قوس هامة وجميلة تحتفظ بإحدى فتحاتها كاملة وبعض الأعمدة التي تزينها. ومن المحتمل أن تكون هذه القوس هي التي يسميها ابن عساكر بقنطرة سنان، كما حدثتنا المصادر التاريخية عن وجود قوس أخرى إلى الغرب من هذه القوس، تهدمت في القرن الثامن الهجري، واستخدمت أحجارها في البناء، كما ذكر المؤرّخ ابن كثير.

على أن الآبدة الأكثر أهمية التي خلّفها العصر الروماني في دمشق كانت معبد (جوبيتر)، الذي كان من أشهر معابد العالم القديم، من حيث سعته وفخامة بنائه، وكأنه وأبوابه وأسواره مدينة حصينة. بهذا الاعتبار عرفه العرب وأطلقوا عليه أحياناً تسمية (حصن دمشق)، والمدينة الداخلية أحياناً أخرى؛ معتبرين أسواره الخارجية هي أسوار المدينة اليونانية التي نسبوا بناءها إلى علام الإسكندر، كما

جاء في رواية المؤرخ ابن عساكر. ولقد بني هذا المعبد على أنقاض المعبد الآرامي، وأسهمت في هندسته التقاليد المعمارية الشرقية إلى جانب فن العمارة الغربي الكورنثي. ولابُد أنه صُمّم وبُني من قبل مهندسين وصُنّاع دمشقيين كانت دمشق تشتهر بهم، أمثال الذي ذكرناه آنفاً.

وكانت (الآغورا) أو السوق العامة تقع في الناحية الشرقية، وقد شُقّ بينها وبين المعبد شارع واسع له أروقة فخمة ما تزال تشاهد كثير من أعمدتها. ولمّا لم يعد نهر بانياس يكفي هذه المدينة الواسعة جرى تعزيزه بقناة استمدّت مياهها من مياه بردى أيضاً، وحملت بعض أقسامها على قناطر لاتزال تُشاهَد في حيّ القنوات غربي المدينة. وخُصّصت الأراضي الواقعة في الشمال الشرقي بعيداً عن الأسوار لكي تكون مقبرة لدفن الموتى. واتصلت المدينة بالعالم الخارجي بشبكة طرق مرصوفة تخرج من أبوابها إلى مختلف الاتجاهات، من أهمها الطريق الآخذ إلى فلسطين ومصر. وقُصارى القول ان دمشق ظهرت في ذلك العصر مدينة على النّسق الرّوماني، المطبوع بطابع القوة والأناقة والجمال.

وفي ختام القرن الرابع الميلادي حلّ العهد البيزنطي عام ٣٧٩م لكن لم يحدث تغيير جذري في نظام المدينة، سوى أن معبد جوبيتر تحوّل إلى كنيسة للقدّيس يوحنّا المعمدان في حدود عام ٣٩٥م، واحتلّت بعض المنشآت الأرض الكائنة بين سوري المعبد. وأحدثت أسواق ذات أروقة تصل بين أبواب المعبد الداخلي وبين أسواره الخارجية، يُشاهد جانب منها عند البابين الشمالي والغربي للجامع الأموي. وظلّت الأروقة ذات الأعمدة في الناحية الجنوبية الممتدة من باب الزيادة في الجامع الأموي (عند سوق الصّاغة) باقية حتى القرن التاسع عشر،

شاهدها السائح السكوتلندي جوزايا لزلي بورتر J.L.Porter في عام ١٨٥٥م ، وعدّ منها اثني عشر عموداً، فُقدت جميعها فيما بعد.

* فلسطين تحت حكم الرومان :

ظلّت فلسطين وبلاد الشام خاضعة تحت السيطرة الفارسية لعدة قرون بلا ثورات ولا نزاعات داخلية، حتى نشب النزاع بين الإسكندر الأكبر المقدوني وبين دارا ملك الفرس في سنة ٣٢٢ ق.م، وما لبث الإسكندر أن تُوفي وترك لخلفائه إمبراطورية واسعة؛ اشتعل الصراع حولها بين قواده لعدة سنوات، فشهدت فلسطين وبلاد الشام بسبب تلك النزاعات المستمرة حالةً من الفوضى والاضطراب؛ ظلت مستمرة حتى استولى عليها الرومان في نحو سنة ٦٣ ق.م بقيادة القائد الروماني بومبي، بعد انتصاره على ملك بونتوس، وضمه آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين إلى الإمبراطورية الرومانية.



خريطة فلسطين تحت حكم الرومان

* سيطرة الرومان على فلسطين :

سمح أباطرة الرومان لأبناء فلسطين بنوع من الحكم الذاتي، ونصبوا سنة ٣٧ق.م 'هيرودس الآدومي' ملكاً على الخليل وبلاد يهودا– أوالمملكة الجنوبية المقاطعة المحيطة بالقدس الرومانية، وكانت مساحتها نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة ميل مربع. وكان هيرودس قد اعتنق اليهودية، وفي سنة ١٩ق.م رغب في بناء الهيكل على طريقة بناء سليمان، فقام بهدمه وبنائه ثانيةً.

وقد شهدت البلاد نوعاً من الاستقرار والهدوء طوال عهد هيرودس، الذي ظل يحكم هذه البلاد باسم الرومان حتى وفاته سنة ٤م. وبعد وفاته وقعت البلاد في فتن داخلية، وعظمت الفتن واشتدت ولم تنقطع؛ سواء بين الرومان أنفسهم أو بينهم وبين اليهود من ناحية أخرى حتى تحولت القدس إلى ساحة حرب، وكثر القتلى في الشوارع والأزقة، وأدّى ذلك إلى انتشار الأمراض الوبائية بالمدينة، وتعرّضت القدس للعديد من الكوارث والآفات والأمراض والمجاعات.

وفي عهد الإمبراطور "نيرون" بدأ اليهود في التمرد على حكم الرومان. فقام أحد قادة الرومان – وهو تيتوس– باحتلال القدس في سنة ٧٠م، وحرق الهيكل، فلما علم اليهود بهدم الهيكل مضوا وأحرقوا كل ما كان بالقدس من قصور جميلة مع ما فيها من ذخائر وأموال، فرد عليهم تيتوس بقتل الكثير من اليهود، حتى قيل إن عدد القتلى بلغ أكثر من مليون، وإن عدد الأسرى بلغ (٦٧) ألفًا، وهي أرقام تتسم بالكثير من المبالغة والتهويل كعادة اليهود في إبراز وتضخيم ما لحق بهم من اضطهاد أو تنكيل على مرّ العصور لاستجداء شفقة الضمير الإنساني وابتزاز شعوب الأرض، وتهوين وتبرير كل ما يقومون به من جرائم وانتهاكات في حق أبناء الأرض العربية من شعب فلسطين.

وفي سنة ١٣٢م قام اليهود بالثورة مرة أخرى بقيادة باركوخبا، واستمرت هذه الثورة لمدة ثلاث سنوات، حتى قام الإمبراطور هادريانوس بإخمادها بعد أن خرب القدس وأبادها نهائيًا، وقام بتأسيس مستعمرة رومانية جديدة أطلق عليها إيليا كابيتولينا، وحرم على اليهود دخول هذه المدينة- وهي التي جاء ذكرها في العهدة العمرية باسم إيلياء- وأقام مكان الهيكل اليهودي هيكلاً وثنيًا باسم جوبيتر، وظل الهيكل على هذا الوضع حتى ظهور المسيحية.

ظل الرومان يمنعون اليهود من دخول القدس حتى تولى الإمبراطور قسطنطين في بداية القرن الرابع الميلادي؛ والذي اعتنق المسيحية، وأعاد للمدينة اسمها القديم أورشليم القدس، وأجبر اليهود في القدس على اعتناق المسيحية، فتظاهر بعضهم بالنصرانية، ولكنهم ظلوا على يهوديتهم، ولما امتنع بعض اليهود أن يتنصروا قتلهم، وهدم الهيكل الوثني الذي أقامه الرومان بدلاً من هيكل اليهود.

وأصبحت القدس في عهد الرومان تغلب عليها الصبغة الدينية المسيحية، بعد أن كانت منذ عهد دواد وابنه سليمان- عليهما السلام- ذات صبغة يهودية؛ وقد تأكدت تلك الهوية الجديدة عندما قامت الملكة هيلانة - والدة الإمبراطور قسطنطين- سنة ٣٣٥م بزيارة القدس، وأمرت بهدم المعبد الذي بناه الوثنيون على جبل (الجلجلة)، وأمرت ببناء كنيسة القيامة التي يحج إليها المسيحيون حتى الآن، وأمرت كذلك ببناء العديد من الكنائس والأديرة على جبل الزيتون (الطور)، ومن أشهر هذه الكنائس كنيسة الجثمانية وكنيسة مريم العذراء.

وفي سنة ٣٦١م قام الإمبراطور يوليان بزيارة القدس، وكان قد عاد إلى الوثنية بعد اعتناقه للنصرانية، فأخذ في حشد اليهود إلى القدس، وبدأ في إعمار هيكلهم من جديد.

وفي سنة ٥٩١م أرسل برويز كسرى فارس جيوشه إلى فلسطين، وأمرهم بتخريبها، فقاموا بتخريب معظم مدن الشام، وخاصة القدس والخليل والناصرة وصور، وخربوا كثيراً من الكنائس، وقتلوا كثيراً من النصارى. فلما رأى اليهود خلو بلاد الشام من الرومان اجتمعوا من القدس وطبرية وقبرص ودمشق؛ فكانوا نحو (٢٠) ألفاً، وأتوا إلى صور ليستولوا عليها، فعاد إليهم جيش الفرس وحاصرهم وهزمهم وقتل كثيراً منهم. وظلت بلاد الشام في أيدي الفرس إلى سنة ٦٢٨م، عندما استعادها هرقل ملك الروم ودخل بجيوشه إلى القدس.

* نكبة الدولة الرومانية وانحطاطها :

بدأ العد العكسي في حياة الدولة الرومانية اعتباراً من عام ٢٣٥م فقد شهد ذلك العام ازدياداً خطيراً في الاضطرابات السياسية والاجتماعية وتصاعدت فيه الهجمات الخارجية وخصوصاً من القبائل الجرمانية وعودة نفوذ الإمبراطورية الفارسية في الشرق التي انتزعت أرمينيا من يد الرومان وسيطرت على أراضي ما بين النهرين وزحف الجيش الفارسي واجتاح إنطاكية وسوريا ولم يستطع الرومان صدّه حتى جاء الإمبراطور ديوكلتيانوس Diocletian الذي يعتبر مؤسس الإمبراطورية الثالثة وتمكن من إعادة الحكم بحيث يسند إلى أربعة أشخاص يتقاسمون السلطة وهو النظام الذي عرف باسم الحكم الرباعي، وقد استمر العمل بهذا النظام حتى عام ٣٠٥م ثم تبع ذلك صراع على السلطة استمر طيلة الفترة (٣٠٦-٣١٣)م إلى أن جاء إلى العرش الإمبراطور قسطنطين الذي اعتبر حكمه نقطة تحول أساسية في مسار الإمبراطورية الرومانية.

* عهد الإمبراطور قسطنطين :

خلال الصراع على السلطة شهدت الدولة الرومانية فوضى لم يسبق لها

مثيل حيث كان التنافس على زمام الإمبراطورية بين سبعة رجال وهم ماكسيميان وغاليريوس ومكسنتيوس ومكسيمينيوس دايا وليسينيوس وقسطنطين بالإضافة إلى دوميتيوس ألكسندر الذي أعلن انفصاله في افريقيا، وبدأ الجميع بالانهيار ولم يبق سوى ليسينيوس الذي كان يسيطر على المناطق الشرقية وقسطنطين الذي كان قد قوي وسيطر على المناطق الغربية، وقد توصل الإثنان إلى اتفاق على التعايش والاعتراف لكل من الآخر بسلطته وسيطرته على المناطق التي يحكمها، واستمرت هذه الهدنة حوالي عشر سنوات، وفي عام ٣٢٤م وقع صدام بين الرجلين في معركة أدريانوبل التي انتصر فيها قسطنطين. وبهذا الانتصار قامت قوات قسطنطين بمطاردة قوات ليسينيوس في آسيا الصغرى وتمكّن قسطنطين من اعتقال خصمه وإعدامه وأصبح قسطنطين هو الإمبراطور الوحيد في روما.



الإمبراطور قسطنطين

ولقد ساهم قسطنطين بتوفير الحرية للمسيحيين في روما بإصداره لمرسوم ميلان الذي وفر للمسيحيين حرية العبادة كما أنه اتخذ بعض الإجراءات التي تهم

الدولة منها:

- إعادة النظام إلى الدولة.
- إدخال الإصلاحات التي رآها ضرورية.
- اعتناقه الديانة المسيحية واعتبارها الديانة الرسمية للدولة الرومانية.
- إنشاء عاصمة جديدة لدولته في منطقة بيزنطيوم على ضفاف البوسفور وسماها nueva roma أي روما الجديدة وقد عرفت فيما بعد باسم القسطنطينية.

* تقسيم الإمبراطورية الرومانية :

خلال القرنين الثاني والثالث، حدثت ثلاث أزمات معاً هددت بانهيار الإمبراطورية الرومانية : الغزوات الخارجية، والحروب الأهلية الداخلية، وضعف الاقتصاد. وفي غضون ذلك أصبحت مدينة روما أقل أهمية بوصفها المركز الإداري للإمبراطورية الرومانية. وقد أظهرت أزمة القرن الثالث عيوب النظام المتجانس للحكومة الذي انشأه أوغسطس لإدارة الإمبراطورية الرومانية. لذا فقد أدخل خلفاؤه بعض التعديلات، ولكن الأحداث وضّحت أن نظام عالمي جديد موحد أكثر مركزية هو النظام المطلوب.

وقد بدأت الإمبراطورية الرومانية بالانحسار ببطء في القرن الثالث الميلادي. وكان أحد أهم أسباب انحسار روما المبكر هو تفشي سلسة من الأوبئة، والأشهر من بينها كان الطاعون القبرصي، الذي قضى على شعب الإمبراطورية، وزاد من صعوبة تجنيد الجيوش ورفع الضرائب من قبل الأباطرة الرومانيين. بدأ تقسيم الإمبراطورية في أواخر القرن الثالث من قبل الإمبراطور ديوكلتيانوس في ٢٨٦م، حيث رأى استحالة حكم الإمبراطورية نظراً لاتساع مساحتها، فقام بتقسيمها إلى

قسمين، وخلق بذلك إمبراطوريتين متساويتين ليحكمهما. وبذلك كان عصره نقطة تحول في التاريخ القديم من عصر الإمبراطورية الرومانية إلى العصر البيزنطي؛ فعندما أعتلى عرش الإمبراطورية الرومانية في سنة ٢٨٤م حاول إدخال بعض الإصلاحات بإدماج ولايات وتقسيم ولايات أخرى؛ كانت تهدف إلى السيطرة بكفاءه على الإمبراطورية الرومانية (والمقصود هنا النصف الغربي من الإمبراطورية الرومانية Western Roman Empire، حيث أن النصف الآخر من الإمبراطورية الرومانية أصبح يعرف باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية، واليوم تعرف على نطاق أوسع باعتبارها الإمبراطورية البيزنطية). ومع توالي حكم عدد من الحكام المتعاقبين؛ تم إعادة توحيد الإمبراطوريتين الرومانيتين الشرقية والغربية إلى كيان واحد. وقد كان ثيودوسيوس الأول (كان يطلق عليه أيضاً اسم العظيم) آخر الأباطرة الرومانيين الذين حكموا إمبراطورية رومانية موحدة -(بعد وفاته عام ٣٩٥م. تم تقسيم الإمبراطورية الرومانية بشكل دائم.)- حيث قسّم الإمبراطورية الرومانية لولديه آركاديوس إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية (مع عاصمة بلاده في القسطنطينية)، وهونوريوس في الإمبراطورية الغربية (مع عاصمة بلاده في ميلانو). وبذلك تم تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى شطرين فكانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية تُحكم من القسطنطينية، أما الإمبراطورية الرومانية الغربية فكانت تحكم بالتوالي من قبل روما، وميديولانوم (ميلانو)، ورافينّا. وقد أصدر أوامره بإحراق مكتبة الإسكندرية لما اعتقده أنها تحوي أفكار وفلسفات ومؤلفات وثنية تخالف العقيدة المسيحية التي تبناها كدين رسمي ووحيد في الإمبراطورية الرومانية، كما أصدر عام ٣٩٣م قراراً ديكتاتورياً ثورياً؛ حيث قضى بإلغاء الألعاب الأولمبية باعتبارها مهرجانات وثنية لا تليق بالإمبراطورية الرومانية التي قد نبذت الوثنية واعتنقت المسيحية.

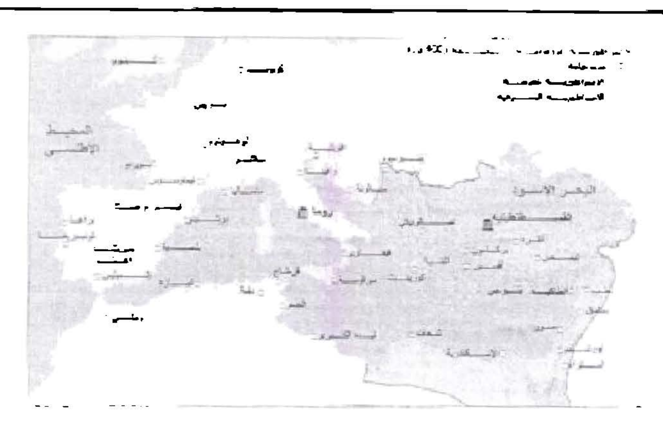
◄ سقوط الدولة الرومانية في الغرب ونهوضها في الشرق :

كما ذكرنا سلفاً يتضح أن الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث قد انتهت كدولة قوية كانت مسيطرة على العالم القديم، وفي بداية القرن الرابع لم تعد الدولة موحدة بالفعل وأصبحت عرضة بشقيها الشرقي والغربي للهجمات الخارجية، ولم يكن هناك مقاومة أو وسائل دفاعية، ولكن تمكن الإمبراطور (ثيودوسيوس) في الشرق من تغيير الأوضاع؛ إذ تمكن من إعادة بناء القوة العسكرية وتنظيم الجيش الذي كان مكوناً من الفرس والقبائل القوطية. وظل الوضع طول القرن الخامس في ازدهار ونمو وتوسع، في حين مرت الدولة في الغرب بالمزيد من الأزمات وعانت من هجمات القبائل الجرمانية. ففي القرنين الرابع والخامس الميلادي، بدأ البدو الرحل هجرتهم من وطنهم في شرق آسيا، وأشاعوا الفوضى في جميع أنحاء قارة أوراسيا. كان الهون إحدى هذه المجموعات المهاجرة، ووصلوا إلى أوروبا في عام ٣٧٠م. وقد سبب وصول الهونيين إلى أوروبا حركة اضطرارية بين القبائل الجرمانية التي كانت قد انتقلت قبل قرون من إسكندنافيا لتستقر على الحدود الشمالية للإمبراطورية الرومانية. وأجبرت هذه القبائل الجرمانية على ترك وطنها والتوجه إلى ضفاف البحر الأبيض المتوسط. فكانت تارة تسكن فيها بسلام، وتارة أخرى تهاجم المدن الرومانية، وتارة تقدم خدماتها التجارية لحماية المدن الرومانية من هجمات الغزاة البربريين الآخرين. وكان القوط الغربيون إحدى أولى المجموعات الواصلة؛ مكتسحة بذلك البلقان بعد أن هزمت جيشاً رومانياً ضخماً في معركة أدرنة عام ٣٧٨م، لتهاجر بعدها إلى إيطاليا وتقتحم روما نفسها عام ٤١٠م، قبل أن تقوم أخيراً بتأسيس مملكة لها في منطقة أكيتانيا. وتبعتها بعد فترة قصيرة قبائل جرمانية أخرى؛ كقبائل الوندال التي اكتسحت أوروبا الغربية وتوجهت من هناك إلى

أفريقيا حيث احتلت قرطاج، وقامت بتأسيس مملكة فيها. لم يبد الغزاة الجرمانيون أي تردد. حيث قامت قبائل أنجل والسكسون بغزو إنجلترا، مجبرة بذلك روما على ترك الجزيرة عام ٤١٠ م. أما قبائل الفرنجة فتمكنت من السيطرة على كامل بلاد الغال. واحتل القوط الشرقيون إيطاليا. وفي منتصف القرن الخامس سيطرت القبائل الجرمانية على الدولة الرومانية في روما وأصبح الأباطرة مجرد أدوات في أيدي زعماء القبائل؛ حتى تمكن الزعيم الجرماني (أودواسر) من خلع الإمبراطور الروماني (رومولوس اغسطولوس Romulus)، وأعلن نفسه ملكاً على روما عام ٤٧٦م وبهذا تم تفكيك الدولة الرومانية في أوروبا الغربية. نلاحظ أن هذا الانهيار كان على مدار أربعة قرون وبلغ ذروته في التدهور النهائي للإمبراطورية الرومانية الغربية في ٤ من سبتمبر ٤٧٦م. وبحلول عام ٥٠٠م لم يعد للإمبراطورية الرومانية الغربية وجود؛ حيث تم استبدالها بعدد من الممالك الجرمانية. أما القوط الشرقيون الذين خلفوا الرومانيين فقد اعتبروا أنفسهم محافظين على النهج المباشر للتقاليد الرومانية. وهكذا كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية لا تزال متماسكة، وستبقى كذلك لآلاف السنين لتُعرف بعدها بالإمبراطورية البيزنطية. (مرت الإمبراطورية الرومانية الشرقية بمسارات مختلفة حيث تدهورت حالتها بصورة شديدة بعد عام ١٠٠٠ م حتى سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م على يد الأتراك.)



الرومانية الإمبراطورية الرومانية الغربية والشرقية بحلول عام ٤٧٦م



*الحقبة الهوهنشتاوفنية في الإمبراطورية الرومانية المقدسة :

هوهنشتاوفن Hehencsteufan أو هوهينستاوفن Hohenstaufen

أسرة من الأمراء في ألمانيا خلال العصور الوسطى اعتلت العرش الإمبراطوري بين عامي ١١٣٨ و١٢٥٤ م. وقد استمدت الأسرة اسمها من قلعة عتيقة شُيِّدت في ستاوفن بجنوبي ألمانيا في القرن الحادي عشر الميلادي. ففي عام ١١٣٨م اعتلى أحد أفراد أسرة هوهينستاوفن عرش ألمانيا، وهو كونراد الثالث، كما كان من حكام آل هوهنشتاوفن أيضاً فريدريك الأول بارباروسا، وهنري السادس، وفريديك الثاني. لقد ارتبطت الحقبة الهوهنشتاوفنية بالمرحلة الأخيرة من تفت الإقطاع في ألمانيا، وإنهيار السيادة الألمانية في إيطاليا. وباستقراء تاريخ الإمبراطورية الرومانية من خلال الأحداث، ندرك أن الحقبة التاريخية كانت صراعاً بين أباطرة الهوهنشتاوفن والبابوية، أما إذا تخطينا هذه الأحداث إلى خلفياتها البعيدة لبدا لنا الواقع صراعاً بين مفهومين للسيادة الواحدة، أحدهما سياسي والآخر روحي، وكان هذا نتيجة حتمية لمفهوم أكثر عمقاً واتساعاً مما كان يقتتل من أجله هنري الرابع وجريجوري السابع، ذلك أن الطرفين أضحى كل منهما يحمل الإدعاء الكامل بالعالمية.

الفصل الرابع

الفنون الرومانية

الفن الروماني يضم الفنون المرئية التي أُنتجت في روما القديمة. وفي أراضي الامبراطورية الرومانية .

* الصيغ الرئيسية للفن الروماني هي :

العمارة، التصوير، النحت، أعمال الفسيفساء، الأشغال المعدنية، قوالب النقود، نقش الأحجار الكريمة، نحت العاج، زجاج التماثيل الصغير، الخزف، الرسوم التوضيحية المنمنمة – (في الكتب تعتبر أحياناً، في المصطلحات الحديثة كـ'صيغ صغرى' من الفن الروماني، بالرغم من أن الذين عاشوا ذلك العصر قد يختلفون حول اعتبارها صيغ صغرى).

* الأشغال المعدنية :

كانت مئات الفنون تستخدم في القصور وفي بيوت الأغنياء لتجعل كل شيء فيها عظيم النفقة إن فاتها أن تجعله جميلاً. فقد كانت أرضها في الغالب من الرخام المتعدد الألوان، أو الفسيفساء الذي عني فيه صانعوه بجمع المكعبات الصغيرة الكثيرة الألوان Cesserae . وبذلوا في ذلك الكثير من الجهد والوقت، فأخرجوا منها رسوماً مدهشة في واقعيتها وثباتها. وكان أثاث هذه القصور أقل عدداً من أثاث بيوتنا وأقل منه مجلبة للراحة، ولكنه يفوق في فخامة نقشه ودقة صنعه. فكانت المناضد، والكراسي، والمقاعد، والمضاجع، والأسرّة، والمصابيح،

والأواني، كلها تصنع من المواد المتينة، كما كانت كثيرة الزينة. وكانت خير أنواع الخشب، والعاج، والرخام، والبرونز، والفضة، والذهب تخرط وتصقل بمنتهى الدقة والعناية، وتنقش عليها صور لأنواع النبات والحيوان أو ترصع بالعاج والفيروز، والصدف والبرونز المنقوش أو الحجارة الكريمة. وكانت المناضد تصنع أحياناً من خشب السرو أو الليمون الغالي، وكان بعضها يصنع من الذهب أو الفضة، والكثير منها يصنع من الرخام أو البرونز. أما المقاعد فكانت على أشكال لا حصر لها، منها مقاعد تطوى إلى عروش للأباطرة ولكنها كانت أقل تشويهاً للعمود الفقري من مقاعد هذه الأيام. وكانت الأسرّة تتخذ من الخشب أو المعدن، وكانت ذات أرجل رفيعة ولكنها ثابتة متينة تنتهي في كثير من الأحيان برؤوس الحيوانات أو أقدامها، وكانت عليها شبكة برونزية تحمل حشية القش أو الصوف بدل الشبكات اللولبية التي تستخدم في هذه الأيام. وكانت نضد رشيقة ذات ثلاثة أرجل تستخدم في الأغراض التي تستخدم فيها نضدنا، وكانوا يضعون في أماكن مختلفة من الحجرات خزانات ذات عيون لتوضع فيها الكتب الملفوفة. وكانت مواقد من البرونز تدفئ الحجرات، ومصابيح من البرونز تضيئها. وكانت المرايا تصنع أيضاً من البرونز، وتصقل صقلاً جيداً، وتنقش عليها أو تحفر فيها أزهار أو صور خرافية. وكان بعضها محدباً أو مقعراً أفقياً أو رأسياً لكي يغير من الصور المعكوسة عليها فيجعلها رقيقة أو ضخمة تثير الضحك.

وكانت مصانع كمبانيا تستخدم منتجات المناجم الأسبانية الفنية فتصنع الكثير من الآنية الفضية لتباع في الأسواق، وبذلك انتشرت صحاف الطعام الفضية في بيوت الطبقتين الوسطى والعليا. وقد عثر أحد الحفارين في عام ١٨٩٥ في حوض لبيت ريفي في بسكوريل Boscoreale على مجموعة عجيبة من الأواني

الفضية لعل مالكها قد وضعها فيه قبل أن ينجو بحياته من نيران بركان ويزوف حين ثار في عام ٧٩ م، ووجدت على أحد الأقداح نقوش لا يكاد يمسها أذى لأوراق نباتية بسيطة، ووجد على قدحين صورة هيكلين عظيمين بارزين، وعلى إناء آخر صورة أغسطس بين الزهرة والمريخ وهما الإله والإلهة اللذان يتنازعان فيما بينهما السيطرة على الجنس البشري، ومنها قدح يدل على شدة الخبث والدهاء وعليه نقش يمثل زينون الفيلسوف الرواقي يشير في سخرية إلى أبيقور وهو يلتهم قطعة كبيرة من الفطائر، وإلى جانبه خنزير رافع ساقه الأمامية يسأله في أدب جم أن يعطيه قطعة منها.

* الحفر :

ويدل على ما وجد من النقود والجواهر في عصر الإمبراطورية الأول على ما وصل إليه فن الحفر من رقي. ويدل على ما وجد منها من عصر أغسطس على نفس الذوق الجميل الذي تدل عليه الرسوم التي يشاهدها الإنسان على مذبح السلام كما يحتوي أحياناً على نفس هذه الرسوم. وكانت الأحجار الكريمة المستوردة من أفريقيا وبلاد العرب والهند تقطع وتركب في الخواتم ودبابيس الصدور والعقود والأساور والأقداح بل وفي الجدران أحياناً. وكان لبس خاتم في إصبع واحدة على الأقل من الضرورات الاجتماعية التي لا غنى عنها، وكان من المتطرفين عدد قليل يلبسون خواتم في جميع أصابعهم عدا واحدة منها. وكان الروماني يطبع إمضاءه بخاتمه، ولهذا كان يحرص على أن يكون هذا الخاتم فريداً في رسمه. وكان من بين الفنانين الذين ينالون أعلى الأجور عدد من قاطعي الجواهر أمثال آل "دسكوريدس" الذين صنعوا خاتم أغسطس. وقد وصل العصر الذهبي في قطع حجر القمو إلى مستوى من الرقي لم يفقه فيه عصر آخر، ولا يزال أجمل ما

وجد في العالم من جواهر جوهرة أغسطس Gemma Augusta المحفوظة في فينًا. وكان جمع الجواهر والحلي ذات النقوش البارزة هواية أثرياء الرومان – ومنهم بومبي وقيصر وأغسطس. وقد ظل ما في خزائن الأباطرة من جواهر يتكاثر على مر الزمن بما ورثوه منها عن أسلافهم حتى باعه ماركس أورليوس لينفق من ثمنه على حربه ضد المركوماني. وقد أخذت إنجلترا منصب حافظ الخاتم الأكبر أو الخاص عن منصب حارس الأختام والجواهر الإمبراطورية في أيام الرومان.

* الخزف :

وفي هذه الأثناء كان خزافو كبوا، وبتيولي، وكومية، وأرتيوم يملأون بيوت الإيطاليين بجميع أنواع الآلية الخزفية. وكان في أرتيوم خوابي للخلط تسع لعشرة آلاف جالون. وقد ظل ما تصنعه من صحاف الطعام المطلية بقشرة زجاجية حمراء مدى قرن كامل أكثر الصحاف انتشاراً في إيطاليا. ووجدت بعض هذه الصحاف في إيطاليا بأجمعها فلم يكد يخلو منها مكان واحد فيها. وكانت الأختام الحديدية البارزة الحفر تستخدم في طبع كل مزهرية ومصباح وقطعة من القرميد باسم صانعها، وكان يطبع عليها أحياناً اسما القنصلين الحاكمين دلالة على تاريخ صنعها. هذا هو الحد الذي بلغه علم القدماء بفن الطباعة، وقد تركوه دون أن يرتقوا به إلى ما فوق هذا القدر، لأن النساخين الأرقاء كانوا يتقاضون أجوراً قليلة.

* الزجاج :

انتقل صناع كوميا، ولترنوم، وأكويليا، من صنع الخزف إلى صنع الزجاج الفني الجميل. ومن أشهر أمثلة هذه الآنية الزجاجية (مزهرية بورتلاند) وأجمل منها (المزهرية الزجاجية الزرقاء) التي عثر عليها في بومبي والتي نقش عليها عيد

خمري لباخوس نقشاً جميلاً ينبض بالحياة . ويقول بلني الأكبر واسترابون : "إن فن صنع الزجاج قد نقل في عهد تيبريوس من صيدا والاسكندرية إلى روما، وسرعان ما أخرج فنانوه قنينات صغيرة، وقداحاً وطاسات، وأواني أخرى متعددة الألوان دقيقة الصنع، جميلة المنظر أصبحت في وقت ما مطلب الأثرياء وجامعي الروائع الفنية". وقد عرض في عهد نيرون ستة آلاف سسترس ثمناً لقدحين صغيرين من الزجاج المعروف في هذه الأيام باسم (ميلفيوري Millefiori) أو (الزهرات الألف)، صنعا بصهر عصي زجاجية مختلفة اللون. وكان أغلى من هذين ثمناً مزهريات (مورهين Murrhine) التي جيء بها من آسيا وأفريقيا. وكانت تصنع بوضع خيوط رفيعة من الزجاج الأبيض والأرجواني بعضهما بجوار بعض للحصول على الرسم المطلوب، ثم إشعال النار فيها، أو ترصيع جسم أبيض شفاف بقطع من الزجاج الملون، وقد جاء بومبي بروائع من هذا النوع إلى روما بعد انتصاره على مثرداتس .واحتفظ أغسطس لنفسه بكأس كليوبترا المصنوعة من زجاج مرهين، وإن كان قد صهر صحافها الذهبية. وقد دفع نيرون مليون سسترس ثمناً لقدح من هذا النوع، وكسر بترونيوس قدحاً آخر وهو يحتضر حتى لا يقع في يد نيرون .ويمكن القول بوجه عام إن الرومان لم يفقهم أحد في صنع الزجاج؛ وقلّ أن يوجد في العالم مجموعات فنية أثمن من مجموعة الآنية الزجاجية الرومانية المحفوظة في المتحف البريطاني وفي متحف متروبوليتان للفنون بنيويورك.



قدح قفصي من كولونيا عُثر عليه في ميونخ، يعود إلى منتصف القرن الرابع الميلادي.
Staatliche Antikensammlungمجموعة



مختارات من الزجاج الگالو- روماني من القرن الرابع

* النحت الروماني :

انتقل فن الخزف إلى النحت عن طريق الصلصال المحروق – (من نقوش بارزة، وتماثيل صغيرة، ولعب، ومحاكاة للفاكهة والعنب والسمك) – حتى وصل آخر الأمر إلى تماثيل بالحجم الطبيعي. وقد وجد الشيء الكثير من هذه في خرائب بومبي. وكانت قواصر الهياكل وطنفها تزينها نقوش تمثل سعف النخل ومثقفات وميازيب في صورة رؤوس حيوانات ونقوش بارزة. وكان اليونان يسخرون من هذه الحليات، وقد أصبحت في عهد الإمبراطورية من الطرز العتيقة، ولم يكن أغسطس ممن يحبون أن تزين القصور بالطين محروقاً كان أو غير محروق.

ولعل ذوقه الأتيكي هو الذي سما بفني النقش والنحت حتى بلغا من الروعة في روما منزلة تضارع ما بلغته أحسن النقوش والتماثيل في البلاد التي امتدت إليها الحضارة اليونانية؛ فقد ظل الفنانون في روما جيلاً ينحتون الفساقي، وشواهد القبور، والعقود، والمذابح نحتاً تبدو فيه رقة الشعور، ودقة العمل، وروعة الشكل، وهدوءه؛ كما يبدو فيه قدر من التشكيل ومراعاة المنظور يرفع النقوش الرومانية إلى مستوى الآيات الفنية العالمية.

أما النحت فحسبنا أن نقول فيه إن مجلس الشيوخ احتفل بعودة أغسطس إلى روما في عام ١٣ ق. م بعد أن أعاد السلام إلى أسبانيا وغالة بأن أمر بإقامة (مذبح السلم الأغسطية Ara Pacis Augustae) في ميدان المريخ. وهذا المذبح افخم ما بقي من أعمال النحت في روما، ولعل شكل مأخوذ عن مذبح (برجموم Pergamum)، ولعل فكرته مأخوذة عن طنف البارثنون المنقوش. وقد أقيم المذبح على مرتفع قليل في مساحة مسوّرة شُيّد بعض أسوارها من المرمر المنقوش. وكل ما بقي من هذا الهيكل قطع من هذه الأسوار. وتمثل إحداها (تلس

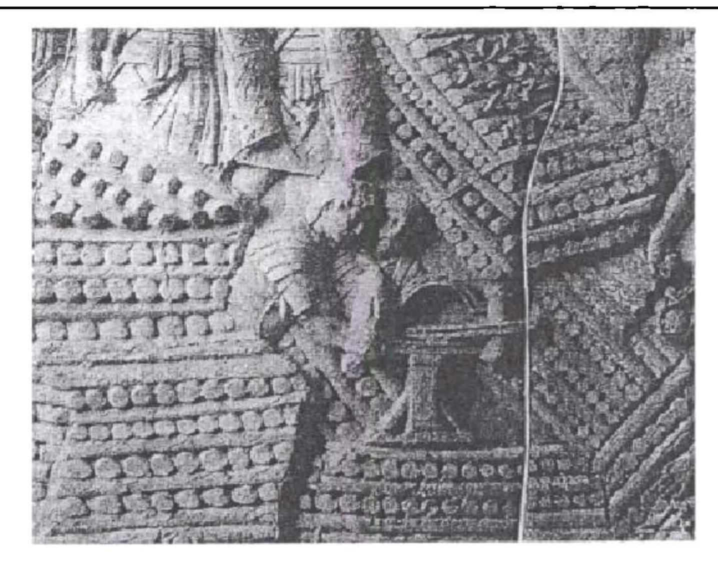
Tellus)– الأم الأرض– وبين ذراعيها طفلان، وإلى جانبها ينمو الحب والزهر، وعند قدميها ترقد حيوانات وادعة راضية. وتلك هي المبادئ الرئيسية التي قامت عليها إصلاحات أغسطس: عودة الأسرة إلى أحضان والديها، وعودة الأمة إلى الزراعة، وعودة الإمبراطورية إلى السلم. والرسم الأوسط لا يكاد يفوقه رسم آخر مهما عظم، والحق أن فيما جمعه من الأمومة الناضجة، والجمال الأنثوي، ورقة القلب، ورشاقة الشكل، لكمالاً ورقّة لا ترقى إليهما آلهات البارثنون الفخمة العظيمة. وكان لطنف السور الخارجي بروز سفلي ذو درج مسنفة ، أو منقوش عليها تويجات الفاوانيا والخشخاش العريضة، وعناقيد كبيرة من ثمار اللبلاب. وهذه أيضاً نجد لها نظيراً في غير هذه التحفة الفنية. وعلى بروز آخر نقش موكبان يتحركان في اتجاهين متضادين ليلتقيا أمام مذبح آلهة السلام. وفي هذه المجموعات صور هادئة وقورة لعلها صور أغسطس وليفيا والأسرة الإمبراطورية، ومعها عدد من النبلاء والكهنة والعذارى الفستية والأطفال. وصور الأطفال واقعية جذابة تستلفت النظر بحيائها وطهرها. ومن بينها طفل رضيع يحبو كأنه لا يجد لذة في هذا الاحتفال، وآخر وهو ولد يفخر بما بلغه من العمر، وطفلة صغيرة بيدها طاقة زهر، وأخرى تؤنبها أمها على عمل خبيث. ومن ذلك الحين بدأ الأطفال يكون لهم شأن متزايد في الفن الإيطالي؛ ولكن فن النحت الروماني لم يصل في يوم من الأيام إلى ما وصل إليه وقتئذ من قدرة على تصوير السجف، والمجموعات الطبيعية القوية المؤثرة، وتنظيم الأضواء والظلال تنظيماً أوفى على الغية في الإتقان. وقد وجد الإيطاليون في هذا النقش كما وجدوا في شعر فرجيل أكمل وسيلة للدعاوة لأنفسهم وإذاعة مجدهم في أنحاء العالم.

وليس ثمة نقوش رومانية تضارع هذه النقوش إلا النقوش المنحوتة على الأقواس التي كانت تقاوم عند دخول القواد الظافرين. وأجمل ما بقي من هذه الأقواس قوس تيتس الذي بدأه فسبازيان وأتمه دومتيان لتخليد ذكرى فتح بيت المقدس، ويمثل أحد هذه النقوش (المدينة المحترقة) وأسوارها المهدمة، وأهلها الذين استولى عليهم الرعب، وثروتها التي تنتهبها الفيالق الرومانية. ويمثل نقش آخر تيتس يسير إلى روما في مركبته بين الجنود، والحيوانات، وكبار الحكام، والكهنة، والأسرى، ومن ورائه ثريات الهيكل المقدسة وغيرها من غنائم الحرب على اختلاف أنواعها. وقد كان الفنانون الذين حفروا هذه الرسوم جد جريئين في تجاربهم: فقد حفروا صوراً تختلف باختلاف المستويات، ووزعوها على سطوح متفاوتة الارتفاع، ونحتوا خلفية الصورة بحيث تمثل العمق، ولونوا الصورة كلها لتحمل إلى الرائي درجات مختلفة من الاكتظاظ والبعد، فوق ما تحمل من المعاني الأخرى. وأما الأعمال التي تمثلها الصورة فلا تظهر كأنها حوادث متفرقة بل تبدو مستمرة دائمة، كما تبدو في طنف بلاد النهرين ومصر، وكما تبدو فيما بعد على أعمدة الإمبراطورين تراجان وأورليوس؛ وبذلك استطاعت أن تمثل معنى الحركة والحياة على خير وجه. كذلك لم يعمل العرف والمثل الأعلى عملهما في الصورة فيخرجاها عن الواقعية ويفرضا عليها ما فرضه الفن الأتيكي على صور (مذبح السلام) اليوناني؛ بل إن اناسه أناس واقعيون من لحم ودم وأقذار نحتوا على سنن التقاليد الإيطالية تقاليد الواقعية والحيوية. ولم يكن موضوعها هو الآلهة المكملة بل كان هو الآدميين الأحياء. وهذه الواقعية القوية هي التي تميز فن النحت الروماني. ولولا إخلاص الرومان المتواتر لهذه النزعة المتأصلة في نفوسهم لما أضافوا إلا القليل لعالم الفن.

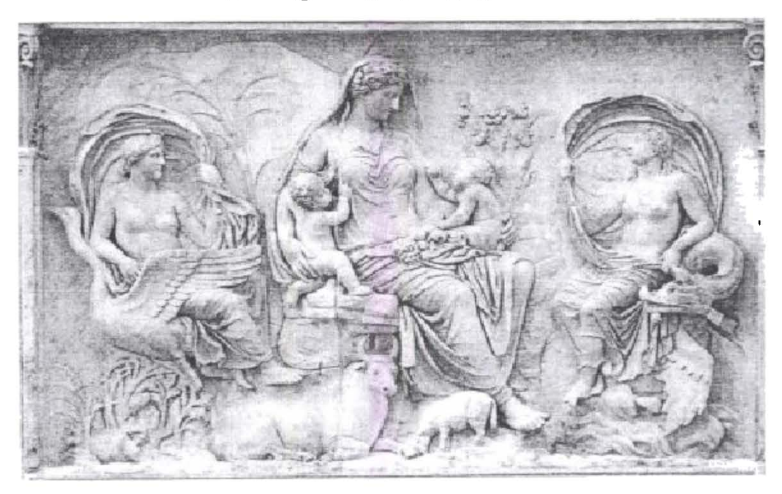
وقد حدث في عام ٩٠ ق. م أن جاء على روما رجل يوناني من أهل إيطاليا الجنوبية يدعى بستليز Pestiles، وأقام فيها ستين عاماً كاملة، أخرج فيها تحفاً فنية من الفضة والعاج والذهب، وجاء إليها بالمرايا الفضية، وأخرج نسخاً متعددة من روائع الفن اليوناني، وكتب خمسة مجلدات عن تاريخ الفن. فكان بذلك فساري وسليني زمانه في آن واحد. كذلك قدم يوناني آخر يدعى أرسلوس لقيصر تمثالاً ذائع الصيت لفينوس جنتركس. ونحت أبولونيوس الأثيني تمثال (الترسو بلفدير Torso Belvedere) في الفاتيكان، وهو تمثال خلت فكرته من الغلو، فليس فيه عضلات بارزة، بل يمثل رجلاً في كمال القوة وصحة الجسم، ولعل نحته في روما نفسها. وكل ما نستطيع أن نقوله عن هذا التمثال أنه بلغ الكمال الى الحد الذي كان يبغي صاحبه أن يمثله فيه.

وقد ظلت مناحت الفنانين وقتاً ما تعمل جاهدة في إعطاء الآلهة الإيطالية صوراً يونانية، ولم تستثن من ذلك التجريدات القدسية كالفرصة والعفاف. ويغلب على الظن أن جليكون Glycon الأثيني نحت في هذا الوقت نفسه وفي مدينة روما تمثال (هرقل الفرنيزي). ولسنا نعرف متى صنع تمثال (أبلو بلفدير) ولا متى صنع، ولعله صورة رومانية لتمثال أصيل نحته ليوكارس Leochares الأثيني. ويعرف كل طالب علم كيف آثار جماله الهادئ نشوة ونكلمان Winkelmann الأوزانية . ونحت ليونو في ذلك الوقت تمثالين هما تمثال (يونو الفرنيزية) المنحوت من حجر السماق والمحفوظ في متحف نابلي، وتمثال يونو اللدفيزية المحفوظ في ترم Terme–وهو تمثال فاتر، عابس، ينم عن الاستقامة والعدالة؛ إذا نظر إليه الإنسان بدأ يفهم طواف جوف وتجواله. كانت هذه التماثيل كلها كما كان تمثال (برسيوس واندرمدا Perseus and Andromeda) الجميل

المحفوظ في متحف الكبتول من الطراز اليوناني الذي اتخذ طرازاً عاماً في النقش ومثلاً أعلى له. وقدس تقديساً يبعث على الأمل والسآمة. وأكثر من هذه النقوش إلفاتاً للنظر واسترعاء للانتباه التماثيل النصفية التي هي بمثابة معجم من البرونز والرخام لجميع وجوه الزمان من عهد بومبي إلى عهد قسطنطين. وهذه أيضاً قد اتخذ بعضها مثلاً أعلى وخاصة رأسا يوليوس وكلوديوس. ولكن النزعة الواقعية التسكانية القديمة ومغميات الموتى التي لم يكن فيها شيء من المجاملة والملق، والتي لم تكن تغيب قط عن أعين المثالين، قد جعلت الرومان لا يستنكفون قط أن يمثلوا بمعارف قبيحة على شرط أن يظهروا في تماثيلهم أصحاء أقوياء. وقد أوصى الكثيرون منهم بتماثيلهم للميادين والأماكن العامة، وبلغت هذه التماثيل الموصى بها من الكثرة حداً خيل معه في وقت من الأوقات أن الذين يملكون روما من الموتى أكثر ممن يملكونها من الأحياء؛ وقد بلغ من حرص بعض الكبراء على أن توضع تماثيلهم في الأماكن أنهم لم يصبروا حتى تنصرم آجالهم، فأقاموا لأنفسهم تماثيل قبل وفاتهم. ودفعت الغيرة الأباطرة إلى تحريم هذه العجلة في التخليد حتى تتسع روما للأحياء من أبنائها.



التفاصيل من عمود تراجان مع منجنيق



مشهد استعاري للإمبراطور أغسطس،

يلاحظ استمرار النمط اليوناني في منحوتات الدولة الرومانية.

▸ البورتريه :

وأعظم التماثيل النصفية الملونة هو التمثال المعروف باسم (رأس قيصر) المصنوع من حجر البازلت والمحفوظ في متحف برلين. ولسنا نعرف من الذي يمثله هذا التمثال النصفي رغم هذه التسمية، ولكن شعره القليل، وذقنه المحدد، ووجهه الرفيع البارز العظام، وما فيه من خطوط عميقة دالة على كثرة القلق والتفكير، والعزيمة المستسلمة للحقائق بعد أن زالت عن الأعين غشاوتها وعن العقول أوهامها، كل هذه تتفق مع صفات قيصر الذي تعزو إليه الرواية هذا التمثال. ويلي هذا التمثال النصفي في القدر مباشرة التمثال الضخم الذي يمثل (رأس قيصر) والمحفوظ الآن في نابلي؛ وفي هذا التمثال تعمقت أخاديد الوجه حتى نمت عن حقد ومرارة، كأن هذا الجبار قد عرف آخر الأمر أن ليس في العالم عقل بلغ من السعة قدراً يمكنه من فهم العالم دع عنك حكمه.

وترى الواقعية التي تصل إلى حد يبعث على الاشمئزاز بادية في تمثال (بومبي) المقام في ناي كارلسبرج جلبتوتك Ny Carlsberg Gluptotek بكوبنهاجن Copenhagen وينطق هذا التمثال بأن صاحبه قد نسي في البداية الكهولة وهزائمها ما ناله بشجاعته من مجد ونصر في عهد الشباب. ولدينا لأغسطس نحو مائة تمثال، كثير منها جيد غاية الجودة، متقن غاية الإتقان منها : تمثال (أغسطس الغلام) –المحفوظ في الفاتيكان– والذي يبدو فيه صاحبه جاداً ثاقب البصر نبيلاً؛ وهو أجمل صورة لغلام حقيقي في جميع عصور التاريخ على الإطلاق. ومنها تمثال (أغسطس في الثلاثين من عمره) –المحفوظ في المتحف البريطاني– وهو تمثال من البرونز تبدو فيه العزيمة القوية الصادقة، ويذكرنا بقول ستونيوس: "إن الإمبراطور كان يسعه أن يطفئ نار الفتنة بنظره"؛ ومنها تمثال

(أغسطس القس) -في متحف ترم- ذو الوجه الدال على التفكير العميق بارز من السجف المحيطة به من كل جانب؛ وتمثال (أغسطس القائد) الذي عثر عليه في خرائب قصر ليفيا الريفي في بريما بورتا Prima Porta والمحفوظ في الفاتيكان؛ وقد غطى الدرع البرونزي الذي يحمل صدر هذا التمثال الشهير بنقوش غريبة تربك الناظر وتحوله عن تأمل التمثال نفسه. ووقفة أغسطس كما يصورها هذا التمثال ثابتة قوية، وساقاه أقوى ما تكونان لشخص عليل مثله؛ ولكن الرأس يمثل القوة الهادئة، والثقة بالنفس تكشف عن يد الفنان العظيم ونفسيته.

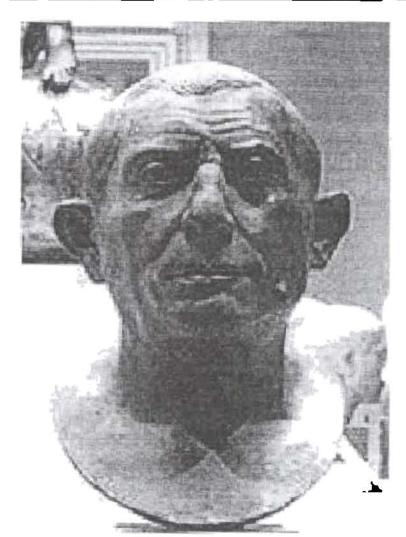
وكانت (ليفيا) حسنة الحظ إذا سخرت الأقدار فناناً عظيماً لصنع رأسها المحفوظ في كوبنهاجن. ترى في هذا الرأس الشعر الجميل، والأنف الروماني الأقني الذي ينم عن قوة الخلق، والعينين الدالتين على الحنان والتفكير، والشفتين الجميلتين الدالتين على القوة والثبات. وتلك هي المرأة التي وقفت وراء عرش أغسطس تدعمه بهدوئها، والتي غلبت جميع منافسيها وأعدائها، وسيطرت على الناس جميعاً عدا ولدها. وكان (تيبريوس) هو الآخر رجلاً محفوظاً. ذلك أن تمثاله الجالس المحفوظ في متحف لاتران، يعد آية فنية أخرجتها يد مثال لا يقل براعة عن المثال الذي نحت من حجر الديوريت تمثال خفرع المحفوظ في المتحف المصري. أما (كلوديوس) فلم يكن حظه حظ من سبقوه، وما من شك في أن المثال كان يسخر منه، أو أنه كان يمثل الصفات التي وصفه بها سنكا في هجائه المشهور. فقد صوّره في صورة جوبتر المتعب المتضجر، بديناً، ظريفاً، أبكم. وأجهد نيرون نفسه في أن ينمي حاسة الإحساس بالجمال؛ ولكن أعظم ما كان يرغب فيه هو الشهرة والضخامة؛ ومن أجل هذا لم ير لـ زنودوتس Zenodotus اسكوباس Scopas زمانه شيئاً أفضل من أن يقضي وقته في نحت تمثال له في

صورة أبلون يعلو مائة وسبع عشرة قدماً . وأمر هدريان أن يوضع هذا التمثال في صدر المدرج الفلافي، ومن ثم سمى هذا المدرج باسم الكولوسيوم Collosseum لضخامة هذا التمثال .

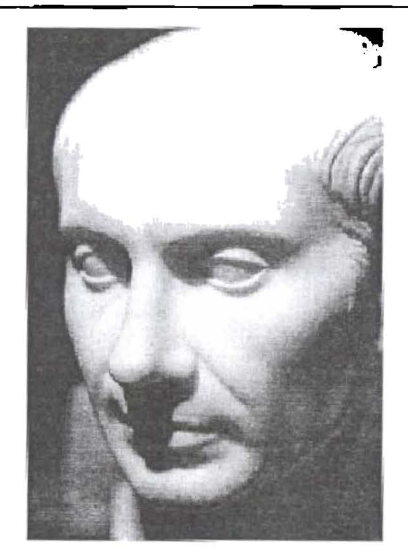
وعاد فن النحت إلى واقعيته في عهد فسبازيان الأمين، فسمح لمثاليه أن يكونوا صادقين في تصويره في صورة السوقي الحق، ذي معارف غليظة خشنة، مغضن الجبهة، أصلع الرأس ضخم الأذنين. وخير من هذا وأكثر منه دلالة على الرحمة التمثال النصفي المحفوظ في ترم Terme ، والذي يدل على نفس شغلتها شئون الدولة عن نفسها؛ ووجه رجل الأعمال الذي يطل على الناظر إليه من الأس الضخم المحفوظ في متحف نابلي. ويصل إلينا تيتس في جمجمة كالسابقة مكعبة الشكل، ووجه غير جميل. وإن المرء ليصعب عليه أن يعتقدا أن هذا الشخص الذي يبدو في تمثاله كأنه من الباعة المتنقلين هو حبيب البشر أجمعين. وقد أوتي دومتيان من بعد النظر في العصر الفلافي ما جعله يعمل على أن يبغضه الشعب في حياته فيحطم جميع تماثيله بعد وفاته.

ولما خرج الفنان من القصر وأخذ يجول في الشوارع استطاع أن يطلق العنان للنزعة الإيطالية الخبيثة، نزعة الحقيقة الفكهة المضحكة. وما من شك في أن شيخاً طاعناً في السن أقل حكمة ومالاً من الوزير الفيلسوف هو الذي يصوره التمثال الهزيل الكث الشعر الذي كانوا يقولون عنه من قبل إنه تمثال سنكا. واستطاع الفنانون المشهورون في فترة من الزمن أن يمثلوا عضلات الرياضيين تمثيلاً يخلدها على مدى العصور. وشقت تماثيل المصارعين طريقها إلى أكبر البيوت، سواء كانت بيوت الأثرياء الريفية أو قصور الكبراء في الحواضر. وكان المثالون الرومان رحماء وهم ينحتون تماثيل النساء: فتراهم بين الحين والحين

ينحتون تمثالاً لامرأة سليطة حمقاء، ولكنهم صنعوا بالإضافة إلى هذا تماثيل لبعض العذاري الفسقية، ومثلوا وقارهن ورشاقتهن أحسن تمثيل. كما صنعوا في بعض الأحيان تماثيل تتجلى فيها رقة القلب مجسمة كتماثيل (الكليتي Clytie) المحفوظة في المتحف البريطاني، وأخرى لنساء من الأشراف هشة لينة تسحر اللب سحر دُمَى وتو Watteau أو فروجونارد Frogonard. وكانوا جد بارعين في تمثيل الأطفال كما يدل على ذلك تمثال الغلام البرونزي المحفوظ في متحف نيويورك، أو تمثال الطفلة البريئة المحفوظ في متحف الكبتول. وكان في وسعهم أن ينحتوا أو يصبوا تماثيل حيوانات مدهشة في دقتها ووضوح معالمها، كما نرى ذلك في رؤوس الذئاب التي وجدت في نيمي عام ١٩٢٩، أو الخيل الواثبة في سانت مارك .St. Mark نعم إنهم لم يبلغوا قط ما بلغته مدرسة بركليز الفنية من كمال وبراعة في الصقل؛ ولكن منشأ هذا النقص أنهم كانوا يحبون الفرد أكثر مما يحبون الطراز، وأنهم كانوا يعتزون بالنقائص الحقيقية التي هي سمة الحياة. وقصارى القول أن هؤلاء الفنانين رغم قصورهم قد سموا إلى أعلى مكانة في تاريخ الفن التصويري.



فن البورتريه الروماني يتميز بواقعية "الدمامل وكل التفاصيل"



تمثال لرأس يوليوس قيصر



تمثال انطونيوس ١٣٠ ق.م.

* تصوير الانتصارات :

لقد كان من يزور روما في الزمن القديم يجد فن التصوير أكثر انتشاراً من فن النحت في هياكلها ومساكنها، وأروقتها، ذات العمد، وميادينها؛ وكان يعثر فيها على الكثير من أعمال كبار الفنانيين الأقدمين أمثال بولجنوتس Polygnotus وزيوكسيس Zeuxis، وأبليز Appeles، وبروتجنيس Protogmese وغيرهم. ولم تكن الأعمال أقل قيمة أو أقل تقديراً في الإمبراطورية الواسعة الثراء من صور عهد النهضة الأوربية في أمريكا الغنية في هذه الأيام؛ وكان يجد أعمال رسامي الاسكندرية وروما أعظم وفرة في روما القديمة من صور النهضة في أمريكا الحديثة وذلك لحسن تعهدها وشدة العناية بحفظها. لقد كان الفن قديماً في إيطاليا حيث كان كل جدار يتطلب الفن، والتجميل. وأتى على إيطاليا حين من الدهر كان نبلاؤها أنفسهم يمارسون هذا الفن، ولكن تيار الحضارة الهلنستية الجارف جعل التصوير يوناني الطابع شديد الخضوع للعرف والتقاليد حتى أنتهى الأمر بأن عجب فالريوس مكسمس Valerius Maximus من أن فابيوس بكتور Fabius Pictor ينزل من علائه فيصور على جدرانه (هيكل الصحة). غير أنا نجد حالات شاذة لا ينطبق عليها هذا التعميم؛ من ذلك ان أرليوس Arellius قد ذاع صيته في أواخر عهد الجمهورية لأنه كان يستأجر العاهرات ليكن نماذج لصور الآلهات؛ وحدث في عهد أغسطس أن اشتغل بالتصوير شريف ابكم يدعى كونتس بديوس Quintus Pedius لأن عاهته قد سدت في وجهه جميع سبل الأعمال الأخرى؛ واستخدم نيرون لتزيين بيته الذهبي مصوراً يدعى أمليوس Amulius كان يرسم في وقار جم وهو مرتد جبته.

ولكن هؤلاء الرجال كانوا متفرقين في بحر المصورين اليونان الخضم الذين أخذوا يخرجون في روما وبومبي وسائر أنحاء الجزيرة نسخاً من الرسوم اليونانية مطابقة لها أو مختلفة بعض الشيء عنها، تمثل موضوعات يونانية أو مصرية.

وكاد فن التصوير في روما أن يكون مقصوراً على المظلمات والألوان المائية الممزوجة بمادة غروية لاصقة توضع فوق سطح جاف. وكان المصورون يلجأون في بعض الأحيان إلى تثبيت الألوان بالحرارة، وذلك بإذابتها في الشمع الشديد الحرارة. أما من حيث حجم الصور فإنا نذكر أن نيرون أمر بأن ترسم صورته على قطعة من القماش يبلغ ارتفاعها مائة وعشرين قدماً – وهذه الصورة أول ما لدينا من صور استخدم فيها قماش التصوير. وقد سبق القول إن الألوان كانت تستخدم في تلوين التماثيل، والهياكل، والمناظر المسرحية، والصور الكبيرة المرسومة على الأقمشة التيلية لعرضها في السوق العامة في أوقات الاحتفال بالنصر، ولكن مواضعها المحببة كانت هي الجدران الخارجية في المباني. وقلّما كان الرومان يضعون الأثاث مستنداً إلى الجدران أو يعلقون عليها الصور، ذلك أنهم كانوا يفضلون أن يستخدموا الجدار كله ليرسموا عليه صورة واحدة أو مجموعة من الصور المتصلة بعضها ببعض في موضوعها. وبهذه الطريقة أضحت الصورة الجدارية جزءاً متمماً للبيت وعنصراً أساسياً في هندسته المعمارية. وقد حفظت لنا أبخرة فيزوف الحارقة نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة منها – وهي يزيد عددها في بومبي وحدها على عدد كل ما وجد منها في سائر أنحاء العالم القديم.

وإذ كانت بومبي في أيامها من المدن المتوسطة الحجم غير العظيمة الشأن فإن في وسعنا أن نتصور عدد الرسوم الجدارية التي كانت تزدان بها المنازل والأضرحة في إيطاليا القديمة. وقد نقل أحسن ما بقي من هذه الرسوم إلى متحف

نابلي، ولا يزال لجمالها الهادئ رغم انتقالها إلى مكانها الجديد أعظم الأثر في نفس من ينظر إليها؛ ولكن الأقدمين وحدهم هم الذين كانوا يعرفونها في عمق ألوانها وفيما بها من إطار هندسي يجعل لكل صورة من هذه الصور معنى خاصاً وموضعاً خاصاً. وقد تركت الصور الجدارية التي في بيت فتاي في أماكنها الأصلية. فترى في المطعم ديونيشس يفاجئ أدرياني النائمة، وترى على الجدار المقابل لهذه الصورة ديدالس Daedalus يعرض بقرته الخشبية على باسفاني Pasifa . وفي الطرف الأقصى من الجدار ترى هرمس ينظر في هدوء إلى هفيستس Hephaestus؛ وهو يشد إكسيون Ixion إلى عجلة التعذيب. ونشاهد في حجرة ثانية مظلمات مضحكة متتابعة فيها صور متعددة لكيوبد إله الحب يسخر مما في بومبي من صناعات بما فيها صناعة الخمر في فتاي. وقد عدت عوادي الأيام على هذه الصورة التي كانت من قبل ناضرة براقة، ولكن ما بقي منها يكفي لأن يشعر الزائر بما يجب أن يكون عليه من تواضع وحياء، فصور الأجسام البشرية تكاد تبلغ الغاية في الإتقان والجودة. وتكاد تنبض بالحياة وتثير دم الشهوة في عروق الأحياء من بني الإنسان. ولقد حاول الخبراء أن يفهموا ماهية فن التصوير في إيطاليا القديمة ويصنفوا عصوره وأنماطه بالاعتماد على ما وجدوه من نماذج له في إيطاليا القديمة. وهذه الطريقة في التصنيف خطرة غير مأمونة لأن بومبي نفسها كانت يونانية أكثر منها لاتينية؛ ولكن ما بقي في روما وضواحيها من رسوم قديمة يتفق إلى حد كبير مع تطور فن التصوير في بومبي.

ففي الطراز الأول (القرن الثاني قبل الميلاد) حين كانت الجدران تغطى بقشرة كاملة قبل الرسم عليها، كانت الجدران في أغلب الأحيان تلون بحيث تبدو كأنها مطعمة بألواح من الرخام كما تشاهد في (بيت سلت) في بومبي.

وفي الطراز الثاني أو الطراز المعماري (القرن الأول قبل الميلاد) كان الجدار يطلى ليمثل بناء أو واجهة أو بهواً ذا عمد، وكثيراً ما كانت العمد ترسم كما تبدو للناظر إليها من الداخل، وبينها مظاهر الريف الخلوية، وبهذه الطريقة كان الفنان يضفي على الغرفة التي لا نوافذ لها في أغلب الظن محيطاً ذا نسيم عليل من الأشجار والأزهار والحقول، والجدول، والحيوانات الهادئة أو المرحة اللاعبة. وكان في وسع ساكنها السجين فيها أن يتخيل أنه مقيم في حدائق لوكلس، ولم يكن ذلك ليكلفه أكثر من النظر إلى الجدران كما كان في وسعه أن يصيد السمك، أو يقتنص الحيوان، أو يداعب الطيور ويدللها، ويعتز بها في غير فصولها وأيامها، وذلك لأن الطبيعة كانت تنقل إليه في منزله فلا يتحمل هو مشقة الانتقال إليها.

وفي الطراز الثالث أو طراز التحلية (١- ٥٠ م) كانت الأشكال الهندسية المعمارية للزينة لا غير، وكانت تضع المناظر الطبيعية في المنزلة الثانية بعد صور الآدميين.

وفي الطراز الرابع المختلط المعقد كان الفنان يترك العنان لخياله يخترع تراكيب وأشكالاً غريبة، ويضعها في مواضعها وهو مرح ساخر مما تتطلبه الحشمة والوقار، ويكدس في صورته الحدائق والعمد والبيوت الريفية والجواسق بعضها فوق بعض كتشويش الرسوم في هذه الأيام ؛ وكثيراً ما كان يحصل بهذا على الأثر الذي تحدثه في الناظر صورة تكملها ذكريات لا واعية سلطت عليها الأضواء. وكان فن العمارة في جميع هذه الطرز المتقاربة إما خاضعاً للتصوير ومسيطراً عليه يخدمه ويستخدمه، فأنشأ فيه بذلك تقاليد عادت إلى اليقظة بعد ستة عشر قرناً على يدي نقولاس بوسن Nicholas Poussin

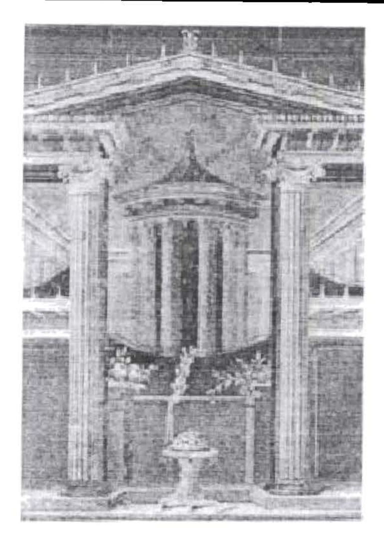
ومن دواعي الأسف أن ما بقي من موضوعات الرسوم الكبرى قلّما يتعدى الأساطير اليونانية؛ فالآلهة، وجن الحراج، والأبطال، والخاطئون المذنبون - زيوس، والمريخ، وديونيشس، وبان، وأخيل، وأديسيوس، وإفجينيا، وميديا هذه كلها تتكرر تكراراً يبعث على الأمل والسآمة. وإن كانت هذه التهمة بعينها يمكن توجيهها إلى فن النهضة. وثمة صور قليلة تمثل الحياة الهادئة الساكنة. كما أننا نعثر في مواضع متفرقة على مطرقة أو صاحب حانة أو قصّاب يلتمع فوق جدران بومبي. وكثيراً ما يسيطر الحب على المنظر برمته فترى فتاة مطرقة يتنازعها شوق كمين ليس معدوم الصلة بإيروس إله العشق الواقف إلى جانبها. وترى الفتيات والشبان يمرحون على الكلأ يتبادلون نظرات الوجد والهيام، وأرباب الخمر والفسق يلعبون كأن المدينة لم تعرف في حياتها شيئاً غير الحب والخمر؛ وإذا ما حكمنا على نساء بومبي من صورهن التي على الجدران كانت هؤلاء النسوة خليقات بأن يكون جمالهن محور الحياة بأجمعها في تلك المدينة. فنحن نراهن منهمكات في لعبة (الكعاب) أو متكئات في رشاقة على القيثارات، أو نشاهدهن يقرضن الشعر والأقلام بين شفاههن، ودلائل التفكير بادية على ملامحهن، ووجوههن هادئة من أثر النضوج، وأجسامهن سليمة صحيحة كاملة النمو، وأثوابهن مسبلة عليهن، فضفاضة أنيقة كأنها من نحت فدياس، يمشين كأنهن كلهن (هلن) اليونانية التي سلبت عقل باريس بن بريام، مدركات قداستهن. وترى إحداهن ترقص رقصة باخوسية لعلها في هواء رقيق، وذراعها ويدها وقدمها اليمنى من أجمل ما رأته العين في تاريخ التصوير. ويحب أن تضم إلى هذه الروائع بعض صور الرجال أيضاً كصورة تسيوس Theseus وهو ينتصر على المونوتور Minotaur وهرقل وهو ينجي ديانيرا Deianira أو يتبنى تلفوس Telephus ، وأخيل يسلم وهو غضبان آسف برسيس Briseis المتمنعة الآبية. وكل شكل رسم في هذه الصورة الأخيرة

يكاد يبلغ الغاية في الكمال ويصل فيه التصوير إلى ذروة الإبداع. وللفكاهة أيضاً نصيبها من التصوير؛ فهذا زعيم أشعث يتعثر على عكازته، وهذا جني ظريف يهز ساقيه في مرح تهكمي، وهذا سلينس Silenus أصلع بذيء يصور وهو في نشوة موسيقية. وللحانات والمواخير أيضاً مكانها في زينة الجدران، ولا يجد السائح المتقصي حاجة لأن يقال إن بريابس Priapus لا يزال يزهو بقواه الثمينة على جدران بومبي. وفي الطرف الآخر من هذه السلسلة حيث توجد بيوت الضواحي نرى طائفة من الصور الدينية توحي بأن المكان كان يستخدم للاحتفال بالطقوس الديونيشية الخفية؛ ففي أحد المظلمات نشاهد بنتاً أمعنت في تقواها بغير رفق حتى شلت حركتها، تقرأ في كتاب يبدو أنه كتاب مقدس؛ وفي مظلم آخر يتقدم موكب من الفتيات ينفخن في الأبواق، ويأتين بالقرابين؛ وفي مظلم ثالث نرى سيدة عارية ترقص على أصابع قدميها وإلى جوارها راهبة مبتدئة راكعة على ركبتيها، منهوكة القوى من شدة ما قاست في أحد الطقوس الدينية . وأجمل من هذه كلها نقش جداري عثر عليه في خرائب ستابيا Stabiae من نوع نقوش بوتيتشلي Botticelli ومتقدم عليها، ويسمي هذا النقش الربيع: وهو يمثل امرأة تمشي في حديقة على مهل تقطف الأزهار، ولا يرى منها إلا ظهرها ورأسها تديره بخفة ورشاقة إلى خلفها؛ وقلّما استطاع فن من الفنون أن يصور ما في هذا الموضوع السهل من شاعرية تصويراً مؤثراً في النفس مثيراً للعواطف كما صوره هذا الفنان. وأقوى ما وجد من الصور في هذه الخرائب صورة ميديا التي عثر عليها في هركيولانيم Herculaneum وحفظت في متحف نابلي، وهي تمثل امرأة مطرقة عليها ثياب فاخرة تفكر في مقتل أبنائها؛ ويلوح لنا أن هذه صورة منقولة عن الصور التي أجاز عليها قيصر مصورها تيموماكس Timomachus البيزنطي بأربعين ألف وزنة (تالنت) حوالي ١٤٤٠٠٠ دولار أمريكي .

ولم يوجد في روما إلا القليل من الصور التي تبلغ هذه المنزلة، ولكن عثر في بيت ليفيا المقام في بريما بورتا Prima Porta على مثل رائع من صور المناظر الطبيعية التي تسمو فيها إيطاليا على بلاد اليونان. فيه تخدع العين فيظن الإنسان أنه يجتاز بهواً إلى تكعيبة في أرض رخامية من ورائها أجمة من النبات والأزهار بلغت من الإتقان حداً يمكن العالم النباتي في هذه الأيام من أن يتبينها ويصنفها؛ فكل ورقة من أوراقها رسمت بشكلها ولونها الطبيعيين، والطيور تجثم على مواضع متفرقة منها كأنها تحط عليها إلى وقت ما، والديدان تزحف بين الأغصان والأوراق. ويقرب من هذه الصورة في روعتها ورقتها عرس الديرنديتي التي وجدت في التل الإسكويلي في عام ١٦٠٦ والتي درسها روبن Rubens وفان ديك وجيتة بحماسة بالغة. وقد تكون هذه منقولة عن صورة يونانية؛ وقد تكون صورة أصلية من عمل رسام يوناني استوطن روما، أو من عمل روماني أصيل. وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن ما عليها من صور الأشخاص- كصورة العروس الهادئة الحية، والآلهة التي تسديها النصيحة، والأم المنهمكة في الاستعداد للعرس، والعذارى ينتظرن ليعزفن على القيثارة ويغنين - كل هذه قد رسمت برقة وحساسية ترفعان هذا الرسم الجداري إلى منزلة الآثار الفنية القديمة الممتازة.

على أن فن التصوير الروماني يخلو من عنصر الابتكار، وسبب ذلك أن الفنانين اليونان نقلوا معهم تقاليدهم وأساليبهم إلى كل مكان نزلوا فيه، وحتى النزعة الثانوية الغامضة التي في هذه الصور قد تكون من أثر مهارة الفنانين الاسكندريين؛ ولكن فيها مع ذلك دقة في الخطوط، وغزارة في اللون نعرف منهما لم يبلغ المصورون أمثال أبليز Applles وبروتوجنيز Protogenes من الشهرة مثل ما بلغه منها المثالون من طراز بولكليتس وبركستليز. واللون في بعض الأحيان واضح

غزير كما لو كان جيورجيون Giorgione هو الذي وضعه، كما أن تدرج الأضواء والظلال يوحي في بعض الأحيان أنه من عمل رمبرانت Remebrandt. وترى تارة رسماً خالياً من الدقة يذكر الإنسان بواقعيه فان جوخ. وفن المنظور في الرسم غير صحيح كما أن السرعة في العمل تفسد نضج التفكير. ولكن ما في الرسوم من حيوية نضرة يغطي على هذه الأغلاط كلها، فتناسب الثياب يخدع العين، ومناظر الغابات والأشجار كانت بلا ريب من أسباب البهجة لسكان المدن المكتظة بالسكان. ويجب ألا ننظر إلى هذه الرسوم بعين هذه الأيام، فأذواقنا اليوم أقل تحرراً وأكثر تحفظاً من أذواق الأقدمين، ونحن نفضل أن نترك الجدران كما هي مقصورة على وظيفتها، وقد كنا حتى الأمس القريب نتردد في أن نغطيها بالألوان. أما الإيطالي فكان الجدار له بمثابة السجن، وقلّما كان يطل منه على العالم من خلال نافذة؛ ولهذا كان يرغب في أن ينسى هذا الحاجز القائم أمام عينيه، وأن ينخدع بطريق الفن إلى جنان السلام المخضرة الناضرة. ولعله كان في تفكيره هذا على حق، فإن شجرة مرسومة على جدار الخير من منظر يتألف من ألف قمة من قمم سطوح المنازل الخشنة غير المصقولة التي تشوه جمال السماء كأنها قرح خبيثة في الشمس، ويطل عليها المرء من نافذة مسحورة في جدار.



فرسك روماني من ٣٠ – ٤٣ ق.م
متحف متروبوليتان للفنون



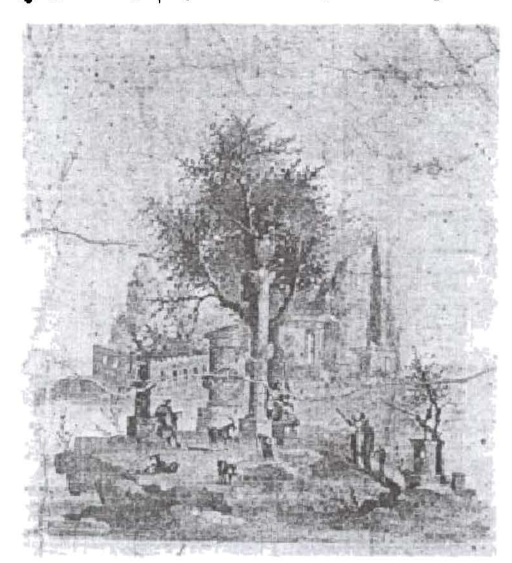
بورترية لامرأة المتحف الملكي في اسكتلندا.



The Severan Tondo (سيفيران توندو)، لوحة من العائلة الامبراطورية



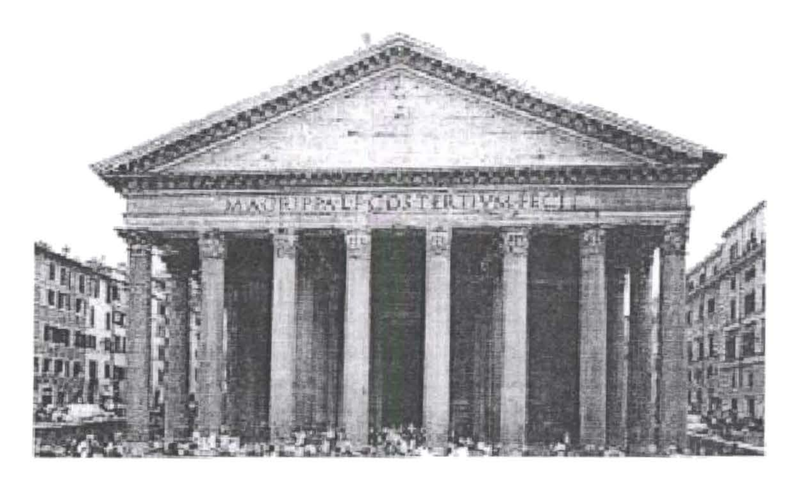
فنان يرسم لوحته - بومبي PompeiiPompeian



بومبي - النمط الثاني Pompeii - Boscotrecase

* العمارة الرومانية :

ورثت العمارة الرومانية من الأغريقية كافة فنونها في العمارة والنحت والزخرفة وكان فناً ديكتاتورياً ينتشر في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية بمعنى أن ما كان ينفذ في روما كان ينفذ في جميع ولايات الإمبراطورية. وبالرغم من هذا نجد بعض الاختلاف في بعض المعابد والتي اضطرتها الظروف أن تتخذ هذا الشكل إما بسبب تغير الزمن أو المكان كما هو موجود في بعض المعابد الرومانية بسوريا حيث اهتم المعماري السوري في العصر الروماني بهيئة التقطيع عن مثيله في أي مكان آخر.



البانثيون الروماني

كما ذكرنا فالعمارة الرومانية قد اشتقت كل عناصرها تقريباً من الحضارة الإغريقية ولكن الرومان أضافوا طابعهم الخاص الذي لا يخطئه أحد، ويتضح هذا التأثر في معبد (فورتينا فيرليس-٢ ق.م) في روما وهو من أقدم المعابد الرومانية

ومن أجملها وأهم ما يميز الحضارة الرومانية هو الطريق الجديد الذي انتهجته هذه العمارة بحيث إنها اتجهت إلى الاهتمام بالمباني الدنيوية عن الدينية فلم يهتموا بالمعابد الدينية فكانوا يكتفون بمحراب في كل بيت. ومن أهم المعابد الدينية والذي يعتبر نموذجاً آخر من النماذج المعمارية (سيباي) في تيفولي وقد استخدمت فيه الخرسانة والتي استخدمت من قبل الشرق ولكن في التحصينات، وقد عرف الرومان كيفية إخفاء الشكل الغير مقبول للخرسانة عن طريق تكسيتها بالطوب أو الحجر.

كما أنهم اتجهوا إلى الاهتمام بالأماكن العامة عن الخاصة وأيضاً استخدام العقود بأشكالها المختلفة والتي اتخذت عدة أشكال جميلة. كما أنشئت مرافق التسلية كالمدرجات والمسارح كما أنشئت الطرق والمدن. وقد تأثرت العمارة الرومانية بالمباني اليونانية في سيسيليا وجنوب ايطاليا ويظهر ذلك في الطراز اللى استخدمته في بناء مبانيهم. وتوصل الرومان لأشكال معمارية ثورية ، الأقواس كانت عنصرها الأساسي في البناء. ومن مميزات العمارة الرومانية ارتباطها بفن النحت والرسم الذي تأثر بالفن اليوناني .

وصلت العماره والفنون الرومانيه لذروتها في عهد الامبراطور (تراجان) ، وفي العصر الأوغسطي (٣٠ ق.م – ١٤م) ظهرت حركة للمواءمة مابين الواقعية ومثالية الفن اليوناني، و في عهد هادريان رجع الفن الروماني للمثالية مرة أخرى مع احتفاظه بالتأثيرات الشرقية.

أهم الفنون الرومانية على الإطلاق وهو فن العمارة الذي استطاعت به أن تحمي نفسها من غزو اليونان، والذي أظهرت فيه قدرتها على الابتكار وجرأتها وقوتها. على أن الابتكار لا يكون بغير لقاح فهو كالنسب مزيج جديد من عناصر

موجودة من قبل؛ والثقافات جميعها انتقائية في حداثة عهدها لأن التعليم يبدأ بالتقليد، فإذا ما بلغت الروح أو الأمة أشدها طبعت بطابعها - إن كان لها طابع - جميع أعمالها وألفاظها. لقد أخذت روما ، كما أخذ غيرها من مدائن البحر الأبيض المتوسط، نظم العمد الدورية والأيونية والكورنثية من مصر وبلاد اليونان. ولكنها أخذت نظام العقود والأقواس والقباب من آسيا، ومن مزيجهما أقامت مدينة من القصور، والأروقة ذات العمد، والمدرجات، والحمامات لم ير العالم مثيلاً لها من قبل. ولقد أضحى فن العمارة الروماني هو التعبير الفني عن الروح الرومانية والدولة الرومانية؛ فهو يمثل الجرأة، والتنظيم، والفخامة، وقد رفعت القوة العضلية هذه الصروح المنقطعة النظير فوق التلال فكانت هي الروح الرومانية ممثلة في الجلاميد الصم.

وكان معظم كبار المهندسين المعماريين في روما رومانيين لا يونان، وقد كتب أحد هؤلاء المهندسين واسمه ماركس فتروفيوس بليو Marcus Vitruvius Pallio كتاباً في العمارة يعد من مهمات الكتب العالمية القديمة في هذا الفن حوالي ٢٧ ق.م. ذلك أنه بعد أن قضى فترة من الزمن مهندساً حربياً يعمل تحت إمرة قيصر في أفريقيا، ومهندساً معمارياً في عهد أوكتافيان، اعتزل العمل الرسمي في شيخوخته ليضع أصول أعظم الفنون الرومانية وأسماها منزلة. وهو يقول عن نفسه: "إن الطبيعة لم تهبني طول القامة، ولم تبق السنون على شيء من جمال وجهي، وسلبني المرض قوة جسمي؛ ولهذا أرجو أن أكسب رضاء الناس بعلمي وبكتابي". وكما أن شيشرون وكونتليان قد جعلا الفلسفة من مستلزمات الخطيب، كذلك رآها فتروفيوس من مستلزمات المهندس المعماري، فهي تحسن أغراضه كما يحسن العلم وسائله وأدواته. وهي تسمو بمداركه وتجعله رقيق

الحاشية ، عادلاً، وفياً، غير شره، ولا يمكن أن يتم عمل صالح من غير إيمان قوي ويدين طاهرتين. وقد وصف مواد البناء، والأعمدة، وأجزاءها، ومختلف أنماط المباني في روما، وأضاف إلى الكتاب بحوثاً في الآلات، والساعات المائية، ومقاييس السرعة، ومجاري مياه الشرب المسقوفة، وتخطيط المدن والصحة العامة. وقد أشار فتروفيوس باستعمال النظام الإشعاعي في تخطيط المدن (وهو النظام الذي خططت عليه المدينة الاسكندرية القديمة وواشنجتن الحديثة) بدل النظام المربع الذي ثبت قواعده هبودامس Hippodamus في كثير من المدن اليونانية، أشار فتروفيس باستعمال هذا النظام الإشعاعي ولكن الرومان ظلوا يخططون مدنهم على النظام المربع نظام معسكراتهم. ومما يؤثر عنه أنه حذّر إيطاليا من أن الماء الذي تشربه في كثير أجزائها يؤدي إلى تضخم الغدة الدرقية، وقال إن التسمم قد ينتج من الاشتغال بالرصاص، وفسر الصوت بأنه حركة اهتزازية في الهواء، وكتب أول بحث باق حتى الآن في علاقة هندسة البناء بالأصوات. وقد كان لكتابه الذي كشف من جديد في عصر النهضة أعمق الأثر في ليوناردو دافنشي، وبلاديو Palladio وميكل أنجلو.

ويقول فترفيوس إن الرومان يبنون بالخشب والآجر، والجبس الناعم والمسلح والحجر والرخام. وكان الآجر المادة الشائعة الاستعمال في الجدران، والعقود والأقواس، وكثيراً ما كان يستعمل هو والجبس لتغطية الملاط. وكان الآجر يصنع من الرمل، والجير، وتراب الرخام، والماء، ويصقل صقلاً جيداً ويوضع طبقات بعضها فوق بعض، يصل سمكها في بعض الأحيان إلى ثلاث بوصات. ومن أجل هذا استطاع ذلك الآجر أن يحتفظ بشكله تسعة عشر قرناً كما نشاهد ذلك في الكولوسيوم. أما المسلح فلم تبلغ أمة من الأمم إلى وقتنا هذا ما بلغه الرومان

في صنعه واستخدامه، فقد كانوا يأخذون الرماد البركاني الكثير بقرب نابلي، ويخلطونه بالجير والماء، ويضعون فيه قطعاً من الآجر، والفخار، والرخام، والحجارة، ويخرجون منها منذ القرن الثاني قبل الميلاد ملاطاً في صلابة الصخور. يمكن أن يصعب في أي قالب، ولا يكاد يستعصي عليه أي شكل يراد أن يشكل به. وكانوا يصبونه كما نصبه الآن في أحواض مصنوعة من ألواح خشبية. وبفضله استطاعوا أن يغطوا مسافات كبيرة لا عمد فيها بقباب صلبة خالية من الأكتاف الجانبية التي تحمل السقف المقوس. وهذه هي الطريقة التي شيّدوا بها قمة البانثيون، وقمم الحمّامات الكبرى. واستخدمت الحجارة في تشييد معظم الهيكل وبيوت الكبراء، وكان من أنواعها نوع نصف شفاف يستخرج من كبدوكية ينفذ الضوء من خلاله، حتى أن هيكلاً بني به كان ينال كفايته من ضوء النهار وجميع نوافذه مغلقة.

وبدأت رغبة الرومان في استخدام الرخام على أثر فتح بلاد اليونان، وقد أشبعوا هذه الرغبة باستيراد العمد أولاً، ثم باستيراد الرخام، ثم باستخراجه من محاجر كرارا القريبة من لونا Luna . وكان استخدام الرخام قبل أيام أغسطس مقصوراً على الأعمدة والألواح المستوية، ثم استخدم في عهده لتغطية الآجر والمسلح؛ وإذا ما قال إنه ترك روما مدينة من الرخام فيجب ألا يفهم من قوله هذا أكثر من المعنى السالف الذكر، وهو أن بعض ما فيها من آجر ومسلح في أجزاء متفرقة منها قد غطي بألواح من الرخام. أما الجدران المشيدة من الرخام المصمت فكانت نادرة، وكان الرمان يميلون إلى أن يجمعوا في البناء الواحد بين حجر مصل الأعبل الأحمر والرمادي، وحجر عوبية الصلي ذي اللون الأخضر، ورخام نوميديا الأسود والأصفر، وبين رخامهم الأبيض المستخرج من محاجر كرارا وأحجار

البازلت، والمرمر، والحجر السماقي؛ ولم تبلغ مواد البناء في عصر من العصور ما بلغته في روما من تعدد في الأنواع والألوان.

وقد أضافت روما إلى الطرز الدورية، والأيونية، والكورنثية الأنماط التسكانية والأنماط المركبة من خليط من هذه كلها أو من بعضها بصورها الأصلية أو بتعديل فيها. وكثيراً ما كانت العمد تقام من حجر واحد بدل أن تكون من حجارة مثقوبة يرتكز بعضها فوق بعض. وكانت للعمد الدورية قواعد أيونية، واتخذت لها شكلاً جديداً رفيعاً خالياً من الثنايا، وقد تكون للتيجان الأيونية التي تعلو الأعمدة أربع تلافيف في بعض الأحيان حتى يكون منظرها واحداً من جميع الجوانب؛ أما العمد والتيجان الكورنثية فقد بلغت في تطورها حداً من الجمال والرقة لم تبلغه نظائرها اليونانية وإن كان الإفراط في التجميل والتنميق قد أفسد هذا الطراز من العمد في العصور المتأخرة. ومثل هذا يقال عن الإفراط في رسم الأزهار فوق التلافيف الأيونية لصنع التيجان المركبة من طرز مختلفة كما نشاهد ذلك في قوس تيتس. وكانت التلافيف تنتهي أحياناً بأشكال حيوانية أو آدمية توهم الرائي بأنها ميازيب على صورة حيوانات أو أناس على غرار ما صنع منها بعدئذ في العصور الوسطى. وكثيراً ما كان الرومان المسرفون يخلطون بين طرز مختلفة في البناء الواحد، كما نشاهد ذلك في ملهى مارسلس؛ يضاف إلى هذا أنه قد بلغ بهم الشح في بعض الأحيان حداً جعلهم يتركون العمد الجانبية ملتصقة بجسم الهيكل نفسه كما نشاهده في البيت المربع Maison Carre في نيمز Nimes. وظل الرومان يضيفون العمد إلى مبانيهم يزينونها بها ولو لم يعد لها عمل أصيل بعد أن سلبها تطور العقود ما كان لها من شأن قديم في استناد هذه المباني إليها. وبقيت هذه العادة قائمة إلى عصرنا الحاضر دون أن يعرف مصدرها الذي أخذت عنه.

◆هياكل روما :

لقد احتفظت روما في جميع هياكلها إلا قلة ضئيلة منها بنظام الأروقة ذات العمد، المبسوطة عليها عوارض رئيسية تحمل السقف. وكان أغسطس متحفظاً في الفن شأنه في كل شيء سواه، ولذلك استمسكت جميع الأضرحة التي بنيت بأمر منه بالتقاليد الصحيحة القديمة. ثم أخذ الأباطرة من بعده يضاعفون عدد الهياكل التي يقيمونها لآلهتهم التي تنافسهم في السلطان والجاه، ويغشون فجورهم بستار من التقي المعماري، حتى ازدحمت التلال وسدت الشوارع بالمزارات المقرمدة المذهبة. وكان جوبتر بطبيعة الحال صاحب النصيب الأوفر منها، فكان من بين هياكله الكثيرة هيكل (جوبتر المرعد)، وهيكل (جوبتر المثبت) الذي ثبت أقدام الرومان وأوقف هربهم في القتال، واقتسم مع يونو ومنيرفا أقدس مزارات روما فوق تل الكبتول. فقد أقيم في الحجرة الوسطى تمثال ضخم من الذهب والعاج لـ(جوبتر الأفضل والأعظم Jupiter Optimus Maximus) يحيط به من الجانبين رواق معمد ذو ثلاثة طبقات. وتعزو الرواية التاريخية أول صورة من صور هذا الصرح الأعظم من الصروح الرومانية المقدسة إلى تاركونيوس بسكس، وقد دمرته النار عدة مرار، وكان في كل مرة يعاد بناؤه بعد تدميره. واختلس استلكو في عام ٤٠٤ م أبوابه البرونزية المذهبة ليؤدي بها رواتب جنده، ونهب الوندال قراميد السقف المصفحة بالذهب، ولا تزال بعض قطع من أرضيته باقية إلى اليوم.

وكان يقوم على القمة الشمالية من قمم هذا التل نفسه هيكل يونو المنذرة أو الحارسة Juno Moneto ، وهناك كانت دار سك العملة. ولا حاجة إلى أن نذكر للقارئ أن اسم دار السك (Mint) والنقود (Money) مصدر كثير من المطامع، مشتق من لفظ منيتو الذي كانت تلقب به يونو. وعلى المنحدر الجنوبي

من منحدرات هذا التل كان يقوم معبد (ساترون) -أي زحل- أقدم آلهة لكيتول. ويرجع الرومان تاريخ بناء هذا الهيكل لذلك الإله إلى عام ٤٩٧ ق. م؛ وقد بقي منه حتى الآن ثمانية عمد أيونية وعارضة واحدة فوق بعض هذه العمد. وفي السوق الكبرى عند سفح التل كان المعبد الصغير المخصص لـ(يانوس Janus) إله البدايات كلها. وكانت أبوابه لا تفتح إلا في زمن الحرب ولم تغلق في أثنائها إلا ثلاث مرات في تاريخ روما القديم. وفي الركن الجنوبي الشرقي من أركان السوق كان هيكل (كاستر وبلكس Castor And Pollux) الذي شيد في عام ٤٩٥ ق.م؛ وقد وصلت إلينا من بقايا الهيكل الذي جدده تيبريوس ثلاثة عمدة كورنثية رفيعة، وهي بإجماع الخبيرين أجمل العمد الرومانية على الإطلاق.

واضاف اغسطس إلى هذه الهياكل في سوقه هو هيكلاً لـ(لمريخ المنتقم) Mars Ultor وفاءاً بنذره قبل فلباي Philippi ، وما تزال ثلاثة من عمده الفخمة قائمة في مكانها إلى اليوم. وكان أحد أطراف ساحته الوسطى عبارة عن نصف دائرة ذات سقف مقبب، وهي طراز معماري أصبح فيما بعد طراز محراب الكنائس المسيحية الأولى. وأقام أغسطس على تل البلاتين هيكلاً فخماً من الرخام الخالص لـ(لإله أبلون) نظير معونته له في أكتيوم، وزينه بتماثيل من صنع ميرون Miron واسكوباس Scopas ، وأضاف إليه مكتبة فخمة ومعرضاً فنياً، وبذل كل ما في وسعه ليشعر الناس أن الإله قد غادر بلاد اليونان وجاء إلى روما يحمل معه إليها زعامة العالم الروحية والثقافية؛ بل إن أصدقاء أغسطس بعد أن زالت أسباب التحرج من هذا النمس بوفاة والدة أغسطس، قالوا إن أبلو متخفياً في صورة ثعبان رشيق سريع الحركة هو الذي استولدها هذا الزعيم الداهية. وكان في الجزء الشمالي الغربي في المدينة هيكل عظيم لـ(إيزيس Issis) وعلى تل البلاتين

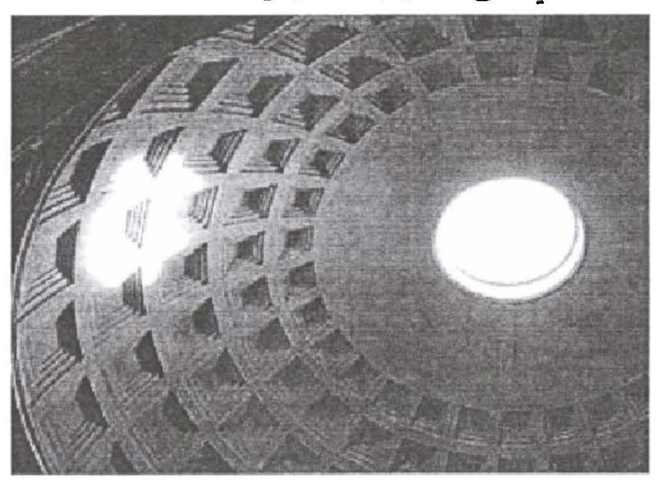
مزار فسيح لـ(سيبيل). وكانت فيه ملاذات لبعض المعاني المجردة مجسدة – كالصحة، والشرف، والفضيلة، والوئام، والوفاء، والحظ، وكثير من أمثالها. وكانت كل هذه الهياكل تقريباً تحتوي ساحات ملأى بالتماثيل والرسوم الملونة. وقد جمع فسبازيان في معبد السلم العظيم الذي أقامه كثيراً من الكنوز الفنية التي كانت في بيت نيرون الذهبي، وبعض المخلفات التي جاء بها من أورشليم وأباح للناس مشاهدتها. ويمتاز هيكل (فرتونا فريلس Fortuna Virilis) القائم في سوق بريوم Forum Boarium بأنه أكمل بناء في روما من عهد ما قبل أغسطس احتفظ بأجزائه إلى اليوم. وكانت نساء العاصمة يترددون كثيراً على هذا الهيكل للعبادة فيه، فقد كن يعتقدن أن الآلهة تعلمهن كيف يخفين عيوبهن عن أعين الرجال.

وقد أضاف مهندسو روما إلى هذه الهياكل وإلى العشرات العشرات من الهياكل الأخرى المشيدة على الطراز المربع القديم، أضافوا إليها عدة هياكل دائرية الشكل تكشف عن سيطرتهم الحديثة على مشكلة تشييد القباب. وتقول الرواية التاريخية إن هذا الطراز من البناء مأخوذ على كوخ رميولوس المستدير الذي احتفظ به كما يحتفظ بالآثار الدينية على تل البلاتين قروناً طوالاً.

ولا يكاد يقل عنه في القدم (بيت فستا Aedes Vestae) الجميل المجاور لهيكل كاستروبلكس؛ وكانت ساحته الوسطى المغطاة جدرانها بالرخام الأبيض تحيط بها عمد كورنثية جميلة، وكان سقفها قبة من الشبهان المذهب. وكان إلى جوارها قصر (العذارى الفستية) ويتكون من أربع وثمانين حجرة مشيدة على نظام الأديرة حول بهو ذي عمد. ولم يكن البانثيون قد أصبح بعد هيكلاً مستدير الشكل؛ فقد كان في صورته التي أقامه أجريبا عليها مستطيلاً. ولكن كانت

له ساحة مستديرة أمامه. وقد أقام مهندسو هدريان فوق هذه الساحة الهيكل المستدير والقبة الضخمة اللذين لا يزالان حتى الآن أعظم شاهدين على جرأة الإنسان وشجاعته.

التحول الفجائي إلى الطراز المقوس :



قبة البانثيون، منظر داخلي

لقد كانت روما في عمارتها الدنيوية أعظم منها في عمارتها الدينية. ذلك بأنه كان في وسعها في أول الأمر أن تتحرر من قيود التقاليد، وأن تجمع بين الهندسة والفن – وبين المنفعة والقوة من جهة، والجمال والشكل من جهة أخرى– بطريقة اختصت بها هي لا يشاركها فيها غيرها من المدن. لقد كان الأساس الذي قامت عليه العمارة اليونانية هو الخط المستقيم (مهما أدخل عليه من التنظيم الدقيق كما يشاهد في البارثينون): كالعمود الرأسي، والعارضة الأفقية، والقوصرة المثلثة الشكل؛ أما أساس هندسة البناء الرومانية الخالصة فقد أصبحت الخط

المنحني؛ ذلك أن الرومان كانوا ينشدون العظمة، والإقدام، والضخامة، ولكنهم لم يكن في وسعهم أن يسقفوا مبانيهم الواسعة على مبادئ الخطوط المستقيمة والأروقة ذات العمد إلا إذا أقاموا فيها مجموعة من العمد التي تعترض طرقاتها. وكانت سبيلهم للتغلب على هذه المشكلة هي الأقواس بشكلها المستدير في الغالب؛ وما العقود إلا أقواس استطالت، وما القباب إلا أقواس تحركت ودارت؛ ولعل القواد الرومان وأعوانهم قد ألفوا في مصر وآسيا الأشكال المقوسة، وإزدادت ألفتهم لها على مر الأيام، فأيقظوا في مواطنيهم التقاليد الرومانية والتسكانية القديمة التي طال العهد بطغيان الأنماط اليونانية عليها، فأخذت روما تستخدم العقود استخداماً بلغ من اتساعه أن اشتق منه فن البناء كله اسم جديد أصبح علماً عليه ولم يفارقه قط. وقد أنشأ الرومان القبوة المفصلية بوضع شبكة من الأضلاع المكونة من الآجر على طول خطوط الإلتواء قبل أن يصب الملاط المسلح في الإطار الخشبي لعمل السقف؛ ثم أنشأوا، بوضع قبوتين اسطوانيتين متعامدين، شبكة من الأضلاع تستطيع أن تتحمل فوقها بناء أثقل منها كما تستطيع أن تتحمل دفعاً قوياً من الجانبين. هذان هما المبدآن اللذان قام عليهما الانقلاب الفجائي في فن العمارة الرومانية وتحوله من طراز الخطوط إلى طراز الأقواس.

وبلغ الطراز الجديد كماله في الحمامات والمدرجات الكبرى، وكانت حمامات أجريا، ونيرون، وتيتس الحلقة الأولى من سلسلة طويلة انتهت بحمامات دقلديانوس، فقد كانت هذه صروحاً من الملاط المسلح مغطاة بالجبس أو الآجر تعلو علواً شاهقاً في الهواء. وكانت مزينة من داخلها بفساقي من الرخام والفسيفساء، وبأعمدة مختلفة الألوان، وسقف مزخرفة، وصور ملونة وتماثيل. وكان فيها حجرات لخلع الملابس، وحمامات ساخنة وباردة، وحجرة وسطى ذات هواء

دفيء، وبرك للسباحة، ومواضع للتمرينات الرياضية، ومكتبات وحجر للمطالعة، وأخرى للبحث، وأرائك للراحة، وأكبر الظن أنها كانت تحتوي أيضاً على معارض فنية. وكانت أغلب الحجرات تسخن من مركز عام تمتد منه أنابيب كبيرة من الصلصال، وتسير تحت أرض الحجرات وفي داخل الجدران. وكانت هذه الحمامات الحارة أوسع وأفخم ما شيد من المباني العامة، ولم يوجد لها قط نظائر من نوعها في العالم كله. وكانت جزءاً من الإشتراكية في الترفيه عن الشعب حاولت به الزعامة أن تبرر سلطانها المطلق المتزايد.

وكانت هذه النزعة نفسها هي الحافز على بناء أعظم دور التمثيل في التاريخ كله. وكان عدد هذه الدور في روما أقل منها في العواصم الحديثة، ولكنها كانت أوسع منها رقعة. وكان أصغرها هو الملهى الذي شاده كورنليوس بلبس Cornelius Balbus في ميدان المريخ ١٣ ق. م، والذي كان يتسع لسبعة آلاف وسبعمائة من النظارة؛ وقد أعاد أغسطس بناء ملهى (بومبي) الذي كان يتسع لسبعة عشر ألفاً وخمسمائة، وأتم بناء ملهى آخر سماه باسم (مرسلس Marcellus) ويتسع لعشرين ألفاً وخمسمائة. وكانت هذه الدور تختلف عن مثيلاتها في بلاد اليونان في أنها كانت مسوّرة، وفي أن مقاعد النظارة كانت تستند في أبنية ذات أقواس وقباء بدل أن تستند إلى منحدرات التلال. وكان المسرح وحده هو المسقف، ولكن النظارة كانوا يتقون الشمس بمظلو من نسيج التيل (Velarium)كانت في ملهى بومبي تغطي مساحة عرضها ٥٥٠ قدماً. وكانت فوق المداخل مقصورات للأعيان وذوي المناصب الكبرى في الدولة، وكان لبعض المسارح ستائر لم تكن ترفع إلى أعلى إذا بدأ التمثيل بل كانت تنزل في فتحات معدة لها. وكان المسرح يرتفع عن أرض الملهى بنحو خمس أقدام، وكان الجزء

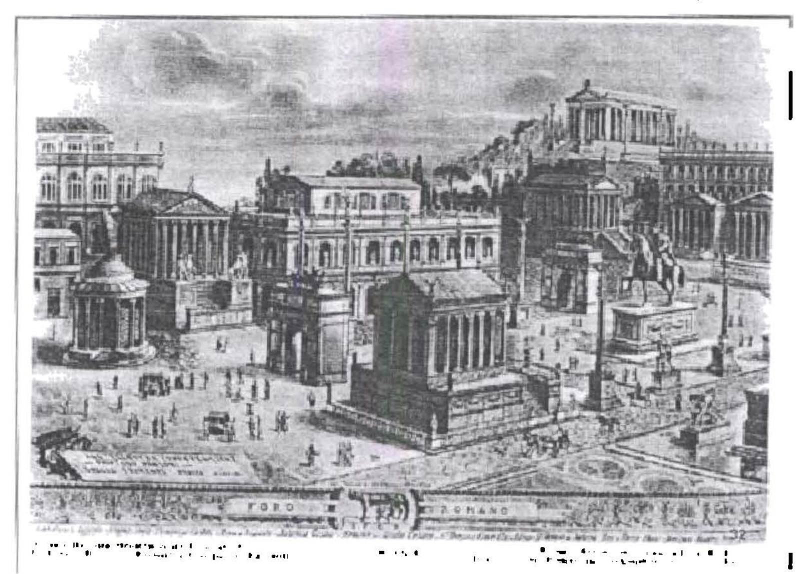
الخلفي منه يتخذ في العادة شكل بناء أنيق يمتد من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر، فيمكن للممثلين بذلك من أن يسمعوا أصواتهم للعد الجم من النظارة الذين يضمهم الملهى. ويحدثنا سنكا عن صنّاع المسارح الذين يخترعون حمالات ترتفع من نفسها أو أرضيات ترتفع في سكون من الهواء. وكان تغير المناظر يحدث بوساطة مناشير دوارة أو بتحريك مجموعة منها إلى طرفي المسرح أو إلى أعلاه فتنكشف بذلك المجموعة التي تليها. وكان يستعان على إسماع النظارة أصوات الممثلين بوضع جرار فارغة في أرض المسرح وجدرانه. وكانت أمكنة النظارة تبردها جداول مائية تجري في ممراتها، وكان مزيج من الماء والنبيذ وعصير الزعفران ينقل أحياناً إلى أعلى المقاعد في أنابيب ثم يرش على النظارة في هيئة رشاش عطر وكان داخل الملهى يزداد بالتماثيل وكانت صور كبيرة ترسم على المسرح بدل المناظر المتغيرة في هذه الأيام. ولعلنا لا نجد الآن في العالم كله ملهى مهما عظم يبلغ في الاتساع والفخامة ما بلغه ملهى بومبي في روما.

المباني العامة :

وكانت حلبة الألعاب ومضمار الركض والمدرج أحب إلى الشعب من دار التمثيل. وكان في روما عدة مضامير تستخدم أكثر ما تستخدم في المباريات الرياضية. وكان سباق الخيل والعربات وبعض الألعاب الأخرى تعرض في حلبة فلامنيوس في ميدان التاريخ أو في الحلبة الكبرى التي جدد قيصر بناءها بين تلي بلاتين وأفنتين. وكانت هذه الحلبة في شكل قطع ناقص طوله ٢٢٠٠ قدم وعرضه ٧٠٥، وكان فيها مقاعد خشبية في ثلاث جهات منها تتسع لمائة وثمانين ألفاً من النظار. وفي وسعنا أن نقدر ثروة روما إذا عرفنا أن تراجان أعاد بناء هذه المقاعد من الرخام.

وكان بناء الكولوسيوم بناء متواضعاً إذا قيس إلى هذه الحلبة الكبرى، فقد كانت مقاعده لا تتسع لأكثر من خمسين ألفاً، ولم يكن تصميمه جديداً؛ لأن مدن إيطاليا اليونانية كانت من زمن بعيد تحتوي مدرجات مثله؛ فقد أنشأ كوريو Curio كما قلنا من قبل مدرجاً في عام ٥٣ ق.م ، وبنى قيصر مدرجاً آخر في عام ٤٦ق.م، وبنى استاتليوس تورس Statilius Taurus مدرجاً ثالثاً في عام ٢٩ق.م. وكان فسبازيان هو الذي بدأ المدرج الفلافي- وهو الاسم الذي كان الرومان يطلقونه على الكولوسيوم- كما كان تيتس هو الذي أتمه في عام ٨٠ م، ولا نعرف اسم المهندس الذي أشرف على بنائه. وقد اختار فسازيان لبنائه البحيرة التي كانت في قصر نيرون بين التل الكئيلي Caelian والتل البلاتيني. وقد شيد من الحجر الترافتيني على شكل إهليلجي يبلغ طول محيطه ١٧٠٠ قدم. وكان ارتفاع سوره الخارجي ١٥٧ قدماً، وكان مقسماً إلى ثلاثة أطباق يقوم بعض طابقه الأول على أعمدة (تسكانية - دورية)، ويقوم طابقه الثاني على عمد أيونية، والثالث على عمد كورنثية، وبين كل عمودين عقد. وكانت الدهاليز الرئيسية مسقوفة بأقبية اسطوانية تتقاطع في بعض المواضع على طراز أديرة العصور الوسطى. وكان داخله مقسماً أيضاً إلى ثلاث طبقات تستند كل منها إلى أعمدة، وتنقسم إلى الحلقات من المقصورات والمقاعد، متحدة في مركزها تقطعها طرقات ذات درج فتقسمها إلى أوتادCuneiـ. ويبدو داخله للناظر إليه في هذه الأيام كأنه كتلة ضخمة من البناء قطع فيه صانع جبار عقوداً وطرقات ومقاعد. وكان داخله يزدان بالتماثيل وغيرهما من وسائل التجميل، وكانت كثير من صفوف المقاعد مصنوعة من الرخام، وكان للمدرج ثمانون مدخلاً خصص أثناء منها للإمبراطور وحاشيته. وكانت هذه المداخل والمخارج Vomitoia تكفي لإخراج الجماهير الغفيرة التي تملأ هذا المدرج الضخم في دقائق معدودات. وكان يحيط بالحلبة

التي يبلغ اتساعها ٢٨٧ قدماً في ١٨٠ سور يبلغ ارتفاعه خمس عشر قدماً يعلوه دبرزون يحمي وحوشه الآدميين من وحوش الغاب. وليس الكولوسيوم من المباني الجميلة المنظر، وإن ضخامته نفسها لتنم عما في الطبيعة الرومانية من خشونة، كما تكشف عما فيها من عظمة. وكل ما يمكن أن يقال في مديحه أنه أكثر الخرائب التي خلفها العالم الروماني القديم روعة. لقد كان الرومان يبنون كما يبني الجبابرة، ولو أننا طلبنا إليهم أن يصقلوا مبانيهم كما يصقل الصياغ الحلي لكلفناهم ضد طباعهم.



ختاماً :

مما سبق يتضح أن الفنانون الرومان أنشاوا فنهم من خليط مختار من الطرز الأتيكية، والآسيوية، والاسكندرية، فجمعوا فيه بين التحفظ والضخامة

والرشاقة. غير أنهم لم يمزجوا في يوم من الأيام هذه الصفات لينشئوا منها تلك الوحدة الأساسية التي هي أساس من أسس الجمال. وإن فيما تتصف به المباني الرومانية الخالصة من قوة وفجاجة لمسحة شرقية، فهي تبعث في النفس الرهبة لا الجمال؛ وإن بانثيون هدريان نفسه ليعد من عجائب الصروح أكثر مما يعد من روائع الفن؛ فليس لنا أن نتطلع في الفن الروماني إلى رقة الشعور ودقة التنفيذ اللهم إلا في حالات نادرة كالنقوش والتحف الزجاجية الباقية من عصر أغسطس. بل يجب أن نتوقع هنا وجود فن هندسي يهدف إلى الغاية في الصلابة والاقتصاد والمنفعة، إلى افتتان العصامي بالضخامة والزينة وإصرار الجندي على الواقعية، وإلى فن المحارب ذي القوة الباطشة. وإذا كان الرومان لم يصقلوا فنهم صقل الصياغ فما ذلك إلا لأن الفاتحين لا يصبحون قط صياغاً، ولذلك صقلوه صقل الفاتحين.

وما من شك في أنهم قد أنشأوا أكثر المدن فتنة وروعة في التاريخ، وأوجدوا فناً مرناً، تصويرياً ومعمارياً في مقدور كل إنسان أن يفهمه، وشادوا مدينة يستطيع كل مواطن أن يعيش فيها وينتفع بها. لقد كانت جماهير الأحرار في تلك المدينة فقيرة كثيرة الثراء، ولكنها كانت إلى حد ما تمتلك كثيراً من ثروتها: فقد كانت تأكل حب الدولة، وتجلس بغير أجر أو بأجر هو والعدم سواء في دور التمثيل، وفي حلبات الألعاب، وفي المدرجات وميادين السباق. وكانوا يمارسون ضروباً من الرياضة البدنية، ويتناولون المرطبات، ويستمتعون بضروب التسلية، ويتعلمون في الحمامات؛ ويتفيئون ظلال مئات من الأروقة ذات العمد، ويمشون تحت القباب والعقود المنقوشة المزينة التي كانت تغطي أميالاً كثيرة من شوارع روما، وتغطي ثلاثة أميال في تاريخ المريخ وحده، ولم يشهد العالم قبل روما

عاصمة مثلها. فقد كان في وسطها سوق عجابة صخابة تدور فيها رحى العمل بلا انقطاع، وتتردد في جنباتها أصداء أصوات الخطباء، وتدور فيها المناقشات التي تزلزل قواعد الإمبراطورية، ومن حولها حلقة من الهياكل، والباسلقات، والقصور، ودور التمثيل، والحمامات، في كثرة منقطعة النظير؛ وتحيط بهذه الحلقة حلقة أخرى من الحوانيت مكتظة بالبائعين والمشترين، تدوي فيها أصواتهم، وتليها حلقة ثالثة من البيوت والحدائق، فحلقة رابعة من المعابد والحمامات مرة ثانية، وتنتهي بدائرة من القصور الريفية الصغيرة ذات الحدائق، ثم الضياع التي تدفع بأطراف المدينة إلى الريف وتربط الجبال بالبحر. هذه هي روما القياصرة – مزهوة، قوية، براقة، مادية، قاسية، ظالمة، مشوشة غير منظمة، سامية رفيعة الذرى.

ملخص عن العمارة الرومانية :

العمارة الرومانية ROMAN ARCHITECTURE

العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية | العمارة الرومانية | الطراز والاعمدة الرومانية | مبانى العمارة الرومانية

انواع المبانى

مواد البناء و طرق الانشاء

الفن الرومانى

ظهور عناصر معمارية جديدة

وقد تميز الابداع والفن في العماره الرومانيه بالصعوبه والتعقيد الذي لم يكن ملحوظاً في العماره الاغريقيه بسبب الابتكارات المعماريه التي أنشأت عناصر معماريه جديده مثل : العقود، قبوات، والقباب جميعها باستخدام الخرسانه.

القبة Dome

القبو Vault

العقد Arch

ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية

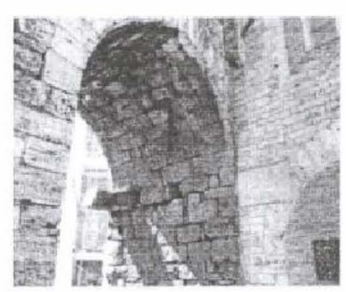
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية | العمارة الرومانية | الطراز والاعمدة الرومانية | مباني العمارة الرومانية

انواع المباني

مواد البناء و طرق الانشاء

استخدام العقود فى :

١- البوابات والمداخل





16

ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية

العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية | العمارة الرومانية | الطراز والاعمدة الرومانية | مباني العمارة الرومانية

انواع المباني

مواد البناء و طرق الانشاء

الفن الرومانى

استخدام العقود فى :

٢- نظام الصرف الصحى




الصرف الصحى - ماكسيما، روما، (٥٧٨ قبل الميلاد).

Cloaca Maxima, Roma, (578 B.C.).

17

ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية

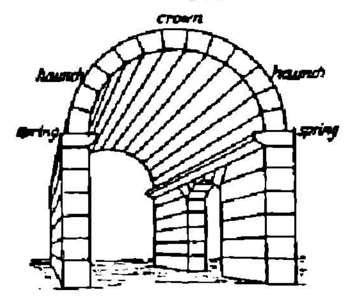
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية | العمارة الرومانية | الطراز والاعمدة الرومانية | مباني العمارة الرومانية

عمارة الرومان مكنتهم من بناء قبوات وقباب واسعه باستعمال الحديد مثل :

١.القبو نصف الدائرى: محمله على حائطين متوازيين.
٢.القبو المكون من قبوتين نصف إسطوانتيتين متقابلتين
٣.القبو نصف المكروي.

انواع المباني
مواد البناء و طرق الانشاء
الفن الرومانى



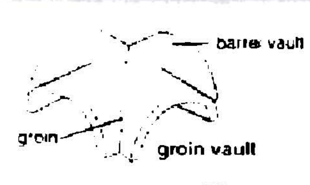


18

ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية

العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية | العمارة الرومانية | الطراز والاعمدة الرومانية | مباني العمارة الرومانية

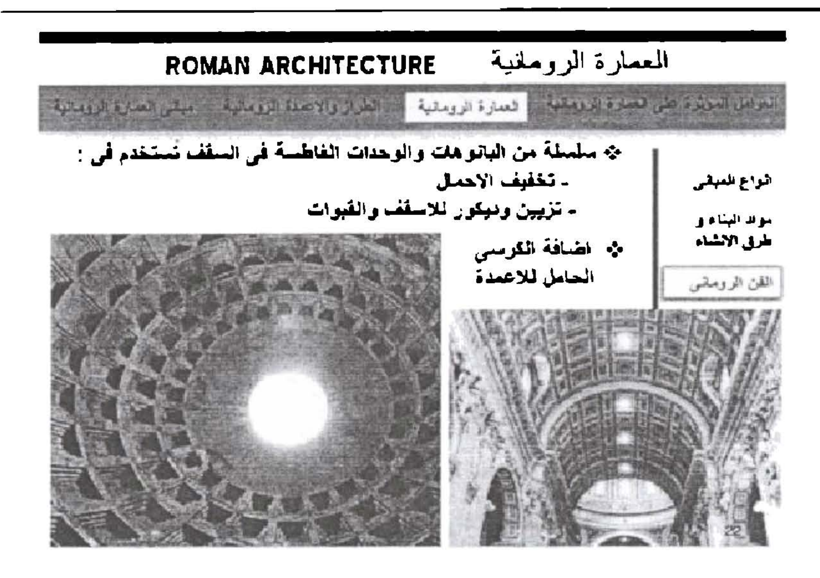
انواع المباني
مواد البناء و طرق الانشاء
الفن الرومانى



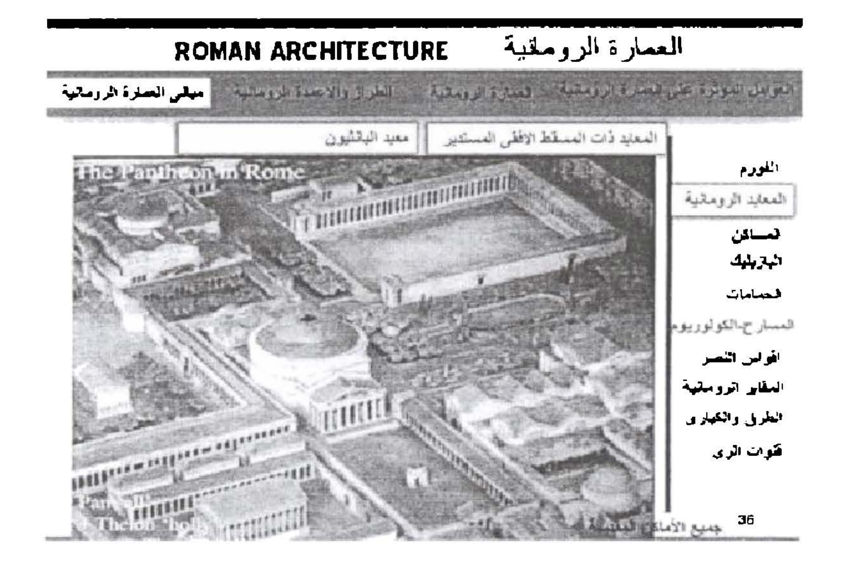
٢-القبو المكون من قبوتين
نصف إسطوانتيتين متقابلتين



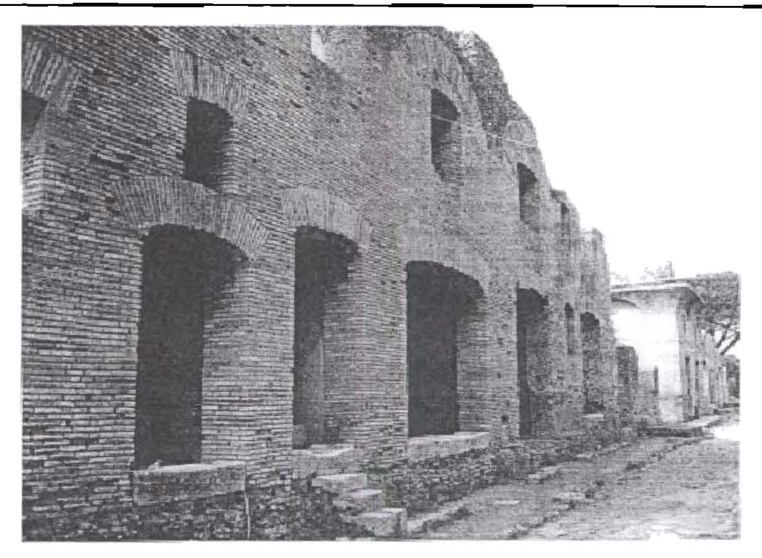
19



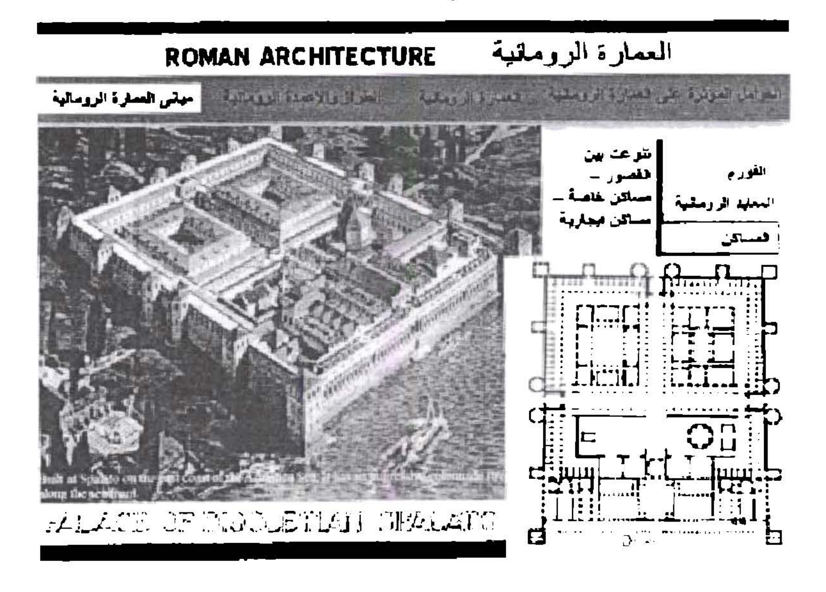
ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مبانى العمارة الرومانية
❖ ملسطة من الباتوهات والوحدات الغاطسة فى السقف تستخدم فى :
- تخفيف الاحمال
- تزيين وديكور للاسقف والقبوات
❖ اضافة الكرسي الحامل للاعمدة
انواع المبانى
مواد البناء و طرق الانشاء
الفن الرومانى
22

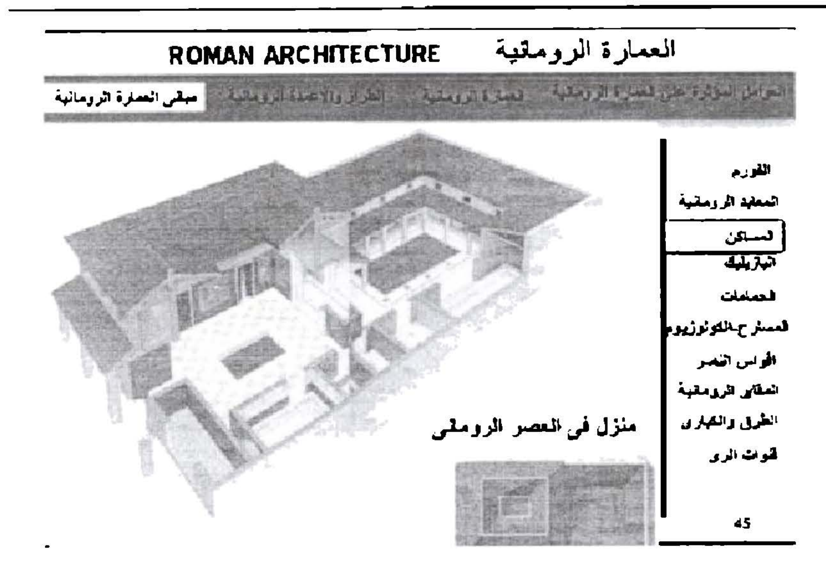


ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مبانى العمارة الرومانية
المعابد ذات المسقط الافقى المستدير
معبد البانثيون
The Pantheon in Rome
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
اقواس النصر
المقابر الرومانية
الطرق والكبارى
قنوات الرى
36



إنسولا في اوستيا أنتيكا روما




ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مباني العمارة الرومانية
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
أقواس النصر
المقابر الرومانية
الطرق والكباري
قنوات الري
منزل في العصر الروماني
45


ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية
العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية
العمارة الرومانية
الطراز والاعمدة الرومانية
مباني العمارة الرومانية
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
أقواس النصر
المقابر الرومانية
الطرق والكباري
قنوات الري
بازيليكا قسطنطين
بدأ بناء هذا البازيليك الروماني من قبل الامبراطور Maxentius بين ٣٠٧ و ٣١٠ و الانتهاء من قسطنطين الكبير بعد ٣١٢. على الرغم من أنه كان واحدا من أهم المعالم الأثرية في العصور الكلاسيكية القديمة،لم يتبقى منها سوى
Basilica
46

العمارة الرومانية ROMAN ARCHITECTURE

العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية | العمارة الرومانية | الطراز والأعمدة الرومانية | مباني العمارة الرومانية

- الفورم
- المعابد الرومانية
- المساكن
- البازيليك
- الحمامات
- المسارح-الكولوزيوم
- أقواس النصر
- المقابر الرومانية
- الطرق والكباري
- قنوات الري

البازيليك هو بناء ضخم مستطيل الشكل. كان مخصصا للتجارة والقضاء ولمكاتب الإدارية. وهو يتكون من ثلاثة أروقة أعرضها في المنتصف. وكان المدخل عبارة عن باب في الرواق الأوسط. وكان يعلو منصة القضاة في مقابل المدخل في حنية كبيرة ترتفع أرضيتها عن منسوب أرضية المبنى.

ومن أشهر النماذج على ذلك بازيليكا قسطنطين بروما (٣١٠-٣١٣ ق.م)، وهي تتكون ثلاثة أروقة. الأوسط مقسم الى ثلاثة فراغات مغطى بقبوات متقاطعة. والفصل بين الرواقين الجانبيين والرواق الأوسط يتم عن طريق دعامات ضخمة تحمل عقودا تحمل أعلاها القبوات. كما تغطى الأروقة الجانبية بقبوات ذ[illegible].

47

العمارة الرومانية ROMAN ARCHITECTURE

العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية | العمارة الرومانية | الطراز والأعمدة الرومانية | مباني العمارة الرومانية

- الفورم
- المعابد الرومانية
- المساكن
- البازيليك
- الحمامات
- المسارح-الكولوزيوم
- أقواس النصر
- المقابر الرومانية
- الطرق والكباري
- قنوات الري

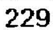
الحمامات من المباني التي تميز بها الرومان عن غيرهم ممن سبقوهم .

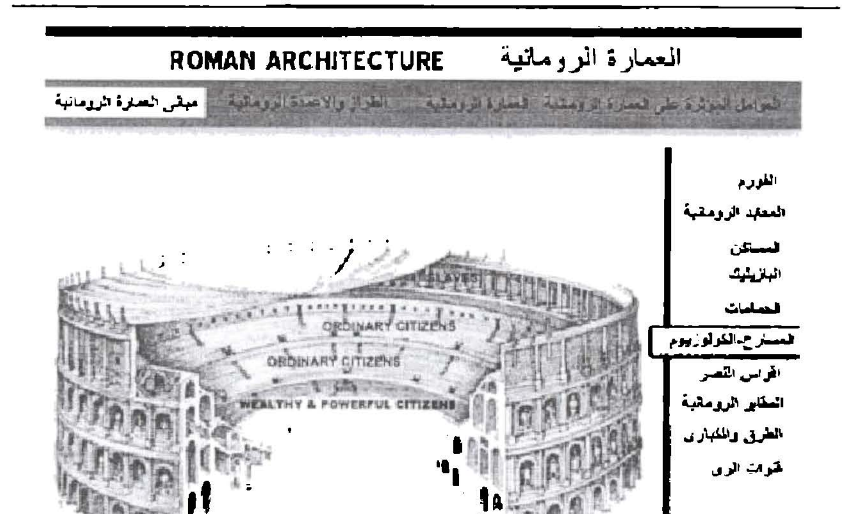
وهي لم تكن للاستحمام فقط بل كانت مركزا للتدريب الرياضي والاجتماعات العامة والخاصة والمحاضرات .وهي تشبه الى حد ما الاندية الرياضية الحالية وكانت الحمامات في العادة تحتوى على العناصر التالية :

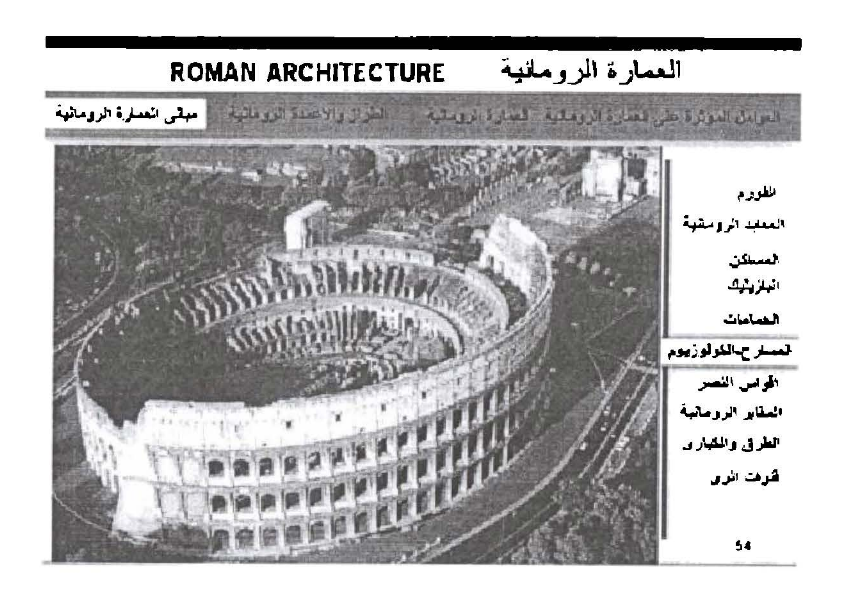
- المبنى الاساسي :ويتكون من بهو محاط بالعناصر الاخرى ، وهي غرف الماء الدافئ والماء البارد وحمامات البخار .
- حوش او فناء كبير يحيط بالمبنى الاساسي به أشجار وتماثيل ونافورات وتقام فيه المباريات الرياضية
- عدة مبنى تحيط بالمجموعة مكونة من مكتبة وقاعات وغرف خلع الملابس وخزان كبير يغذى الحمامات بالماء
- مجموعة كبيرة من الحجرات والمحلات التجارية ومداخل الحمامات وهي تحيط بالمجموعة من الخارج

Baths

49




ROMAN ARCHITECTURE
العمارة الرومانية
مبانى العمارة الرومانية
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
أقواس النصر
المقابر الرومانية
الطرق والكبارى
قنوات الرى
ORDINARY CITIZENS
ORDINARY CITIZENS
WEALTHY & POWERFUL CITIZENS
52


ROMAN ARCHITECTURE
العمارة الرومانية
مبانى العمارة الرومانية
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
أقواس النصر
المقابر الرومانية
الطرق والكبارى
قنوات الرى
54

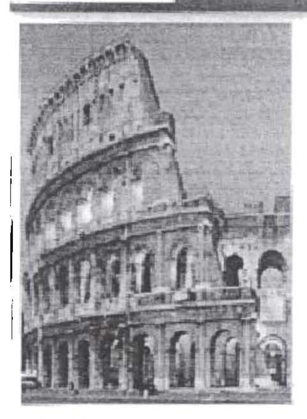
العمارة الرومانية ROMAN ARCHITECTURE

العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية | العمارة الرومانية | الطرز والأعمدة الرومانية | مباني العمارة الرومانية

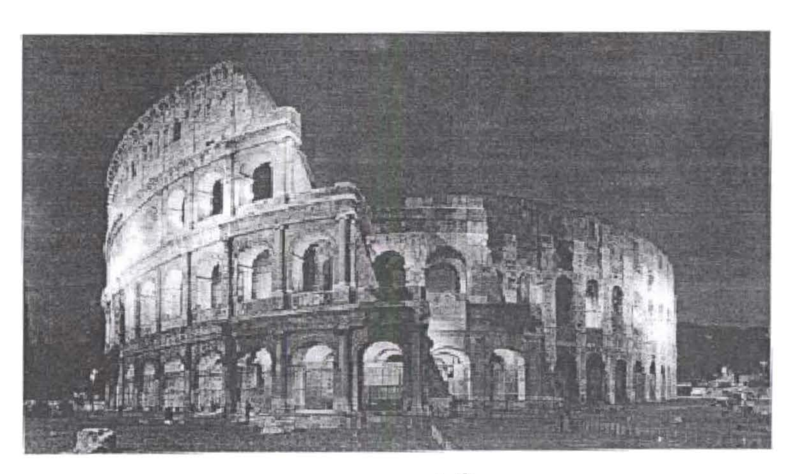
- الفورم
- المعابد الرومانية
- المساكن
- البازيليك
- الحمامات
- **المسارح والكولوزيوم**
- أقواس النصر
- المقابر الرومانية
- الطرق والكباري
- قنوات الري

يقع مبنى الكولوسيوم Colosseum في منخفض تحيط به تلال مرتفعة. بنى الامبراطور فسباسيان عام ٧٢ ميلادية الطوابق الأرضي والأول والثاني، ثم أضاف تيتوس الطابق الثالث عام ٨٠ ميلادية. يعد من أضخم المباني الرومانية، إذ تبلغ أبعاده من الخارج ١٨٨ مترا طول و١٥٦ مترا عرض وارتفاعه ٤٨ مترا. أما أبعاد حلبة المصارع فتبلغ ٨٦ مترا طول و٥٤ مترا عرض. يرتكز المبنى على مجموعة من العقود والأقبية التي ترتبط مع بعضها بممرات داخلية مرتبطة مع المدرجات بواسطة فتحات تؤدي إلى حلبة السباق. واستفاد المصريون من الأقبية باستخدامها كمستودعات لمستلزمات الألعاب وحبس الحيوانات المفترسة. وكانت المدرجات مقسمة بممرات حلقية إلى أربعة مستويات.

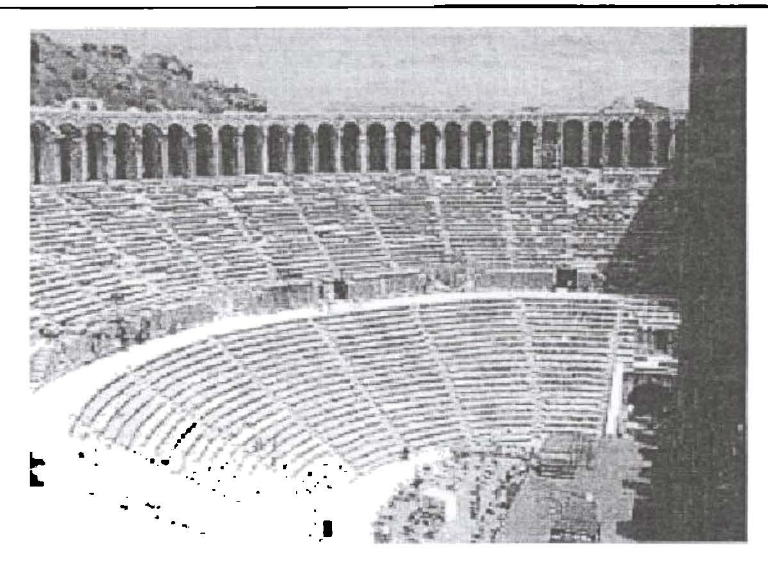
والواجهة تشتمل أربعة طوابق الثلاث سفلية بواسطة عقود مستمرة تدور حول المبنى، وبالطوابق السفلية فتحات معقودة نصف دائرية عددها ثمانون يكتنفها أكتاف مربعة، وعلى الأكتاف عمد مستديرة ملتصقة بها وقد استعمل الطراز الدوري في الطابق الأرضي، والأيوني في الطابق الثاني، والكورنثي في الطابق الثالث.



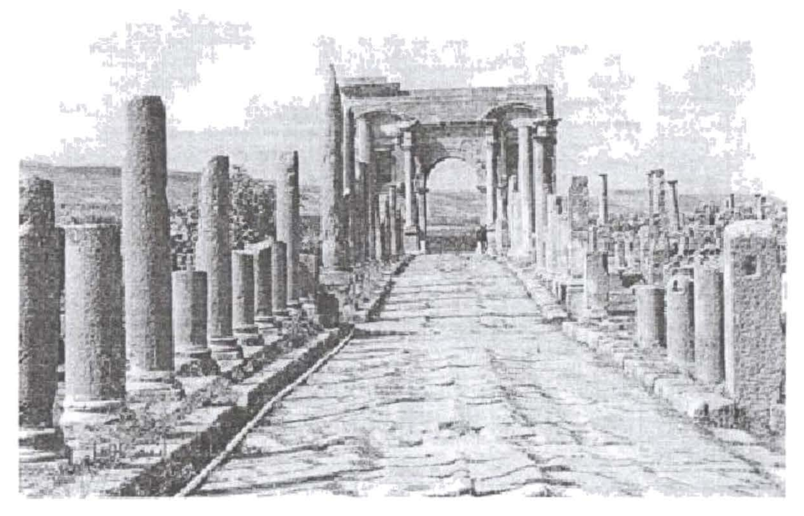
51



الكولوسيوم – روما



المسرح الروماني – تركيا



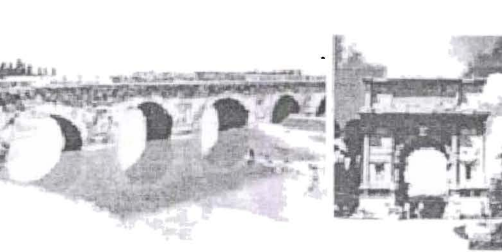
المسرح الروماني



ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية

العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية | العمارة الرومانية | الطراز والاعمدة الرومانية | مباني العمارة الرومانية

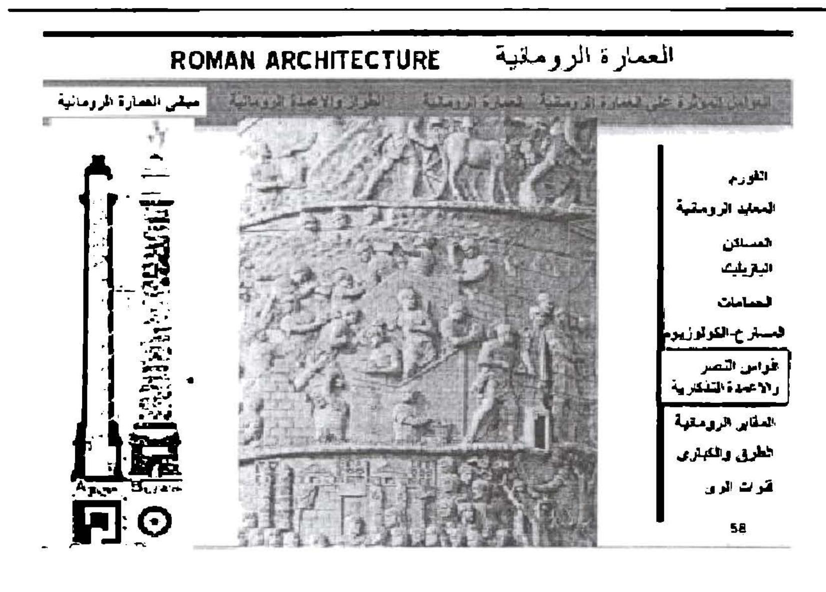
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
أقواس النصر والاعمدة التذكارية
المقابر الرومانية
الطرق والكباري
قنوات الري

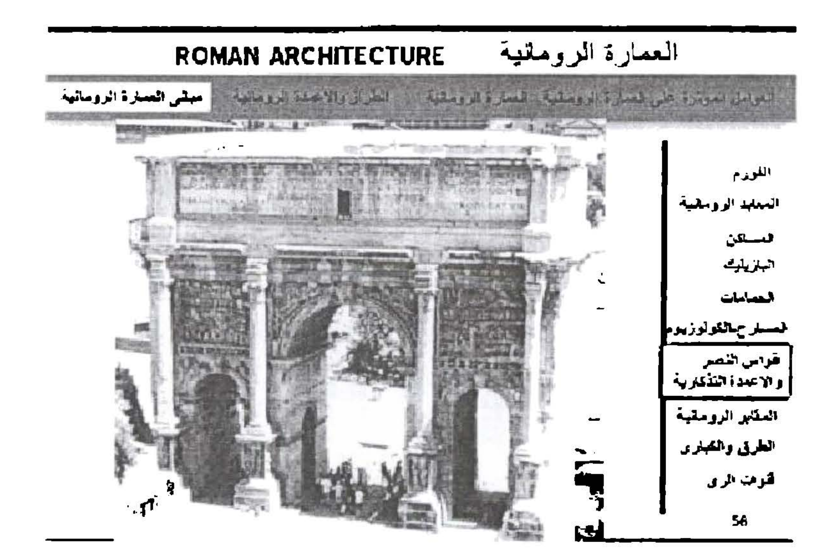


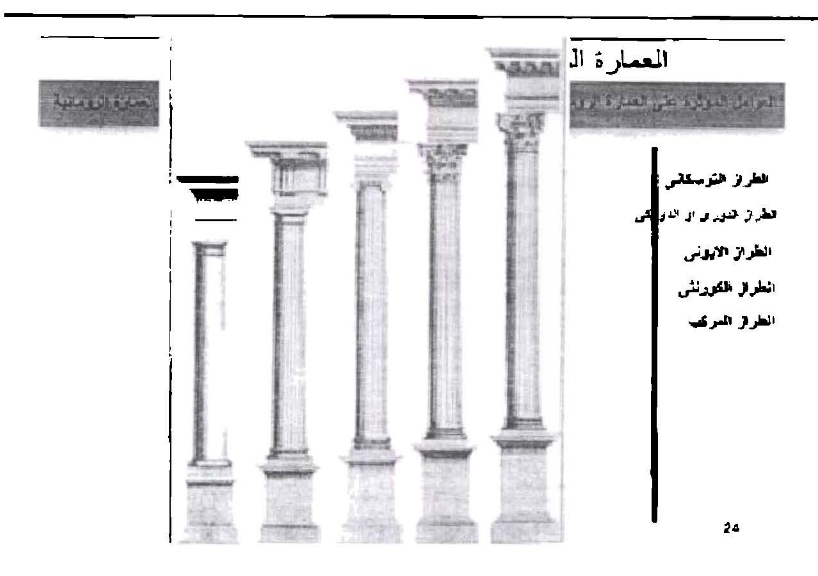
قنطرة أوجستس

قوس تيتوس

59

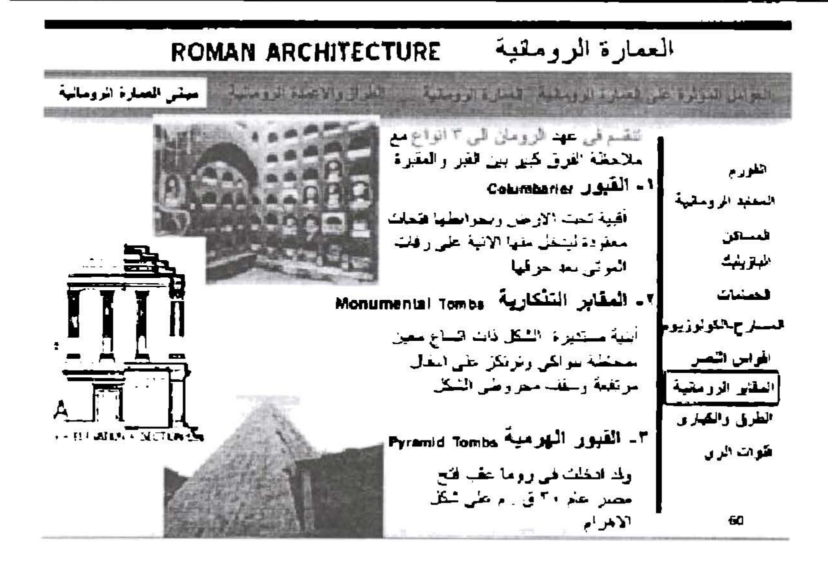

ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية
مباني العمارة الرومانية
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
أقواس النصر والاعمدة التذكارية
المقابر الرومانية
الطرق والكباري
قنوات الري
58


ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية
مباني العمارة الرومانية
الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
أقواس النصر والاعمدة التذكارية
المقابر الرومانية
الطرق والكباري
قنوات الري
56





قلعة الأكروبوليس، تقع في عاصمة اليونان أثينا بمقاطعة أتيكا باليونان وهي قلعة قديمة تقع على قمة تل. ولقد اضيف الموقع عام ١٩٨٧ إلى قائمة اليونسكو



ROMAN ARCHITECTURE العمارة الرومانية

العوامل المؤثرة على العمارة الرومانية | العمارة الرومانية | الطراز والاعمدة الرومانية | مبنى العمارة الرومانية

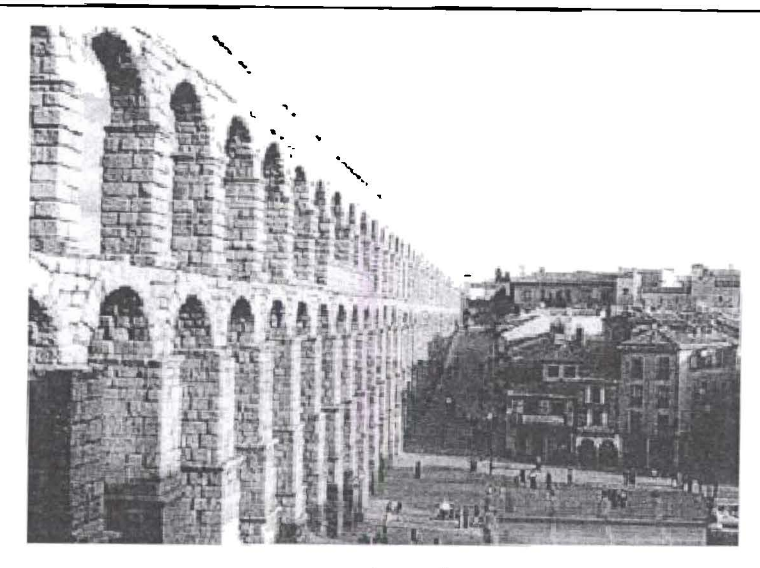
بنيت القناة الرومانية في بونت دو جارد Pont du Gard بالقرب نيم، فرنسا، بين أواخر القرن الاول قبل الميلاد ١بنى الرومان واسعة من أنظمة القنوات لنقل المياه إلى مناطقهم السكنية من مصادر بعيدة.

الفورم
المعابد الرومانية
المساكن
البازيليك
الحمامات
المسارح-الكولوزيوم
اقواس النصر
المقابر الرومانية
الطرق والكبارى وقنوات الري

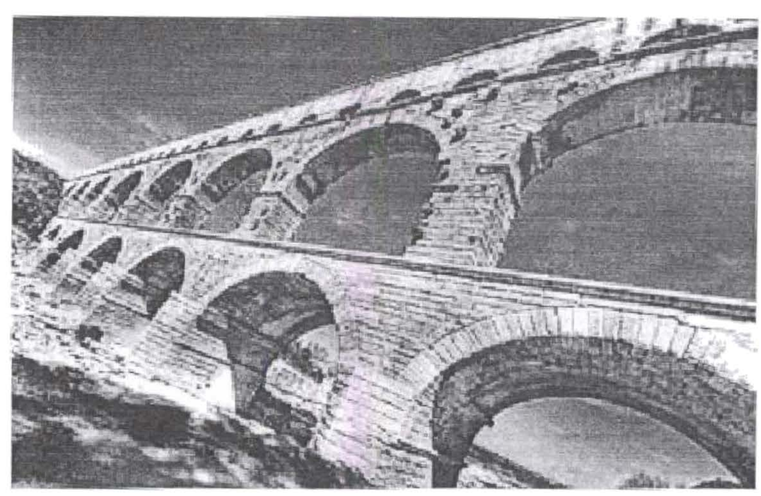


Gard Aqueduct

61



قناطر سيغوفيا، اسـبانيا



بونت دو جارد، جسـر القناة في جنوب فرنـسا

* الأزياء في العصر الروماني :

كانت الملابس في روما القديمة، تتكون بصفة عامة من الشملة. التونيك والستولا تثبت بواسطة بروش، والبناطيل القصير .



ولم تكن ثياب النساء والرجال في روما أكثر ترفاً من ثياب نساء العصر الحديث، أو أكثر فخامة أو أغلى ثمناً من ثياب الأشراف في العصور الوسطى .
ولم تكن الأزياء تتبدل في روما بالسرعة التي تتبدل بها في المدن الحديثة، بل كان الثوب الحسن يبقى مدى الحياة في بعض الأحيان دون أن يصبح زياً عتيقاً. ولكننا إذا وازنّا بين حياة الطبقات العليا في روما وبينها في عصر الجمهورية قبل أن يأتي بومبي لوكلس بغنائم الشرق وملذاته، حكمنا بأن روما أضحت في العصر الذي نتحدث عنه جنة ينعم بها المترفون بأفخر الثياب وأشهى الطعام المختلف الأنواع، وأجمل الأثاث، وأفخم البيوت. ولمّا أن جُرد الأشراف مما كان لهم من زعامة سياسية، وكادوا يحرمون كل سلطان سياسي، وانسحبوا من الجمعيات السياسية إلى

قصورهم، ولم يكن عليهم من أنفسهم وازع من الأخلاق اللهم إلا وازع الفلسفة، أطلقوا العنان لشهواتهم وأخذوا يسعون لإغتراف اللذة والتنعم بفن الحياة.

* أنواع الملابس :

* ملابس الرجال :

إذا جاز لنا أن نحكم على الرومان من بضع مئات من التماثيل، قلنا إن رجال الرومان في عهد نيرون كانوا أكثر بدانة، وألين أجساماً، وأرقى ملامح من أمثالهم في عصر الجمهورية الناشئة. لقد كانت سيطرة الرومان سبباً في احتفظ الكثيرين منهم بالصلابة وشدة المراس، يخشاهم الناس أكثر مما يحبونهم؛ ولكن الطعام والخمر والكسل أثرت في أجسام غير هؤلاء فأكسبتهم بدانة لو أنها كانت في أسرة سبيو لجللتها العار. وكانوا لا يزالون يحلقون لحاهم– أو على الأصح كان لهم حلاقون (Tensores) يحلقون على لحاهم. وكان اليوم الذي يحلق فيه الشاب لحيته أول مرة يوم يحتفل به في حياته. وكثيراً ما كان يهب شعر عارضيه الأول إلى إله من الآلهة دليلاً على ورعه وتقواه. وقد احتفظ العامة من الرومان بعادتهم التي كانوا عليها في عهد الجمهورية؛ عادة تقصير شعر رؤوسهم، أو إزالته كلها، ولكن عدداً متزايداً من الغنادرة كانوا يقصون شعرهم. وهكذا يمثل لنا ماركس أنطونيوس ودومتيان. وكان كثير من الرجال يتحلون بالشعر المستعار، ومنهم من كانوا ينقشون على قحوف رؤوسهم ما يشبه الشعر. وكانت جميع الطبقات في العهد الذي نتحدث عنه تلبس داخل البيوت وخارجها اللفاعة البسيطة أو الصدرة الواسعة؛ أما الطوغة (Toga) أو الجبة الرومانية فلم تكن تلبس إلا في المناسبات الرسمية، وكان يلبسها الموالي حين يستقبلهم الشريف الذي يحميهم، والأشراف إذا ذهبوا إلى مجلس الشيوخ أو مشاهدة الألعاب. وكان قيصر يلبس طوغة

أرجوانية ويتخذها شعاراً لمنصبه، وقد حذا حذوه في هذا كثيرون من كبار الموظفين، ولكن الطوغة الأرجوانية لم تلبث أن أصبحت امتيازاً خاصاً بالأباطرة. ولم يكونوا يعرفون السراويل (البنطلون) التي تضايقنا في هذه الأيام، ولا الأزرار الخدّاعة التي لا فائدة للكثير منها، ولا السراويل المنتفخة الضيقة عند الركبتين. لكن الرجال بدأوا في القرن الثاني يلفون أرجلهم باللفافات العريضة، أما الأحذية فكانت تختلف من الخف البسيط – وهو نعل من الجلد أو الفلين مشدود بشريط من الجلد بين الإصبع الكبرى والتي تليها كما يفعل أهل نيبون – إلى الحذاء الكامل المصنوع كله من الجلد أو الجلد والقماش. وكانوا ينتعلونه عادة مع الطوغة في المناسبات التي تتطلب ارتداء الثياب الكاملة .

* ملابس النساء :

أما النساء الرومانيات في عهد الإمبراطورية الأول، كما نشاهدن في المظلمات وفي التماثيل وعلى النقود، فقد كن ذوات شبه قريب بنساء الولايات المتحدة الأمريكية في بداية القرن العشرين إذا استثنينا من هذا التعميم أنهن كلهن تقريباً كن ذوات بشرة سمراء. وكانت أجسامهن متوسطات في النحافة، وكانت أثوابهن تخلع عليهن قواماً رشيقاً فاتناً، وكن يدركن قيمة ضياء الشمس، والرياضة، والهواء الطلق، وما لها من أثر في صحة الجسم واعتدال القوام، وكانت منهن من يمارسن الألعاب الرياضية بالأثقال، ومنهن من لا ينقطعن عن السباحة، ومن يعشن على نظام خاص من الطعام. وكان بعضهن يربطن صدورهن بالمشدات . وكانت النساء في العادة يمشطن شعرهن ويعقدنه خلف العنق، وكن في الغالب يغطينه بالشباك، ويربطنه بشريط فوق الرأس. وتطلبت الأزياء المستحدثة بعدئذ تنظيماً جديداً للشعر أرقى من هذا التنظيم القديم، فكان يرفع أحياناً فوق أسلاك معدنية،

وتضاف إليه غدائر مستعارة شقراء اللون مأخوذة من شعر الفتيات الألمانيات. وكانت المرأة المتطرفة على الطراز الحديث تستخدم عدداً من الجواري ساعات طوالاً في تدريم أظافرها وتصفيف شعرها.



تمثال رخامي روماني من القرن الأول الميلادي

يوضح ملابس النساء في تلك الفترة.



تمثال الإمبراطور تيبريوس

يرتدي شملة من القرن الأول الميلادي

المراجع

– رأفت عبد الحميد، الفكر السياسي الأوربي في العصور الوسطى، دار قباء للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٠٩.

– محمود سعيد عمران، معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٦.

– موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى/ ترجمة علي السيد علي، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥.

– أشرف صالح محمد سيد، قراءة في تاريخ وحضارة أوروبا العصور الوسطى، ط١، بيروت: شركة الكتاب الإلكتروني العربي،٢٠٠٨.

– د. ألفرد بتلر، فتح العرب لمصر (١٩٩٦) تعريب: محمد فريد أبو حديد، مكتبة مدبولي: القاهرة.

– محمد كرد علي ، خطط الشام.

- Bennett, J. Trajan: Optimus Princeps. 1997.. Regions east of the Euphrates river were held only in the years .

- Constantine I (306–337 AD) by Hans A. Pohlsander. Written 2004-01-08. Retrieved 2007-03-20.

- Rein (1979). "Size and Duration of Empires: ، Taagepera Growth-Decline Curves, 600 B.C. to 600 A.D".Social Science History (Duke University Press) 3 (3/4): 118 doi:10.2307/1170959. JSTOR 1170959.

- John D. Durand, Historical Estimates of World Population: An Evaluation, 1977.

- Thomas D ، Hall؛Jonathan M. ، Adams؛Peter ، Turchin (December 2006). "East-West Orientation of Historical Empires". Journal of world-systems research 12 (2): 219–229. ISSN 1076-156X. August 2010.

- Frank, Tenney: An Economic History of Rome, 1927.